

الحب في الميزان

أو

مهذب روضة المحبين ونزهة المشتاقين

للإمام ابن القيم

هذبه وخرج أحاديثه وعلق عليه

محمد الحمود النجدي

مكتبة الإمام الذهبي

الكويت


بسم الله الرحمن الرحيم


الحب في الميزان
أو
مهذب روضة المحبين ونزهة المشتاقين

الطبعة الأولى

١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م

مكتبة الإمام الذهبي

الكويت - حولي - شارع المثنى - ت ٢٦٥٧٨٠٦ - فاكس: ٢٦١٢٠٠٤

ص.ب: ١٠٧٥ - الرمز البريدي: ٣٢٠١١ - حولي

الفهرس

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وأصحابه وأتباعه إلىٰ يوم الدين وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد:

فإنَّ منزلة «المحبة» من منازل (إياك نعبد وإياك نستعين)، فتوحيد الألوهية بُني علىٰ إخلاص التألُّه لله سبحانه وتعالىٰ، وهو أشد المحبة لله تعالىٰ وحده، وذلك يستلزم إخلاص العبادة، وإرادة وجه الله عز وجل بالعمل.[1]

فمن أشرك بين الله تعالىٰ وبين غيره في المحبة التي لا تصلح إلا لله عز وجل، فهو مشرك، كما قال تعالىٰ ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ (البقرة: ١٦٥).

وفي قوله تعالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ قولان:

الأول: أنهم أشد حباً لله تعالىٰ لتمام معرفتهم به، وتوقيرهم وتعظيمهم له، وتوحيدهم له، لا يشركون به شيئاً، بل يعبدونه وحده، لأنه المستحق لذلك دون من سواه.

---

(١) انظر تيسير العزيزالحميد (ص٣٨ ـ ٤٠).

الثاني: أنهم أشد حباً لله تعالىٰ، من حب أهل الأوثان لأوثانهم[1].

ولا يجد العبدُ حلاوةَ الإيمانِ وطعمه، حتىٰ يكون الله تعالىٰ ورسوله ﷺ أحبَّ إليه مما سواهما، كما قال عليه الصلاة والسلام.

وحلاوة الإيمان تكون باستلذاذ الطاعات، وتحمل المشقات في سبيل الله تعالىٰ ورضاه، وإيثار ذلك علىٰ عَرَضَ الحياة الدنيا.[2]

وكلُّ محبةٍ محرَّمة، باطلة وزائلة يوم القيامة، قال سبحانه: ﴿**الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ** ﴿٦٧﴾﴾ (الزخرف: ٦٧).

فالمتخالِّين علىٰ الكفر والتكذيب ومعصية الله والرسول بعضهم لبعض عدوٌ في الآخرة، لأن خَلَّتهم ومحبتهم كانت لغير الله، بل علىٰ معصية الله، فانقلبت يوم القيامة عداوة وبغضاً، وحسرة وندامة.

ولاحظ تعبير القرآن (الأخلاء) ولم يقل: الأحباب، لأن الخُلة أعظمُ المحبة، فهي المحبة التي تخللت القلب، وبرغم تلك العلاقة القوية التي كانت تربطهم في الدنيا إلا أنهم أصبحوا أعداء، لأنها محبةٌ بُنيت علىٰ معصيةٍ وباطل، والباطل مضمحل زائل في الدنيا والآخرة، وما ربك بظلام للعبيد.

إنَّ «الحب والمحبة» من المفاهيم التي انتكست عند كثير من شباب وفتيات أمتنا، فمعظم ما يدور حول هذا الموضوع عندهم، وفي القصص والروايات، والمسلسلات والأفلام والأشعار ـ وللأسف الشديد ـ هو مما يخالف الشرع

---

(١) انظر زاد المسير (١/ ١٧٠) لابن الجوزي، وتفسير ابن كثير (١/ ١٣٥) بتهذيبنا، وتفسير السعدي (ص ٨٥).

(٢) انظر شرح النووي (٢/ ١٣).

والعفاف، ويوحي بل ويصرح كثيراً بعلاقات محرَّمة بين الجنسين، ويدعو إليها، ويرغِّب فيها!!

ولأنَّ سلاح الإيمان والتقوىٰ قد ضَعُف في نفوس كثيرٍ منَّا، فقد انتصرت عليه جيوش الباطل بخيلها ورَجلها، وإنا لله وإنا إليه راجعون، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وبعد :

فهذا الكتاب الفريد الذي بين يديك، من الكتب التي عالجت هذا الموضوع من شتىٰ جوانبه، فذكر فيه أنواع المحبة وأسماءها، في الكتاب والسنة ولغة العرب، ثم أسباب المحبة ودواعيها، وذكر باباً عظيماً في أحكام النظر وغائلته وما يجني به علىٰ صاحبه، ثم ذكر فوائد غض البصر ومنافعه، ثم ذكر الشُّبه التي استدل به الفَسَقة من الإباحية، علىٰ جواز النظر إلىٰ ما لا يحل وردَّ عليها، ثم هل العشق اضطراري أم اختياري، ثم باباً في استحباب تخير الصور الجميلة (ذوات الجمال) للوصال الذي يحبه الله تعالىٰ، ورسوله ﷺ، وأنه دواء المحبين الشرعي، ثم فصلاً في صفات الحور العين، ثم باباً في علامات المحبة وشواهدها وهو بابٌ عظيم جدير بالعناية، ثم باباً في غيرة المحبين علىٰ أحبابهم، الممدوح منها والمذموم، ثم عفاف المحبين مع أحبابهم، ثم باباً فيما يُفضي إليه ارتكابُ الحرام من المفاسد والآلام، وآفات الزنىٰ وأضراره، ثم باباً فيمن ترك محبوبه الحرام فأعاضه الله تعالىٰ عنه خيراً منه، وأخيراً ذكر باباً في ذمِّ الهوىٰ وما في مخالفته من نيل المنىٰ.

وغير ذلك من المباحث النفيسة، والكلمات الرائعة، والحكم الباهرة، والاستنباطات المفيدة من نصوص القرآن والسنة، وفهم السلف.

فالكتاب كما وصفه به مؤلِّفه يحتوي على: «نُكتٍ تفسيرية، وأحاديث نبوية، ومسائل فقهية، وآثار سلفية، وشواهد شعرية، ووقائع كونية، ما يكون مُمتعاً لقاريه، مُرَوِّحاً للناظر فيه، فإن شاء أوسعه جداً، وأعطاه ترغيباً وترهيباً، وإن شاء أخذ من هزله ومُلَحِه نصيباً، فتارة يضحكه وتارةً يبكيه، وطَوْراً يبعده من أسباب اللذة الفانية، وطوراً يُرغّبه فيها ويدنيه، فإن شئت وجدته واعظاً ناصحاً، وإن شئت وجدته بنصيبك من اللذة والشهوة، ووصل الحبيب مسامحاً».

* عملي في الكتاب :

١ - حذفت الأحاديث الضعيفة والمنكرة الواردة في الكتاب.

٢ - خَرجت الأحاديث الصحيحة تخريجاً مختصراً.

٣ - حذفت القصص المطولة، والأشعار المتكررة، وما رأيت فيه خدشاً للحياء، دون حاجة شرعية تقتضيه، وهو أحد ما كان يصد بعض الناس عن قراءته، وأبى الله أن يتم إلا كتابه.

٤ - أبقيت تعليقات محمد حامد الفقي رحمه الله تعالى أو جلَّها.

٥ - علقت على بعض المواضع التي تحتاج إلى تعليق، ورمزت لها بحرف (م).

هذا والله تعالى أسأل أن ينفع بهذا الكتاب شباب الأمة وفتياتها، وأن يكفينا وإياهم شر أنفسنا، وسيئات أعمالنا، وكيد أعدائنا، أنه هو السميع العليم.

وصلى الله وسلم وبارك وأنعم على عبده ورسوله محمد وآله وصحبه

وكتبه

محمد الحمود النجدي

التحفة السنية في ترجمة الإمام ابن قيم الجوزية
(ترجمة موجزة)

اسمه ونسبه وأسرته :

هو الإمام المحقق المدقق المتفنن : أبو عبدالله شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب الزُّرعي ثم الدمشقي الحنبلي ، الشهير بابن قيم الجوزية ، أو بابن القيم .

ولد سنة ٦٩١هـ ، ونشأ في بيت صلاح وفضل وعلم ، فوالده «أبوبكر» ، قال عنه الحافظ ابن كثير : «الشيخ الصالح العابد الناسك أبوبكر بن أيوب بن سعد الزرعي الحنبلي ، قيم الجوزية ، كان رجلاً صالحاً متعبداً قليل التكلف . . » (البداية والنهاية : ١٤/ ٩٥) .

طلبه للعلم وصفاته وأخلاقه :

تلقى علومه في المدرسة الجوزية ، وبجو دمشق الذي كان يَعُجُّ آنذاك بعشراتِ المدارس والجوامع ، والدروس والحِلَق المفتوحة لكل طالب وسامع .

وقد آتاه الله ألمعيةً نادرةً ، وذكاءً مفرطاً ، وأريحية كريمة ، وهمة عالية ، وقلباً ثابتاً . .

قال ابن كثير عنه : «وكان حسن القراءة والخُلُق ، وكثير التودّد ، لا يحسد أحداً ولا يُوذيه ، ولا يَستعيبه ، ولا يَحقد على أحد ، وبالجملة كان قليل النظير في مجموعه وأموره وأحواله ، والغالب عليه الخير والأخلاق الفاضلة» .

وقال الحافظ ابن رجب : «وكان رحمه الله تعالى ذا عبادة وتهجد ، وطول

صلاة إلىٰ الغاية القصوىٰ، وتألهٍ ولَهَج بالذكر، وشغف بالمحبة والإنابة والاستغفار والافتقار إلىٰ الله، والانكسار له، والإطراح بين يديه علىٰ عتبة عبوديته، لم أُشاهد مثله في ذلك، ولا رأيتُ أوسع منه علماً، ولا أعرف بمعاني القرآن والسنة وحقائق الإيمان أعلم منه، وليس هو المعصوم، ولكن لم أر في معناه مثله».

وقال الذهبي: «عُني بالحديث وفنونه ورجاله، وكان يشتغل بالفقه ويجيد تقريره، وفي النحو ويدريه، وفي الأصلين».

وقال الحافظ ابن حجر: «كان جريءَ الجنان، واسعَ العلم، عارفًا بالخلاف ومذاهب السلف».

أعمالُه ووظائفه:

لقد ارتبطت حياته بالعلم، فلم تَخرج أعماله عن محيط العلم وخدمته، والمثابرة علىٰ ذلك تعليماً وإقراءً ودرساً وتأليفاً، وقد تولىٰ الإمامة بالجوزيَّة والتدريس بالصدرية (مدرسة) وتصدّىٰ للفتوىٰ والتأليف.

مؤلفاته:

قد أُحصيتْ مؤلفاته فقاربت المائة (١٠٠) مصنف، في شتىٰ الفنون: التفسير والحديث والفقه وأصوله في المواعظ وغيرها.

ومن أشهرها: زاد المعاد في هدي خير العباد، وإعلام الموقعين عن رب العالمين، وإغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، وبدائع الفوائد، والصواعق المنزلة علىٰ الجهمية والمعطلة وغيرها من التصانيف الفذّة.

مشايخه :

من أشهر مشايخ ابن القيم شيخ الإسلام ابن تيمية رحمهما الله تعالىٰ، فقد انتفع به غاية الانتفاع، وأحبه ولازمه حتىٰ آخر لحظةٍ من حياته، وقد امتُحن وأوذي من أجل مناصرته لشيخه في ذات الله تعالىٰ، حاملاً راية تجديد الدِّين في حياة المسلمين علىٰ منهج السلف الأولين، من الصحابة ومن تبعهم بإحسان، ثابتاً علىٰ جادة التوحيد، فاتسعت به دائرة المدرسة السلفية، وانتشر روادها في كل ناحيةٍ وصَقع، وأنقذ الله بهم كثيراً ممن وقع في المذاهب الكلامية، والتخبطات العقائدية، وأصحاب التقليد والطائفية، راجعين بهم إلىٰ ما كان عليه حال الرسول المصطفىٰ الكريم، وصحابته معادن الفضل والخير.

تلاميذه :

تتلمذ عليه الحافظ زين الدين أبو الفرج ابن رجب، والحافظ ابن كثير الدمشقي، صاحب التفسير والبداية والنهاية، والحافظ ابن عبدالهادي، وغيرهم.

وفاته :

قال الحافظ ابن كثير: وفي ليلة الخميس ثالث عشر رجب (سنة ٧٥١هـ) وقت أذان العشاء توفي صاحبنا الشيخ الإمام العلامة شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي، إمام الجوزية وابن قيمها، وصُلي عليه بعد صلاة الظهر من الغد بالجامع الأموي، ودُفن عند والدته بمقابر الباب الصغير رحمه الله.

فرحم الله تعالى الإمام ابن القيم رحمة واسعة، وطوبى لمن عطف الله قلبه على محبة أهل العلم والفضل، جعلنا الله تعالى منهم، والحمد لله رب العالمين.



رب يسر يا كريم

الحمد لله الذي جعل المحبة إلى الظفر بالمحبوب سبيلاً، ونصب طاعته، والخضوع له على صدق المحبة دليلاً، وحرك بها النفوس إلى أنواع الكمالات إيثاراً لطلبها وتحصيلاً، وأودعها العالم العلوي والسفلي لإخراج كماله من القوة إلى الفعل إيجاداً وإمداداً وقبولاً، وأثار بها الهمم السامية والعزمات العالية إلى أشرف غاياتها تخصيصاً لها وتأهيلاً، فسبحان من صرَّف عليها القلوب كما يشاء ولما يشاء بقدرته، واستخرج بها ما خلق له كل حي بحكمته، وصرفها أنواعاً وأقساماً بين بريته، وفصلها تفصيلاً، فجعل كل محبوب لمحبه نصيباً، مخطئاً كان في محبته أو مصيباً، وجعله بحبه منعماً أو قتيلاً.

فقسمها بين محب الرحمن، ومحب الأوثان، ومحب النيران، ومحب الصلبان، ومحب الأوطان، ومحب الإخوان، ومحب النِّسوان، ومحب الصبيان، ومحب الأثمان[1]، ومحب الإيمان، ومحب الألحان، ومحب القرآن. وفضل أهل محبته ومحبة كتابه ورسوله على سائر المحبين تفضيلاً، فبالمحبة وللمحبة وجدت الأرض والسموات، وعليها فطرت المخلوقات، ولها تحرَّكت الأفلام الدائرات، وبها وصلت الحركات إلى غاياتها، واتصلت بداياتها بنهاياتها، وبها ظفرت النفوس بمطالبها، وحصلت على نيل مآربها، وتخلصت من معاطبها[2]، واتخذت إلى ربها سبيلاً، وكان لها دون غيره

(١) الأثمان : الأموال .

(٢) المعاطب : المهالك ، وأحدها معطب كمذهب .

مأمولاً وسُولاً ، وبها نالت الحياة الطيبة ، وذاقت طعم الإيمان ، لما رضيت بالله ربا وبالإسلاك ديناً وبمحمد ﷺ رسولاً ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة مقر بربوبيته ، شاهد بوحدانيته ، منقاد إليه لمحبته ، مذعن له بطاعته ، معترف بنعمته ، فار إليه من ذنبه وخطيئته ، مؤمل لعفوه ورحمته ، طامع في مغفرته ، بريء إليه من حوله وقوته ، لا يبتغي سواه رباً ، ولا يتخذ من دونه ولياً ولا وكيلاً ، عائذ به ، ملتجِ إليه ، لا يروم عن عبوديته انتقالاً ولا تحويلاً .

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، وخيرته من خلقه ، وأمينه على وحيه ، وسفيره بينه وبين عباده ، أقرب الخلق إليه وسيلة ، وأعظمهم عنده جاهاً ، وأسمعهم لديه شفاعة ، وأحبهم إليه ، وأكرمهم عليه ، أرسله للإيمان منادياً ، وإلى الجنة داعياً ، وإلى صراطه المستقيم هادياً ، وفي مرضاته ومحابه ساعياً ، وبكل معروف آمراً ، وعن كل منكر ناهياً ، رفع له ذكره ، وشرح له صدره ، ووضع عنه وزره ، وجعل الذلة والصَّغار على من خالف أمره ، وأقسم بحياته في كتابه المبين[1] ، وقرن اسمه باسمه ، فإذا ذكر الله ذكر معه ، كما في الخطب والتشهد والتأذين ، فلا يصح لأحد خطبة ولا تشهد ولا أذان ، حتى يشهد أنه عبده ورسوله شهادة اليقين :

أغـــــرُّ عليـــــه للنبـــــوة خـــــاتَمٌ

من الله مـــيـــمـــون يلوح ويشـــهـــدُ

---

(١) إشارة إلى قوله تعالى في سورة الحجر : (لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون) وأكثر المفسرين على أن القسم مقصود به النبي ﷺ . (الفقي)

وضمَّ الإلهُ اسم النبي إلى اسمه
إذ قال في الخمس المؤذنُ أشهدُ

وشق له من اسمه ليجلَّه
فذو العرش محمودٌ وهذا محمد

أرسله على حين فترة من الرسل، فهدى به إلى أقوم الطرق وأوضح السبل، وافترض على العباد محبته وطاعته، وتوقيره والقيام بحقوقه، وسد إلى الجنة جميع الطرق فلم يفتح لأحد إلا من طريقه. فلا مطمع في الفوز بجزيل الثواب، والنجاة من وبيل[1] العقاب، إلا لمن كان خلفه من السالكين، ولا يؤمن عبد حتى يكون أحب إليه من نفسه وولده ووالده والناس أجمعين، فصلى الله وملائكته وأنبياؤه ورسله وجميع عباده المؤمنين عليه، كما وحَّد الله وعرف أمته به ودعا إليه، صلاة لا تروم عنه انتقالاً ولا تحويلاً، وعلى آله الطيبين، وصحبه الطاهرين، وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد: فإن الله جل ثناؤه، وتقدست أسماؤه، جعل هذه القلوب أوعية، فخيرها أوعاها للخير والرشاد، وشرها أوعاها للغي والفساد، وسلط عليها الهوى، وامتحنها بمخالفته لتنال بمخالفته جنة المأوى، ويستحق من لا يَصلح للجنة بمتابعته ناراً تلظى، وجعله مركب النفس الأمارة بالسوء وقوتها وغذاها، وداء النفس المطمئنة ومخالفته دواها، ثم أوجب سبحانه وتعالى على العبد في هذه المدة القصيرة التي هي بالإضافة إلى الآخرة كساعة من نهار، أو كبلل ينال الإصبع حين يدخلها في بحر من

(١) وبيل العقاب: شديده. قال تعالى في سورة المزمل (فأخذناه أخذا وبيلا).

البحار[1]، عصيانَ النفس الأمارة ومجانبة هواها، وردعها عن شهواتها التي في نيلها رداها، ومنعها من الركون إلىٰ لذاتها، ومطالبة ما استدعته العيون الطامحة بلحظاتها، لتنال نصيبها من كرامته وثوابه موفراً كاملاً، وتلتذ آجلاً بأضعاف ما تركته لله عاجلاً، وأمرها بالصيام عن محارمه ليكون فطرها عنده يوم لقائه، وأخبرها أن معظم نهار الصيام قد ذهبَ، وأن عيد اللقاء قد اقترب. فلا يطول عليها الأمد باستبطائه.

كما قيل:

فـمـا هي إلا ساعـةٌ ثم تنقـضي

ويـذهـب هـذا كـلـه ويـزول

هيأها لأمر عظيم، وأعدَّها لخطب جسيم، وادَّخر لها ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر علىٰ قلب بشر من النعيم المقيم، واقتضت حكمته البالغةُ أنها لا تصل إليه إلا من طريق المكاره والنصب، ولا تعبُرُ إليه إلا علىٰ جسر المشقة والتعب، فحجبه بالمكروهات صيانة له عن الأنفس الدنيّات، المؤْثرَة للرذائل والسفليات، وشمَّرت إليه النفوس العلويات، والهمم العليَّات، امتطت في السير إليه ظهور العزمات، فسارت في ظهورها إلىٰ أشرف الغايات.

أجابوا مناديَ الحبيب لما أذَّن لهم حيَّ علىٰ الفلاح، وبذلوا نفوسهم في

---

(١) هذا المعنى مأخوذ من حديث رواه مسلم وغيره: عن المستورد بن شداد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما الدنيا في الآخرة، إلا مثل ما يجعل أحدكم إصبعه في اليم، فلينظر بم ترجع؟» (الفقي).

مرضاته بذل المحب بالرضا والسماح، وواصلوا السير إليه بالغدوِّ والرَّواح، فحمدوا عند الوصول مسراهم وإنما يَحْمَدُ القوم السُّرىٰ[1] عند الصباح، تعبوا قليلاً، فاستراحوا طويلاً، وتركوا حقيراً، واعتاضوا عظيماً. وضعوا اللذة العاجلة والعاقبة الحميدة في ميزان العقل فظهر لهم التفاوت، فرأوا من أعظم السَّفه، بيعَ الحياة الطيبة الدائمة في النعيم المقيم، بلذة ساعة تذهب شهوتها، وتبقىٰ شقوتها. هذا وإنَّ من أيام اللذات لو صفت للعبد من أول عمره إلىٰ آخره لكانت كسحابة صيف تتقشع عن قليل، وخيال طيفٍ ما استتم الزيارة حتىٰ آذن بالرحيل. قال تعالىٰ: ﴿ **أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ (٢٠٥) ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ (٢٠٦) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ (٢٠٧)** ﴾[2] ومن ظفر بمأموله من ثواب الله، فكأنه لم يُوتَر[3] من دهره بما كان يحاذره ويخشاه، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يتمثل بهذا البيت من الشعر:

كـأنـك لـم تُوتَرْ مـن الـدهـر مـرة

إذا أنـت أدركـت الـذي أنـت طـالـبـه

---

(١) السرى: سير عامة الليل. يؤنث ويذكر. وهذا المثل يضرب لمن يحتمل المشقة رجاء الراحة، وفي الحق على مزاولة الأمر، والصبر، وتوطين النفس حتى يحمد عاقبته.

(٢) الآيات ٢٠٥ و٢٠٦ و٢٠٧. سورة الشعراء.

(٣) وتر الرجل: أفزعه وأدركه بمكروه، ووتره أيضاً إذا أصابه بوتر وهو الذحل، أي الثأر عامة، أو الظلم فيه.

فصل

[فضل العقل]

وهذا ثمرة العقل الذي به عُرف الله سبحانه وتعالىٰ وأسماؤه، وصفات كمال ونعوتُ جلاله، وبه آمن المؤمنون بكتبه ورسله ولقائه وملائكته، وبه عُرفت آيات ربوبيته وأدلةُ وحدانيته ومعجزات رسله، وبه امتُثِلَتْ أوامره واجتنبت نواهيه، وهو الذي تلمَّح العواقب فراقبها، وعمل بمقتضىٰ مصالحها، وقاوم الهوىٰ فردَّ جيشه مغلولاً، وساعد الصبر حتىٰ ظفر به بعد أن كان بسهامه مقتولاً، وحثَّ علىٰ الفضائل، ونهىٰ عن الرذائل، وفتق المعاني وأدرك الغوامض، وشدَّ أزرَ العزم فاستوىٰ علىٰ سوقه، وقوَّىٰ أزْرَ الحزم حتىٰ حظىٰ من الله بتوفيقه، فاستجلب ما يزين، ونفىٰ ما يشين، فإذا نزل وسلطانه أسر جنود الهوىٰ فحصرها في حبس من ترك لله شيئاً عوَّضه الله خيراً منه، ونهض بصاحبه إلىٰ منازل الملوك، إذا صيَّر الهوىٰ الملكَ بمنزلة العبد للملوك، فهي شجرةٌ عِرْقُها الفكر في العواقب، وساقُها الصبر، وأغصانُها العلم، وورقها حسن الخُلُقُ، وثمرها الحكمة، ومادتها توفيق من أزمَّة الأمور بيديه، وابتداؤها منه وانتهاؤها إليه. وإذا كان هذا وصفه، فقبيح أن يُدال[1] عليه عدوُّه فيعزله عن مملكته، ويحطه عن رتبته، ويستنزله عن درجته، فيصبح أسيراً بعد أن كان أميراً، ومحكوماً بعد أن كان حاكماً، وتابعاً بعد أن كان متبوعاً، ومن صبر علىٰ حكمه أرتعه[2] في رياض الأماني والمنىٰ، ومن خرج

---

(١) يدال عليه: يغلبه وينتصر عليه.

(٢) أرتعه: نعّمه، والرتع: التنعم، ورتع: أكل وشرب ما شاء في خصب وسعة. قال تعالى في سورة يوسف (أرسله معنا غداً يرتع ويلعب).

عن حكمه أورده حياض الهلاك والردىٰ، قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: لقد سبق إلىٰ جنات عدن أقوامٌ ما كانوا بأكثر الناس صلاة ولا صياماً ولا حجاً ولا اعتماراً، لكنهم عقلوا عن الله مواعظه، فوجلت منه قلوبهم، واطمأنت إليه نفوسهم، وخشعت له جوارحهم، ففاقوا الناس بطيب المنزلة وعلوِّ الدرجة، عند الناس في الدنيا، وعند الله في الآخرة. وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ليس العاقل الذي يعرف الخير من الشر، ولكنه الذي يعرف خير الشرين.

وقالت عائشة رضي الله عنها: قد أفلح من جعل الله له عقلاً.

وهذه الثلاثة: [الدين والخلق والعقل] أعظم كرامة أكرم الله بها عبده، وأجلُّ عطيَّةٍ أعطاه إياها. وجعل لها ثلاثة أعداء: الهوىٰ، والشيطان، والنفس الأمَّارة. والحرب بينهما دولٌ وسِجال[1]، ﴿**وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ** (١٢٦)﴾[2]. وقال وهب بن منبِّه: قرأتُ في بعض ما أنزل الله تعالىٰ: إن الشيطان لم يكابد شيئاً أشد عليه من مؤمن عاقل، وإنه ليسوق مائة جاهل فيستجرّهم حتىٰ يركب رقابهم فينقادون له حيث شاء، ويكابد المؤمن العاقل فيُصْعِب عليه حتىٰ ينال منه شيئاً من حاجته، قال: وإزالة الجبل صخرة صخرة أهون علىٰ الشيطان من مكابدة المؤمن العاقل، فإذا لم يقدر عليه تحوَّل إلىٰ الجاهل فيستأسره، ويتمكن من قياده حتىٰ يُسْلِمه إلىٰ الفضائح التي يتعجل بها في الدنيا الجَلْدَ والرجم والقطعَ والصلب والفضيحة، وفي الآخرة العار والنار والشنَّار[3]. وإن الرجلين ليستويان في

(١) الحرب بينهم سجال: يعني أنها مرة لهم ومرة عليهم.

(٢) الآية ١٢٦: سورة آل عمران.

(٣) الشنار: أقبح العيب، العار، الأمر المشهور بالشنعة.

البرِّ ويكون بينهما في الفضل كما بين المشرق والمغرب بالعقل، وما عُبِدَ اللهُ بشيء أفضل من العقل.

وقال معاذ بن جبل رضي الله عنه: لو أن العاقل أصبح وأمسىٰ وله ذنوبٌ بعدد الرمل كان وشيكاً بالنجاة والتخلص منها، ولو أن الجاهل أصبح وأمسىٰ وله من الحسنات وأعمال البر عدد الرمل، لكان وشيكاً أن لا يسلم له منها مثقال ذرة. قيل: وكيف ذلك؟ قال: إن العاقل إذا زلَّ تدارك ذلك بالتوبة والعقل الذي رُزقه، والجاهل بمنزلة الذي يبني ويهدم، فيأتيه من جهله ما يفسد صالح عمله.

وقال الحسن: لا يتمّ دين الرجل حتىٰ يتم عقله، وما أودع الله أمرءاً عقلاً إلا استنقذه به يوماً. وقال بعض الحكماء: من لم يكن عقله أغلب الأشياء عليه كان حتفه[1] وهلاكه في أحب الأشياء إليه. وقال يوسف بن أسباط: العقل سراج ما بطن، وزينة ما ظهر، وسائس الجسد، ومِلاك أمر العباد، ولا تصلحُ الحياة إلا به، ولا تدور الأمور إلا عليه. وقيل لعبدالله بن المبارك: ما أفضل ما أعطىٰ الرجل بعد الإسلام؟ قال: غريزة عقل، قيل: فإن لم يكن؟ قال: أدبٌ حسن، قيل: فإن لم يكن؟ قال: أخٌ صالحٌ يستشيره، قيل: فإن لم يكن؟ قال: صمتٌ طويلٌ، قيل: فإن لم يكن؟ قال: موتٌ عاجلٌ. وفي ذلك قيل:

ما وَهَب الله لامرئ هبة
أحسنَ من عقله ومن أدبهْ
هما جمال الفتى فإنْ فُقدا
ففقدُه للحياة أجملُ بهْ

---

(١) الحتف: الموت.

فصل

[في الحلال غُنية عن الحرام]

وإذا كانت الدولة للعقل سالمه الهوىٰ، وكان من خدمه وأتباعه، كما أن الدولة إذا كانت للهوىٰ، صار العقل أسيراً في يديه، محكوماً عليه.

ولما كان العبد لا ينفك عن الهوىٰ مادام حياً ـ فإن هواه لازمٌ له ـ كان له الأمر بخروجه عن الهوىٰ بالكلية كالممتنع، ولكن المقدور له والمأمور به أن يصرف هواه عن مراتع الهلكة إلىٰ مواطن الأمن والسلامة، مثاله: أن الله سبحانه وتعالىٰ لم يأمره بصرف قلبه عن هوىٰ النساء جملة، بل أمره بصرف ذلك الهوىٰ إلىٰ نكاح ما طاب له منهنَّ من واحدة إلىٰ أربع، ومن الإماء ما شاء، فانصرف مجرىٰ الهوىٰ من محل إلىٰ محل، وكانت الريح دبوراً(١) فاستحالت صباً، وكذلك هو الظفر والغلبة والقهر، لم يأمر بالخروج عنه، بل أمر بصرفه إلىٰ الظفر والقهر والغلبة للباطل وحزبه، وشرع له من أنواع المغالبات بالسباق وغيره مما يُمرِّنه ويَعُدُّه للظفر، وكذلك هوىٰ الكبر والفخر والخُيَلاء مأذونٌ فيه، بل مستحبٌّ في محاربة أعداء الله. وقد رأىٰ النبي ﷺ أبا دُجانة سماك بن خَرشة الأنصاري يتبختر بين الصفين فقال: «إنها لمشيةٌ يبغضها اللهُ إلا في مثل هذا الموطن»(٢).

---

(١) الدبور: ريح تهب من المغرب، وتقابل القبول وهي الصبا.

(٢) حديث حسن، أخرجه الطبراني في الكبير (٦٥٠٨) قال الهيثمي: (٦/ ١٠٩): وفيه من لم أعرفه.

لكن له شاهد مرسل عند ابن إسحاق ـ كما في السيرة لابن هشام (٣/ ١١ ـ ١٢) ودلائل النبوة للبيهقي (٣/ ٢٣٣) ـ يتقوى به، والله أعلم.

وقال: «إن من الخُيلاء ما يحبها الله ومنها ما يبغض الله، فالتي يحبها: اختيال الرجل في الحرب، وعند الصدقة» وذكر الحديث.(١)

فما حرَّم الله علىٰ عباده شيئاً إلا عوَّضهم خيراً منه، كما حرَّم عليهم الاستقسام بالأزلام(٢) وعوَّضهم منه دعاء الاستخارة، وحرَّم عليهم الربا وعوَّضهم منه التجارة الرابحة، وحرَّم عليهم القمار وأعاضهم منه أكل المال بالمسابقة النافعة في الدين، بالخيل والإبل والسهام، وحرَّم عليهم الحرير وأعاضهم منه أنواع الملابس الفاخرة من الصوف والكتان والقطن، وحرَّم عليهم الزنا واللواط وأعاضهم منها بالنكاح والتسري بصنوف النساء الحسان، وحرَّم عليهم شرب المسكر وأعاضهم عنه بالأشربة اللذيذة النافعة للروح والبدن، وحرَّم عليهم سماع آلات اللهو من المعازف والمثاني، وأعاضهم عنها بسماع القرآن والسبع المثاني، وحرَّم عليهم الخبائث من المطعومات، وأعاضهم عنها بالمطاعم الطيبات. ومن تلمَّحَ هذا وتأمله، هان عليه ترك الهَوىٰ المُرْدي، واعتاض عنه بالنافع المجدي، وعرف حكمة الله ورحمته وتمامَ نعمته علىٰ عباده فيما أمرهم به ونهاهم عنه وفيما أباحه لهم، وأنه لم يأمرهم بما أمرهم به حاجة منه إليهم، ولا نهاهم عنه بخلاً منه تعالىٰ عليهم،

---

(١) حديث حسن رواه أحمد (٥/ ٤٤٥، ٤٤٦) وأبو داود (٢٦٥٩) والنسائي (٥/ ٧٨) وغيرهم من حديث جابر بن عتيك مرفوعاً وأوله: «إن من الغيرة ما يحب ومنها ما يبغض...».
وله شواهد منها: ما رواه أحمد (٤/ ١٥٤) من حديث عقبة بن عامر مرفوعاً «غيرتان، أحدهما يحبها الله عز وجل، والأخرى يبغضها الله، ومخيلتان...».
وانظر الإرواء (١٩٩٩).

(٢) جمع زلم: السهم الذي لا ريش له. وكانوا في الجاهلية يستقسمون بالأزلام، كانوا يكتبون عليها الأمر والنهي، ويضعونها في وعاء، فإذا أراد أحدهم أمراً أدخل يده فيه وأخرج سهماً، فإن خرج ما فيه الأمر مضى لقصده، وإن خرج ما فيه النهي كف.

بل أمرهم بما أمرهم إحساناً منه ورحمة، ونهاهم عما نهاهم عنه صيانة لهم وحمية[1].

فلذلك وضعنا هذا الكتاب وضع عَقد الصلح بين الهوىٰ والعقل، وإذا تمَّ عقد الصلح بينهما سهل علىٰ العبد محاربة النفس والشيطان، والله سبحانه المستعان، وعليه التكلان، فما كان فيه من صواب فمن الله، فهو الموفق له والمعين عليه، وما كان فيه من خطإ فمني ومن الشيطان، واللهُ ورسولهُ من ذلك بريئان.

وسميته: **روضة المحبين، ونزهة المشتاقين**

والمرغوب إلىٰ من يقف علىٰ هذا الكتاب أن يعذر صاحبه، فإنه علقه في حال بُعده عن وطنه، وغيبته عن كتبه، فما عسىٰ أن يبلغ خاطره المكدود، وسعيه المجهود، مع بضاعته المزجاه[2]، التي حقيقٌ بحاملها أن يقال فيه «تسمع بالمعيدي خيرٌ من أن تراه» وها هو قد نصب نفسه هدفاً لسهام الراشقين، وغرضاً لأسنَّة الطاعنين، فلقاريه غنْمه، وعلىٰ مؤلفه غُرْمه، وهذه بضاعته تُعرض عليك، وموليَّته[3] تُهدىٰ إليك، فإنْ صادفت كفؤاً كريماً لها لن تعدم منه إمساكاً بمعروفٍ أو تسريحاً بإحسان، وإنْ صادفت غيره فالله تعالىٰ المستعان، وعليه التكلان. وقد رضي من مهرها بدعوةٍ خالصةٍ إنْ وافقت قبولاً واستحساناً، وبردٍّ جميلٍ إن كان حظها احتقاراً واستهجاناً، والمنصف يهب خطأ المخطئ لإصابته، وسيئاته لحسناته، فهذه سنة الله في

(١) الحمية: الامتناع عما يضر والوقاية منه.

(٢) مزجاة: رديئة ومردودة، والمزجى: الشيء القليل، قال تعالى في سورة يوسف (وجئنا ببضاعة مزجاة) الآية: ٨٨.

(٣) موليته: من له ولاية عليها.

عباده جزاء وثواباً. ومن ذا الذي يكون قوله كله سديداً وعمله كله صواباً؟ وهل ذلك إلا المعصوم الذي لا ينطق عن الهوىٰ، ونطقه وحيٌ يوحىٰ، فما صح عنه فهو نقلٌ مصدَّق عن قائل معصوم، وما جاء عن غيره فثبوت الأمرين فيه معدوم، فإن صحَّ النقل لم يكن القائل معصوماً، وإنْ لم يصحَّ لم يكن وصوله إليه معلوماً.

فصل

وهذا الكتاب يصلح لسائر طبقات الناس. فإنه يصلح عوناً علىٰ الدين وعلىٰ الدنيا، مرقاة للذة العاجلة ولذة العقبىٰ، وفيه من ذكر أقسام المحبة وأحكامها ومتعلقاتها، وصحيحها وفاسدها، وآفاتها وغوائلها[1]، وأسبابها وموانعها، وما يناسب ذلك من نُكَت تفسيرية، وأحاديث نبوية، ومسائل فقهية، وآثار سلفية، وشواهد شعرية، ووقائع كونية، ما يكون مُمْتِعاً لقاريه، مُروِّحاً للناظر فيه، فإن شاء أوسعه جداً وأعطاه ترغيباً وترهيباً، وإن شاء أخذ من هزله ومُلحه نصيباً، فتارة يُضحكه وتاره يبكيه، وطوراً يبعده من أسباب اللذة الفانية، وطوراً يرغِّبه فيه ويُدنيه، فإن شئت وجدته واعظاً ناصحاً، وإن شئت وجدته بنصيبك من اللذة والشهوة ووصل الحبيب مسامحاً.

وهذا حين الشروع في الأبواب، والله سبحانه الفاتح من الخير كل باب، وهو المسؤول سبحانه أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، مدنياً من رضاه والفوز بجنات النعيم، والله متولىٰ سريرة العبد وكسبه، وهو سبحانه عند لسان كل قائل وقلبه، ﴿**وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٠٥)**﴾[2].

---

(١) جمع غائلة: الفساد، والشر، والداهية.

(٢) الآية ١٠٥: سورة التوبة.

الباب الأول

في أسماء المحبة

لما كان الفهم لهذا المسمَّىٰ أشدَّ، وهو بقلوبهم أعلق، كانت أسماؤه لديهم أكثر. وهذا عادتهم في كل ما اشتد الفهم له، أو كثر خُطُوره علىٰ قلوبهم، تعظيماً له، أو اهتماماً به، أو محبة له. فالأول كالأسد والسيف، والثاني كالداهية، والثالث كالخمر، وقد اجتمعت هذه المعاني الثلاثة في الحب، فوضعوا له قريباً من ستين[1] اسماً وهي: المحبة، والعلاقة، والهوىٰ، والصبوة، والصبابة، والشغف، والمِقَه، والوجد، والكَلف، والتتيُّم، والعشق، والجَوىٰ، والدَّنَف، والشَّوق، والخِلابة، والبلابل، والتَّباريح، والسَّدَمُ، والغَمَرَات، والوَهَل، والشَّجَن، واللاعِج، والاكتِئاب، والوَصَب، والحُزْن، والكَمَد، واللَّذْع، والحُرَق، والسُهْد، والأرَق، واللَّهْف، والحنين، والاستكانة، والتَّبالة، واللَّوعة، والفُنون، والجُنون، واللَّمَم، والخَبْلُ، والرِّسيس، والداء المُخامر، والودّ، والخُلَّة، والخِلْم، والغَرَام، والهُيام، والتَّدْلية، والوَلَهُ، والتعبُّد.

وقد ذُكر له أسماء غير هذه ليست من أسمائه، وإنما هي من مُوجباته وأحكامه فتركنا ذكرها.[2]

---

(١) كذا. ولم يذكر المؤلف منها غير خمسين.

(٢) أكثر ما ذكره هو من صفات الحب وآثاره، كما يتضح ذلك في الباب الثاني.

الباب الثاني

في اشتقاق هذه الأسماء ومعانيها

فأما المحبة فقيل: أصلها الصفاء، لأن العرب تقول لصفاء بياض الأسنان ونضارتها: حَبَب الأسنان، وقيل: مأخوذة من الحَباب، وهو ما يعلو الماء عند المطر الشديد، فعلىٰ هذا المحبة غليان القلب وثورانه عند الاهتياج إلىٰ لقاء المحبوب، وقيل: مشتقة من اللزوم والثبات، ومنه أحب البعير إذا برك فلم يَقُم.

فكأنَّ المحبَّ قد لزم قلبُه محبوبه فلم يُرِم عنه انتقالاً، وقيل: بل هي مأخوذة من القلق والاضطراب، ومنه سُمِّي القُرْط حِباً لقلقه في الأذن واضطرابه.

وقيل: بل هي مأخوذة من الحب جمع حبَّة، وهو لباب الشيء وخالصه وأصله، فإن الحبّ أصل النبات والشجر، وقيل: بل هي مأخوذة من الحب الذي هو إناء واسع، يوضع فيه الشيء فيمتلئ به بحيث لا يَسَع غيره.

وكذلك قلب المحب ليس فيه سعةٌ لغير محبوبة، وقيل: مأخوذة من الحب وهو الخشبات الأربع التي يستقر عليها ما يوضع عليها من جرَّة أو غيرها، فسمىٰ الحب بذلك لأن المحب يتحمل لأجل محبوبه الأثقال، كما تتحمل الخشبات ثِقل ما يوضع عليها، وقيل: بل هي مأخوذةٌ من حبَّة القلب وهي سُويداؤه، ويقال: ثمرته، فسميت المحبة بذلك لوصولها إلىٰ حبّة القلب، وذلك قريبٌ من قولهم: ظهره إذا أصاب ظهره، ورأسه إذا أصاب رأسه، ورآه إذا أصاب رئته، وبطنه إذا أصاب بطنه، ولكن في هذه الأفعال

وصل أثرُ الفاعل إلىٰ المفعول، وأما في المحبة فالأثر إنما وصل إلىٰ المحب. وبعد ففيه لغتان حبَّ وأحبَّ.

وأما حبيب فأكثر استعمالهم له بمعنىٰ المحبوب.

وأما الحِبُّ بكسر الحاء فلغة في الحُب، وغالب استعماله بمعنىٰ المحبوب، قال في الصحاح: الحُبّ المحبة وكذلك الحِب بالكسر. والحِب أيضاً الحبيب مثل خِدْنٍ وخَدَين. قلت: وهذا نظير ذِبْحٍ بمعنىٰ مذبوح، ونِهْب بمعنىٰ منهوب، ورِشْق بمعنىٰ مرشوق.

فصل

وأما كلام الناس في حدّها فكثير، فقيل: هي الميل الدائم، بالقلب الهائم. وقيل: إيثار المحبوب، علىٰ جميع المصحوب، وقيل: موافقة الحبيب، في المشهد والمغيب. وقيل: اتحاد مُراد المحب ومراد المحبوب. وقيل: إيثار مراد المحبوب علىٰ مُراد المحب. وقيل: إقامة الخدمة مع القيام بالحُرْمة. وقيل: استقلال الكثير منك لمحبوبك، واستكثار القليل منه إليك. وقيل: استيلاء ذكر المحبوب علىٰ قلب المحب. وقيل: حقيقتها أن تهَب كلَّك لمن أحببته، فلا يبقىٰ لك منك شيء. وقيل: هي أن تمحو من قلبك ما سوىٰ المحبوب، وقيل: هي الغيرة للمحبوب أن تُنْتَقَصَ حُرْمته، والغيرة علىٰ القلب أن يكون فيه سواه. وقيل: هي الإرادة التي لا تنقص بالجفاء، ولا تزيد بالبِرّ. وقيل: هي حفظ الحدود، فليس بصادق من ادَّعىٰ محبة من لم يحفظه حدوده. وقيل: هي قيامك لمحبوبك بكل ما يحبه منك. وقيل: هي مُجَانَبَةُ السُّلُوّ علىٰ كل حال.

وقيل: نارٌ تحرق من القلب ما سوى مراد المحبوب.

وقيل: ذكر المحبوب على عدد الأنفاس، كما قيل[١]:

يُـرادُ من الـقـلـب نـسـيـانـكـم

وتـأبـى الـطـبـاعُ عـلـى الـنَّـاقـل

وقيل: عمى القلب عن رؤية غير المحبوب، وصَمَمُهُ عن سماع العذل فيه، وفي الحديث: «حُبُّكَ للشيء يُعْمِي ويَصم»[٢] رواه الإمام أحمد.

وقيل: ميلُكَ إلى المحبوب بكلِّيَّتك، ثم إيثارك له عَلَى نفسك وروحك ومالك، ثم موافقتك له سراً وجهراً، ثم علمك بتقصيرك في حبه، وقيل هي بَذْلُكَ المجهود فيما يرضي الحبيب. وقيل: هي سكونٌ بلا اضطراب، واضطرابٌ بلا سكون، فيضطرب القلب فلا يسكن إلا إلى محبوبه، فيضطرب شوقاً إليه ويسكن عنده، وهذا معنى قول بعضهم: هي حركةُ القلب على الدوام إلى المحبوب وسكونُه عنده، وقيل: هي مصاحبة المحبوب على الدوام، كما قيل:

ومـن عَـجَـبٍ أنـي أحِـنُّ إلـيـهـمُ

وأسـأل مـن لَـقِـيْـتُ وهـم مـعـي

وتـطـلـبُـهـم عـيـنـي وهـم فـي سـوادها

ويـشـتـاقُـهـم قـلـبـي وهـم بـين أضـلُـعـي

---

(١) البيت للمتنبي.

(٢) في مسند الإمام أحمد من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه: «حبك الشيء يصم ويعمي».

وقيل: هي أن يكون المحبوب أقربَ إلى المحب من روحه، كما قيل:

يا مقيماً في خاطري وجناني
وبعيداً عن ناظري وعياني

أنتَ روحي وإن كُنتُ لستُ أراها
فهي أدنى إليَّ من كلِّ داني

وقيل: هي حضور المحبوب عند المحب دائماً، كما قيل:

خيالُكَ في عيني وذكركَ في فمي
ومثواك في قلبي فأين تغيب

وقيل: هي أن يستوي قرب دار المحبوب وبعدها عند المحب، كما قيل:

يا ثاوياً بين الجوانح والحَشَى[1]
مني وإنْ بَعُدتْ عليَّ دِيَارُهُ

وقيل: هي ثبات القلب على أحكام الغرام، واستلذاذ العذل فيه والملام، كما قيل:[2]

وقف الهوى بي حيث أنت فليس لي
مُتَأخَّر عنه ولا مُتَقَدَّمُ

(١) الجوانح جمع جانحة: الأضلاع تحت الترائب مما يلي الصدر، كالضلوع مما يلي الظهر، والحشى: ما دون الحجاب مما في البطن. والحسا: ما انضمت عليه الضلوع.

(٢) هو لأبي الشيص.

أجـــــدُ المـلامـــــــــةَ فـي هـواكِ لـذيـذةً
حُـــــبّـــــاً لـذكـــــرك فَلْـيَـلُمـني اللُّـوَّامُ

فصل

وأما العَلاقة، وتسمّىٰ العَلَقَ بوزن الفَلَق، فهي من أسمائها.

قال الجوهري: والعَلَق أيضاً الهوىٰ، يقال: نظرةٌ من ذي عَلق، قال الشاعر[1]:

ولقـــد أردتُ الصـــبـــرَ عنكِ فـــعـــاقني
عَـلَـقٌ بـقـلـبـي مـن هـواكِ قـــــــديمُ

وقد عَلِقها بالكسر وعَلق حبُّها بقلبه، أي: هويها وعَلِق بها عُلوقا، وسميت علاقةً لتعلق القلب بالمحبوب.

فصل

وأما الهوىٰ فهو ميلُ النفس إلىٰ الشيء، وفعله هَوِيَ يَهْوىٰ هوىٰ، مثل عمِيَ يَعْمَىٰ عمىٰ. وأما هوىٰ يَهْوِي بالفتح، فهو: السقوط، ومصدره الهُوِيُّ بالضم، ويقال الهوىٰ أيضاً علىٰ نفس المحبوب.

ويُقال: هذا هوىٰ فلان[2] وفلانةٌ هواه، أي مهويّته ومحبوبته، وأكثر ما يستعمل في الحب المذموم، كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾[3]. ويقال: إنما سمىٰ هوىٰ لأنه يَهْوِي بصاحبه. وقد يستعمل في الحب الممدوح استعمالاً مقيداً.

---

(١) هو ابن الدمينة كما قال ياقوت.

(٢) كذا.. ولعل الصواب: هوى فلانة.

(٣) الآيتان ٤٠ و٤١. سورة النازعات.

ففي الصحيحين عن عُروة قال: كانت خولة بنت حكيم من اللائي وهبن أنفسهن للنبي ﷺ فقالت عائشة رضي الله عنها: أما تستحي المرأة أن تهبَ نفسها للرجل؟ فلما نزلت ﴿تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ﴾[1] قلت: يا رسول الله، ما أرىٰ ربك إلا يُسارع في هواك[2].

وفي قصة أسارىٰ بدر: قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: فهوِيَ رسول الله ﷺ ما قال أبوبكر رضي الله عنه، ولم يَهْوَ ما قلت، وذكر الحديث.[3]

وفي السنن أنَّ أعرابياً قال للنبي ﷺ: جئت أسألك عن الهوىٰ، فقال: «المرءُ مع مَنْ أحبَّ»[4].

فصل

وأما الصبوة والصبا فمن أسمائها أيضاً، قال في الصحاح: والصّبا من الشوق يقال منه: تصابا وصبا يصبو صبوة وصُبُوّاً، أي: مال إلىٰ الجهل، وأصْبَتْهُ الجارية وصَبِيَ صَبَاء، مثل سَمِعَ سَماعاً، أي: لعب مع الصبيان. قلت: أصل الكلمة من الميل، يُقال: صَبَا إلىٰ كذا، أي: مال إليه، وسُمِّيَت الصبَّوة بذلك لميل صاحبها إلىٰ المرأة الصبِيّة، والجمع صبايا مثل مِطِيَّةٍ ومَطَايا،

(١) الآية (٥١) من سورة الأحزاب.

(٢) أخرجه البخاري في التفسير (٨/ ٥٢٥) وفي النكاح (٩/ ١٦٤) ومسلم في الرضاع (٢/ ١٠٨٥، ١٠٨٦).

(٣) رواه مسلم في الجهاد والسير (٣/ ١٣٨٥) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما الطويل في غزوة بدر.

(٤) رواه البخاري في الأدب (١٠/ ٥٥٧) ومسلم في البر والصلة (٤/ ٢٠٣٢ ـ ٢٠٣٤) بنحوه من حديث أنس وعبدالله وأبي موسى رضي الله عنهم.

والتصابي: هو تعاطي الصبّوة مثل التمايُل وبابه. والفرق بين الصِّبا والصَّبَوة والتصابي، أن التصابي هي تعاطي الصِّبا وأن تفعل فعل ذي الصّبْوة. وأما الصِّبا فهو نفس الميل. وأما الصَّبْوة فالمرَّة من ذلك مثل الغَشْوَة والكَبْوة، وقد يُقال على الصفة اللازمة مثل القَسْوَة. وقد قال يوسف الصِّديق عليه السلام: ﴿وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ (٣٣)﴾[1].

فصل

وأما الصَّبابة، فقال في الصحاح: هي رقة الشوق وحرارته، يقال: رجل صَبٌّ عاشقٌ مشتاقٌ، وقد صَبِبْتَ يا رجلُ بالكسر.

ويقال: رجلٌ صَبٌّ وامرأةٌ صَبٌّ كما يُقال: رجلٌ عَدْلٌ وامْرَأةٌ عَدْلٌ.

فصل

وأما الشَّغَفُ فمن أسمائها أيضاً: قال الله تعالى: ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾[1].

قال الجوهري وغيره: والشغاف: غلاف القلب، وهو جلدة دونه كالحجاب يقال: شَغَفَهُ الحب، أي: بلغ شَغَافَه، وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما ﴿قَدْ شَعَفَهَا حُبًّا﴾ ثم قال: دخل حُبُّهُ تحت الشَّغَاف.

فصل

وأما الشَّعَفُ بالعين المهملة، ففي الصحاح شَعَفَه الحُبُّ، أي: أحرق قلبه، وقال أبوزيد: أمرضه، وقد شُعِف بكذا فهو مشعوفٌ، وقرأ الحسن ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ قال: بطنها حُباً.

---

(١) الآية (٣٣) سورة يوسف.

(١) الآية (٣٠) سورة يوسف.

فصل

وأما المِقَةُ فهي فعلة من وَمِقَ يَمِقُ، والمِقَة المحبة والهاء عوضٌ من الواو كالعِظَة والعِدَة والزنَة، والفعل ومِقَه يَمِقِه بالكسر فيهما، أي: أحبَّه فهو وامق.

فصل

وأما الوَجْد فهو الحب الذي يتبعه الحزن، وأكثر ما يُستعمل الوَجْدُ في الحزن، يقال منه: وَجَدَ وَجْداً بالفتح، ونحن نذكر هذه المادة وتصاريفها، يقال: وجَدَ مطلوبه يَجِده وُجوداً، فإن تعلّق ذلك بالضالَّة سمَّوْهُ وِجْدَاناً، وَوَجَدَ عليه في الغضب مَوْجِدَةً، ووجدع في الحزن وَجْداً بالفتح، ووجد في المال، أي: صار واجداً وَجْداً وَوُجْداً، بالفتح والضم والكسر وَجْدَةً: إذا استغنىٰ، وأما إطلاق اسم الوَجْد علىٰ مجرَّد مطلق المحبة، فغير معروف، وإنما يطلق علىٰ محبةٍ معها فقدٌ يوجب الحزن.

فصل

وأما الكَلَف فهو من أسماء الحب أيضاً، يقال: كَلِفْتُ بهذا الأمر، أي: أولعت به فأنا كَلِفٌ به.

وأصل اللفظة من الكُلْفَة والمشقَّة، يُقال: كَلَّفه تكليفاً إذا أمره بما يشُقّ. قال الله تعالىٰ: ﴿**لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إلاَّ وُسْعَهَا**﴾[1] ومنه تكلَّفت الأمر تجشَّمته، والكُلْفَةُ ما يُتَكَلَّف من نائبة أو حق. والمتكلِّف المتعرّض لِمَا لا يعنيه، قال الله تعالىٰ: ﴿**قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ** ﴿٨٦﴾﴾[2].

---

(١) الآية (٢٨٦) . سورة البقرة .

(٢) الآية (٨٦) . سورة ص .

وقيل: هو مأخوذ من الأثر، وهو شيءٌ يعلو الوجه كالسِّمَسم. والكَلَف أيضاً: لونٌ بين السواد والحُمْرة، وهي حُمْرةٌ كدِرة تعلو الوجه، والاسم الكُلْفَةَ.

فصل

وأما التتيُّم[1] فهو التعبد، قال في الصحاح: تيم الله أي: عبدالله، وأصله من قولهم: تيمه الحب إذا عبده وذلله فهو متيم، ويقال: تامته المرأة.

فصل

وأما العشق فهو أمرُّ هذه الأسماء وأخبثها، وقل ما وَلِعت به العرب، وكأنهم ستروا اسمه وكنوا عنه بهذه الأسماء فلم يكادوا يفصحوا به، ولا تكاد تجده في شعرهم القديم، وإنما أولع به المتأخرون، ولم يقع هذا اللفظ في القرآن ولا في السنة إلا في حديث سويد بن سعيد[2]، وسنتكلم عليه إن شاء الله تعالىٰ.

قال في الصحاح: العشق فَرْط الحب، وقد عشقها عشقاً مثل عَلِم علماً وعَشَقاً أيضاً عن الفراء.

ورجل عِشِّيق مثل فسّيق، أي: كثير العشق، والتعشق تكلف العشق، قال الفراء: يقولون امرأة محب لزوجها وعاشق. وقال ابن سيده: العشق عجب المحب بالمحبوب يكون في عفاف الحب ودعارته، يعني في العفة والفجور. وقيل: العِشق الاسم والعَشَق المصدر، وقيل: هو مأخوذ من

(١) لعل الصواب هو التيم: أن يستعبده الهوى، وهوذهاب العقل من الهوى.

(٢) هو حديث: «من عشق فعف فكتم فمات فهو شهيد».

شجرة يقال لها: عاشقة[1] تخضر ثم تدق وتصفر، قال الزجاج واشتقاق العاشق من ذلك، وقال الفراء: عَشِقَ عِشقاً وعَشَقاً إذا أفرط في الحب، والعاشق الفاعل، والمعشوق المفعول، والعَشِيقُ يقال لهذا ولهذا، وامرأةٌ عاشقٌ وعاشقةٌ.

وقال الفرّاء: العشق نبتٌ لَزِجٌ، وسُمِّيَ العشق الذي يكون من الإنسان للصوقه بالقلب. وقال ابن الأعرابي: العَشَقَةُ اللبلابة تخضر وتصفر وتعلق بالذي يليها من الأشجار، فاشتق من ذلك العاشق.

وقد اختلف الناس هل يطلق هذا الاسم في حق الله تعالىٰ؟ فقالت طائفة من الصوفية: لا بأس بإطلاقه! وذكروا فيه أثراً لا يثبت، وفيه: «فإذا فعل ذلك عشقني وعشقته»!

وقال جمهور الناس: لا يطلق ذلك في حقه سبحانه وتعالىٰ، فلا يقال إنه يعشق، ولا يقال عشقه عبده، ثم اختلفوا في سبب المنع علىٰ ثلاثة أقوال: أحدها: عدم التوقيف[2] بخلاف المحبة. الثاني: أن العشق إفراط المحبة، ولا يمكن ذلك في حق الرب تعالىٰ، فإن الله تعالىٰ لا يوصف بالإفراط في الشيء، ولا يبلغ عبده ما يستحقه من حبه، فضلاً أن يقال أفرط في حبه. الثالث: أنه مأخوذ من التغير كما يقال للشجرة المذكورة عاشقة[3]، ولا يطلق ذلك علىٰ الله سبحانه وتعالىٰ.

---

(١) كذا.. والذي في كتب اللغة: عَشَقه بفتحتين، وستأتي قريباً. (الفقي)

(٢) التوقيف في الشرع كالنص.

(٣) الصواب عشقه، كما مرَّ قريباً.

فصل

وأما الجَوَىٰ ففي الصحاح: الجوىٰ: الحُرْقة وشدة الوجد من عشق أو حُزن، تقول منه: جوىٰ الرجل بالكسر فهو جوٍ مثل دو، ومنه قيل للماء المتغير المنتن: جوٍ.

فصل

وأما الدَّنَفُ فلا تكاد تستعمله العرب في الحب، وإنما وله به المتأخرون، وإنما استعملته العرب في المرض. قال في الصحاح: الدنف بالتحريك: المرض الملازم، رجل دنَفٌ أيضاً يعني بفتح النون، وامرأةٌ دنف وقومٌ دنَف، يستوي فيه المذكر والمؤنث والتثنية والجمع.

قلت: وكأنهم استعاروا هذا الاسم للحب اللازم تشبيهاً له به، والله أعلم.

فصل

وأما الشَّجُوُ فهو حبٌّ يتبعه همٌّ وحزنٌ. قال في الصحاح: الشَّجْوُ: الهمّ والحُزْن، يقال: شَجَاهُ يَشْجُو شَجْواً: إذا أحزنه، وأشجاهُ يُشْجيه إشجاء: إذا أغَصَّهُ. تقول منهما جميعاً: شَجَي بالكسر يَشْجَىٰ شجىٰ.

والشَّجَىٰ ما يَنْشَبُ في الحَلْقْ من عَظْمٍ أو غيره، ورجلٌ شَجٍ، أي: حزينٌ، وامرأةٌ شَجَيَّةٌ علىٰ فَعِلة، فأطلق هذا الاسم علىٰ الحب للزومه، كالشَّجَىٰ الذي يعلق بالحلق ويَنْشَبُ فيه.

فصل

وأما الشوق: فهو سفر القلب إلىٰ المحبوب، وقد وقع هذا الاسم في السنة، ففي المسند: من حديث عمَّار بن ياسر أنه صلىٰ صلاة فأوجز فيها، فقيل له: أوجزت يا أبا اليقظان، فقال: لقد دعوت فيها بدعواتٍ سمعتهنّ من رسول الله ﷺ يدعو بهنَّ: «اللهم بعلمك الغيب، وقدرتك علىٰ الخَلْق، أحْيِني إذا كانت الحياة خيراً لي، وتوفَّني إذا كانت الوفاة خيراً لي، وأسألك القصد في الفقر والغنىٰ، وأسألك نعيماً لا ينفدْ، وأسأل قرّة عين لا تنقطع، وأسألك الرضا بعد القضاء، وأسألك بَرْدَ العيش بعد الموت، وأسألك لذّة النظر إلىٰ وجهك، والشوقَ إلىٰ لقائك، في غير ضرَّاء مضرّة، ولا فتنة مضلّة، اللهم زيِّنا بزينة الإيمان، واجعلنا هداة مهتدين»(١).

وقد قال الله تعالىٰ: ﴿مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝٥﴾(٢).

قال بعض العارفين: لما علِم الله شوق المحبين إلىٰ لقائه، ضرب لهم موعداً للقاء، تسكن به قلوبهم.

وبعد فهذه اللفظة من أسماء الحب، قال في الصحاح: الشوق والاشتياق: نِزاع النفس إلىٰ الشيء، يقال: شاقني الشيء يَشُوقُني فهو شائق وأنا مَشُوق، وشوَّقني فتشوَّقتُ: إذا هيَّج شوقك.

(١) حديث صحيح، رواه أحمد (٤/ ٢٦٤) والنسائي (٣/ ٥٤ ـ ٥٥) وغيرهما مع اختلاف يسير في بعض ألفاظه.

(٢) الآية (٥): سورة العنكبوت.

فصل

واختلف في الفرق بين الشوق والاشتياق أيُّهما أقوىٰ، فقالت طائفة: الشوق أقوىٰ فإنه صفةٌ لازمة، والاشتياق فيه نوع افتعال كما يدل عليه بناؤه كالاكتساب ونحوه، وقالت فرقة: الاشتياق أقوىٰ لكثرة حروفه، وكلما قوي المعنىٰ وزاد زادوا حروفه، وحكمت فرقةٌ ثالثةٌ بين القوانين. وقالت: الاشتياق يكون إلىٰ غائب، وأما الشوق فإنه يكون للحاضر والغائب. والصواب أن يُقال: الشوق مصدر شاقه يشوقه إذا دعاه إلىٰ الاشتياق إليه، فالشوق داعية الاشتياق ومبداه، والاشتياق موجبه وغايته، فإنه يقال: شاقني فاشتقت، فالاشتياق فعلٌ مطاوع لشاقني.

واختلف أرباب الشوق هل يزول الشوق بالوصال أو يزيد؟ فقالت طائفة: يزول، فإن الشوق سفر القلب إلىٰ المحبوب، فإذا وصل إليه انتهىٰ السفر.

قالوا: ولأن الشوق إنما يكون لغائب فلا معنىٰ له مع الحضور، ولهذا إنما يقال للغائب: أنا إليك مشتاق، وأما من لم يزل حاضراً مع المحب فلا يوصف بالشوق إليه. وقالت طائفة: بل يزيد بالقرب واللقاء واستدلوا بقول الشاعر:

وأعظم ما يكون الشوقُ يوماً
إذا دنت الخِيامُ من الخيام

قالوا: ولأن الشوق هو حُرقة المحبة والتهابُ نارها في قلب المحب، وذلك مما يزيده القرب والمواصلة، والصواب أن الشوق الحادث عند اللقاء والمواصلة، غيرُ النوع الذي كان عند الغيبة عن المحب.

فصل

وأما الخِلابة فهي الحب الخادع، وهو الحب الذي وصل إلىٰ الخِلْبِ وهو الحجاب الذي بين القلب وسواد البطن. وسمي الحب خِلابة، لأنه يخدع ألباب أربابه، والخِلابة: الخديعة باللسان، يقال خَلَبَهُ يَخْلُبه بالضم واخْتَلبه مثله.

وفي المثل: إذا لم تَغْلِب فاخْلُب، أي فاخدع. والخَلِبة: الخَدَّاعة من النساء.

قال ابن السِّكِيت: رجلٌ خلاَّب، أي خدَّاعٌ كَذَّاب، ومنه البرق الخُلَّب الذي لا غَيْثَ فيه كأنه خادع، ومنه قيل لمن يَعِدُ ولا يُنْجِزْ: إنما أنت برق خُلَّب، والخُلَّب أيضاً: السحاب الذي لا مطر فيه.

ومنه الحديث: «إذا بايعت فقل لاخِلابة»[1] أي لا خديعة.

والحب أحق ما يسمىٰ بهذا الاسم، لأنه يعمىٰ ويصم، ويخدع لب المحب وقلبه.

فصل

وأما البلابل فجمع بَلْبَلة، يقال: بلابل الحب وبلابل الشوق، وهي وساوسه وهمه. قال في الصحاح: البلبلة والبلبال: الهم ووَسواس الصدر.

فصل

وأما التباريح فيقال: تباريح الحب، وتباريح الشوق، وتباريح الجوىٰ. وبرح به الحب والشوق: إذا أصابه منه البرح وهو الشدة.

(١) متفق عليه.

قال في الصحاح: لقيت منه برحاً بارحاً، أي: شدة وأذىٰ.

ولقيت منه بنات بَرْح وبني برح، ولقيت منه البِرحين والبُرحين، بكسر الباء وضمها، أي: الشدائد والدواهي.

فصل

وأما السَّدَم بالتحريك فهو الحب الذي يتبعه ندم وحزن. قال في الصحاح: السدم بالتحريك: الندم والحزن، وقد سدِم بالكسر، ورجل نادمٌ سادم، وندمان سدمان، وهو إتباع، وما له هم ولا سدم إلا ذاك.

فصل

وأما الغَمَرات فهي جمع غَمْرة، والغمرة ما يغمر القلب من حب أو سكرٍ أو غفلة. قال الله تعالىٰ: ﴿**قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ (١٠) الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ (١١)**﴾[١] أي في غفلة قد غمرت قلوبهم. وقال تعالىٰ: ﴿**فذرهم في غمرتهم حتى حين**﴾[٢]. ومنه الماء الغمر الكثير الذي يغطىٰ من دخل فيه، ومنه غمرات الموت، أي: شدائده، وكذلك غمرات الحب، وهو ما يغطي قلب المحب فيغمره، ومنه قولهم: رجل غمر الرداء، كناية عن السخاء، لأنه يغمر العيوب، أي يغطيها فلا يظهر مع السخاء عيب.

فصل

وأما الوَهَل فهو بتحريك الهاء، وأصله الفزع والروع، يقال: وهل يوهل وهو وَهِل ومستوهل.

---

(١) الآيتان (١٠ و ١١) سورة الذاريات.

(٢) الآية (٥٥) سورة المؤمنون.

وإنما كان الوهل من أسماء الحب، لما فيه من الروع، ومنه يقال: جمال رائع. فإن قيل: ما سبب روعة الجمال، ولأىٰ شيء إذا رأىٰ المحب محبوبه فجأة يرتاع لذلك، ويصفر لونه ويبهت. قال الشاعر:

وما هو إلا أنْ أراها فُجَاءةً

فأُبْهتُ حتى لا أكاد أُجيب

وكثير من الناس يرىٰ محبوبه فيصفر ويرتعد؟ قيل: هذا مما خفىٰ سببه علىٰ أكثر المحبين، فلا يدرون ما سببه، فقيل سببه: أن الجمال سلطان علىٰ القلوب، وإذا بدا راع القلوب بسلطانه، كما يروعها الملك ونحوه ممن له سلطان علىٰ الأبدان، فسلطان الجمال والمحبة علىٰ القلوب، وسلطان الملوك علىٰ الأبدان، فإذا كان السلطان الذي علىٰ الأبدان يروع إذا بدا، فكيف بالسلطان الذي هو أعظم منه؟ قالوا: وأيضاً فإن الجمال يأسر القلب فيحس القلب بأنه أسيرٌ ولابد لتلك الصورة التي بدت له، فيرتاع كما يرتاع الرجل إذا أحس بمن يأسره، ولهذا إذا أمن الناظر من ذلك لم تحصل له هذه الروعة.

قال الشاعر:

علامةُ من كان الهوى بفؤاده

إذا ما رأى محبوبَه يتغير

فصل

وأما الشَّجَن فهو من أسمائه، فإن الشجن الحاجة حيث كانت، وحاجة المحب أشد شيء إلىٰ محبوبه. قال الراجز:

إني سـأبدي لك فـيـمـا أبدي

لي شـجنان شَـجَنٌ بنَجْـد

وشـجنٌ لي ببـلاد السِّند

والجمع شجون. قال: والنفس شتىٰ شُجُونها، ويجمع علىٰ أشجان.

وقد شَجَنتني الحاجة تشجنني شجناً: إذا حبستك، ووجه آخر أيضاً وهو: أن الشجن الحزن، والجمع أشجان، وقد شَجِن بالكسر فهو شاجن، وأشجنه غيره وشجنه، أي: أحزنه، والحب فيه الأمران: هذا وهذا.

فصل

وأما اللاعج فهو اسم فاعل من قولهم: لعجه الضرب إذا آلمه وأحرق جلده.

ويقال: هو لاعجٌ لحرقة الفؤاد من الحب.

فصل

وأما الاكتئاب فهو افتعال من الكآبة، وهي سوء الحال والانكسار من الحزن، وقد كئب الرجل يَكْأب كَأْبة وكآبة، كرأفة ورآفة، ونشأة ونشاءة فهو كئيب، وامرأة كئيبة وكأباء أيضاً.

واكتأب الرجل مثله، ورمادٌ مُكتئب اللون: إذا ضرب إلىٰ السواد، كما يكون وجه الكئيب، والكآبة تتولد من حصول الحب وفوت المحبوب، فتحدث بينهما حالة سيئة تسمىٰ الكآبة.

فصل

وأما الوَصَب فهو ألم الحب ومرضه، فإن أصل الوصب المرض، وقد وَصِب الرجل يَوْصب فهو وصِب، وأوصبه الله فهو مُوصب، والموصَّب بالتشديد الكثير الأوجاع. وفي الحديث الصحيح: «لا يصيب المؤمن من هم، ولا وصب، حتى الشوكة يُشَاكها، إلا كفَّر الله بها من خطاياه»(١).

ووصب الشيء يصب وصوباً إذا دام، تقول: وصب الرجل على الأمر إذا دام عليه. قال الله تعالى: ﴿دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۝٩﴾(٢) وقال تعالى: ﴿وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا﴾(٣) أي: الطاعة دائمة.

فصل

وأما الحزن فقد عُدَّ من أسماء المحبة، والصواب أنه ليس من أسمائها، وإنما هو حالة تحدث للمحب، وهي ورود المكروه عليه، وهو خلاف المسرة، ولما كان الحب لا يخلو من ورود ما لا يسر على قلب المحب، كان الحزن من لوازمه. وفي الحديث الصحيح أن النبي ﷺ كان يقول: «اللهم إني أعوذ بك من الهم والحَزَن، والعجز والكسل، والجُبن والبُخل، وضَلَع الدَّين وغَلَبة الرجال»(٤).

---

(١) في صحيح مسلم كتاب البر والصلة (٤/ ١٩٩٢-١٩٩٣) وغيره بألفاظ متقاربة.

(٢) الآية (٩) سورة الصافات.

(٣) الآية (٥٣) سورة النحل.

(٤) رواه البخاري في الجهاد (٦/ ٨٦) وفي الاطعمة (٩/ ٥٥٤) وفي الدعوات (١١/ ١٧٣، ١٧٨) من حديث أنس رضي الله عنه. وضلع الدين: ثقله وشدته.

تنبيه: عزى المعلق على الكتاب (الفقي) الحديث إلى الصحيحين، وهو خطأ إذ لم يخرجه مسلم في صحيحه.

فاستعاذ ﷺ من ثمانية أشياء، كل شيئين منهما قرينان: فالهم والحزن قرينان، فإن ورود المكروه على القلب إن كان لما مضى فهو الحزن، وإن كان لما يستقبل فهو الهم، والعجز والكسل قرينان، فإنَّ تخلُّف العبد عن كماله إن كان من عدم القُدرة فهو العجز، وإن كان من عدم الإرادة فهو الكسل، والجبن والبخل قرينان، فإنَّ الرجل يُراد منه النفع بماله أو ببدنه، فالجبان لا ينفع ببدنه، والبخيل لا ينفع بماله، وضَلَعُ الدَّيْن وغَلَبة الرجال قرينان، فإن قهر الناس نوعان: نوعٌ بحق فهو ضَلَع الدَّيْن، ونوع بباطل فهو غَلَبة الرجال.

وقد نفى الله سبحانه وتعالى عن أهل الجنة الخوف والحزن، فلا يحزنون على ما مضى، ولا يخافون مما يأتي، ولا يطيب العيش إلا بذلك، والحب يلزمه الخوف والحزن.

فصل

وأما الكَمَدُ فمن أحكام المحبة في الحقيقة وليس من أسمائها، ولكن المتكلمون في هذا الباب لا يفرِّقون بين اسم الشيء ولازمه وحكمه، والكمد الحزن المكتوم، تقول منه: كَمِدَ الرجل فهو كَمِدٌ وكَمِيدٌ، والكُمْدَةُ تغيُّر اللون، وأكمَدَ القصَّار الثوب إذا لم يُنَقِّه.

فصل

وأما اللَّذْع فهو من أحكام المحبة أيضاً، وأصله من لَذْع النار. يُقال: لَذَعَتْهُ النَّارُ لَذْعاً: أحرقته، ثم شبهوا لَذْع اللسان بلَذْع النار، فقال: لَذَعهُ بلسانه، أي: أحرقه بكلامه، يقال: أعوذ بالله من لَوَاذِعِه.

فصل

وأما الحُرَق فهي أيضاً من عوارض الحُب وآثاره، والحُرْقة تكون من الحب تارة، ومنه قولهم: مالك حُرْقةٌ على هذا الأمر، وتكون من الغيظ.

فصل

وأما السُّهْدُ فهو أيضاً من آثار المحبة ولوازمها، فالسُّهَادُ: الأرَقُ وقد سَهِدَ الرجل بالكسر يَسْهَد سَهَداً، والسُّهْدُ بضم السين والهاء: القليل النوم.

وسهدته أنا فهو مُسَهَّد.

فصل

وأما الأرَق فهو أيضاً من آثار المحبة ولوازمها، فإنه السهر. وقد أرِقت بالكسر أي: سهرت، وكذلك ائتَرَقْتُ على افتعلت، فأنا أَرِقٌ، وأَرَّقْني كذا تأريقاً، أي سهرني.

فصل

وأما اللَّهْفُ فمن أحكامها وآثارها أيضاً، يُقال: لَهِفَ بالكسر يَلْهَفُ لَهَفاً، أي: حزن وتحسّر. وكذلك التَّلهف على الشيء. وقولهم: يا لَهْفَ فلان، كلمةٌ يُتَحَسَّر بها على ما فات، واللَّهفان المتحسر، واللَّهِيف المضطر.

فصل

أما الحَنين: فقال في الصحاح: الحَنين الشوقُ وتَوَقَانُ النفس، تقول منه: حَنَّ إليه يَحِنُّ حَنيناً فهو حانٌّ، والحَنَانُ الرحمة، تقول منه: حَنَّ عليه يَحِنُّ

حَنَاناً، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾[1] وتحنَّن عليه تَرَحَّم، والعرب تقول: حَنَانَك يا ربّ وحَنَانَيْك بمعنىٰ واحد، أي: رحمتك.

قال طَرْفَة:

أبا منذرٍ أفنيتَ فاسْتَبْقِ بعضنا
حَنَانَيْكَ بعضُ الشّرّ أَهْوَنُ من بعض

وفي الحقيقة الحنين من آثار الحب ومُوجباته، وحنين الناقة صوتها في نِزَاعِها إلىٰ ولدها. وحَنَةُ الرجل امرأتُه.

قلت: سُمِّيَت حَنَّة، لأن الرجل يَحِنُّ إليها أين كان.

فصل

وأما الاستكانة فهي أيضاً من لوازم الحُب وأحكامه، لا من أسمائه المختصة به، وأصلها الخضوع. قال الله تعالىٰ: ﴿فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ (٧٦)﴾[2] وقال تعالىٰ: ﴿فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا﴾[3]، وأصلها استفعل من الكون، وهذا الاشتقاق والتصريفُ يطابق اللفظ، وأما المعنىٰ: فالمستكِنُّ ساكنٌ خاشعٌ ضدُّ الطائش. والكون الحالة التي فيها إنابة وذل وخضوع. وهذا يُحْمَد إذا كان لله، ويُذَمُّ إذا كان لغيره.

(١) الآية (١٢) سورة مريم.
(٢) الآية (٧٦) سورة المؤمنون.
(٣) الآية (١٤٦) سورة آل عمران.

ومنه الحديث: «أعوذ بك من الحَوْرِ بَعْدِ الكَوْرِ»[1] أي: الرجوع عن الاستقامة بعدما كنت عليها.

فصل

وأما التّبالة فهي: فعالة من تَبَلَه إذا أفناه. قال الجوهري: تَبَلهم الدهر وأتبلهم إذا أفناهم.

وتبله الحب، أي: أسقمه وأفسده. قلت: ومنه قول كعب بن زهير بن أبي سُلْمَىٰ:

بانتْ سعادُ فقلبي اليوم مَتْبول
مُتَيَّمٌ عندها لم يُفْدَ مكبول

فصل

وأما اللَّوعة: فقال في الصحاح: لَوْعة الحب حُرقته، وقد لاعه الحب يَلُوعه والْتَاعَ فُؤادُه، أي: احترق من الشوق.

فصل

وأما الفتون: فهو مصدر فَتَنَهُ يَفْتِنُهُ فُتُوناً، قال الله تعالىٰ: ﴿وفَتَنَّاكَ فُتُونَا﴾[2] أي امتحناك واختبرناك. والفِتْنَة يُقال علىٰ ثلاثة معانٍ[3]، أحدها:

(١) ويروى «بعد الكون» وقد رجح النووي هذه الرواية في الأذكار. والحديث رواه مسلم في الحج (٢/ ٩٧٩) عن ابن سرجس. والحور: النقص، والكور: الزيادة، يعني من النقص بعد الزيادة، قيل: من الإيمان إلى الكفر، أو من الطاعة إلى المعصية. قاله الترمذي وغيره.

(١) الآية (٤) سورة طه.

(٢) «ذكر الفيروز آبادي في بصائر ذوي التمييز» (٤/ ١٦٧ ـ ١٦٩) أن الفتنة في القرآن على اثني عشر وجهاً وفصلها، وانظر مقدمة الفتح (١٦٥) لابن حجر.

الامتحان والاختبار، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ﴾[1] أي: امتحانك واختبارك. والثاني: الافتتان نفسه، يقال: هذه فتنة فلان، أي افتتانه، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾[2]يقال: أصابته الفتنةُ وفَتَنَتْهُ الدنيا، وفتنته المرأةُ وأفتنته.

والثالث: المفتون به نفسه يُسمَّىٰ فتنة، قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾[3].

وأما قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ (٢٣)﴾[4] أي: لم تكن عاقبة شركهم إلا أن تبرأوا منه وأنكروه. وأما قوله تعالىٰ: ﴿ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ (١٣) ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ ﴾[5] فقيل المعنىٰ: يحرقون، ومنه فتنت الذهب إذا أدخلته النار لتنظرَ ما جودته، ودينار مفتون. قال الخليل: والفَتْنُ: الإحراق قال الله تعالىٰ: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ وورقٌ فَتِينٌ، أي فضةٌ مُحْرَقَة. وافْتُتِنَ الرجل وفُتِنَ: إذا أصابته فتنةٌ فذهب مالهُ أو عقلُه. وفَتَنَتْهُ المرأة إذا ولَّهته، وقوله تعالىٰ: ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ (١٦١) مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ (١٦٢) إِلاَّ مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ (١٦٣)﴾[6] أي: لا تفتنون علىٰ عبادته إلا مَنْ سبق في علم الله أنه يصلىٰ الجحيم، فذلك الذي يفتتن بفتنتكم إياه.

والمقصود أن الحب موضع الفتون، فما فُتن من فتن إلا بالمحبة.

---

(١) الآية (١٥٥) سورة الأعراف.

(٢) الآية (٢٥) سورة الأنفال.

(٣) الآية (١٥) سورة التغابن.

(٤) الآية (٢٣) سورة الأنعام.

(٥) الأيتان (١٣ و١٤) سورة الذاريات.

(٦) الآيات (١٦١ و١٦٢ و١٦٣) سورة الصافات.

فصل

وأما الجنون فمن الحُب ما يكون جنوناً، ومنه قوله:

قالت جُنِنْتَ بمن تهوى فقلت لها
العشقُ أعظم مما بالمجانين
العشقُ لا يستفيقُ الدهرَ صاحبهُ
وإنما يُصرع المجنونُ في الحين[1]

وأصل المادة من السَّتر في جميع تصاريفها، ومنها أَجَنَّهُ الليل وجَنَّ عليه: إذا ستره، ومنه الجَنِين لاستتاره في بطن أُمه، ومنه الجَنَّة لاستتارها بالأشجار، ومنه المِجَنُّ لاستتار الضارب به والمضروب، ومنها الجِنّ لاستتارهم عن العيون بخلاف الإنس فإنهم يُؤنَسُون، أي: يُرَون، ومنه الجُنَّة بالضم وهي ما استترت به واتَّقَيت، ومنه قوله تعالى: ﴿**اتَّخذوا أيمانهم جنَّة**﴾[2] وأجنت الميت: واريته في القبر فهو جَنِين.

والحُب المفرط يستر العقل، فلا يَعْقِلْ المحب ما ينفعه ويضره، فهو شعبةٌ من الجنون.

فصل

وأما اللَّمَم فهو طَرَف من الجنون، ورجل ملمومٌ، أي: به لَمٌ، ويقال أيضاً: أصابت فلاناً من الجن لَمَّةٌ، وهو المس والشيء القليل، قاله الجوهري.

---

(١) الحين: الوقت طال أو قصر.

(٢) الآية (١٦) سورة المجادلة. والآية ٢ سورة المنافقون.

قلت: وأصل اللفظة من المقاربة، ومنه قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ﴾(١) وهي الصغائر.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: ما رأيتُ أشبه باللمم مما قال أبو هريرة رضي الله عنه: «إن العين تزني وزناها النظر، واليد تزني وزناها البطش، والرجل تزني وزناها المشي، والفم يزني وزناه القُبَل»(٢).

ومن ألمَّ بكذا، أي قاربه ودنا منه، وغلامٌ مُلِمّ، أي قارب البلوغ، وفي الحديث: «إن مما يُنْبِتُ الربيعُ ما يقتلُ حَبَطاً أو يُلِمّ»(٣)، أي: يقرب من ذلك.

وبالجملة فلا يستبين كونُ اللَّمم من أسماء الحب، وإن كان قد ذكره جماعة إلا أن يقال: إنَّ المحبوب قد أَلمَّ بقلب المحب، أي نزل به، ومنه أَلْمِمْ بنا، أي: انزل بنا.

فصل

وأما الخَبْلُ: فمن موجبات العشق وآثاره، لا من أسمائه، وإن ذُكر من أسمائه، فإنَّ أصله الفساد وجمعه خُبُول، والخَبَل بالتحريك الجن، يُقال به

(١) الآية ٣٢ سورة النجم.

(٢) هو حديث مرفوع إلى النبي ﷺ، مرَّ قريباً.

(٣) رواه البخاري في الدعوات (١١/ ٢٤٤) ومسلم في الزكاة (٢/ ٧٢٧ ـ ٧٢٩) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

والربيع: الجدول (النهر الصغير) وحبطت الدابة حبطاً بالتحريك، إذا أصابت مرعى طيباً فأفرطت في الأكل حتى تنتفخ فتموت. والحباط: وجع البطن من الانتفاخ لكثرة الأكل أو لأكل غير موافق.

خَبَلٌ، أي: شيء من أهل الأرض، وقد خَبَله وخَبَّله واخْتَبَله: إذا أفسد عقله أو عُضْوه، ورجلٌ مُخَبَّلٌ، وهو نوع من الجنون والفساد.

فصل

وأما الرَّسِيسُ فقد كثُر في كلامهم رَسِيسُ الهوىٰ والشوق، ورَسِيسُ الحب، فظنّ من أدخله في أسمائه الحب أنه منها وليس كذلك، بل الرَّسِيسُ الشيء الثابت، فرَسِيسُ الحب ثباتُه ودوامُه.

ويمكن أن يكون من رَسِّ الحُمَّىٰ ورَسِيسها وهو أول مسِّها، فشبهوا رَسِيسَ الحب بحرارته وحُرقته برسيس الحُمَّىٰ، وكان الواجب علىٰ هؤلاء، أن يجعلوا الأُوار من أسماء الحب لأنه يُضاف إليه.

فصل

وأما الداء المُخَامِرُ فهو من أوصافه، وسُمِّي مُخَامِراً لمخالطته القلب والرُّوح يقال خامره، قال الجوهري: والمُخَامَرَةُ المخالطة، وخامر الرجل المكان إذا لزمه. وقد يكون أُخِذَ من قولهم: استخمر فلانٌ فلاناً إذا استعبده، وكأن العشق داء مستعبدٌ للعاشق، فالحب داء مخالِطٌ مُسْتَعْبِد.

فصل

وأما الودُّ فهو خالص الحب وأَلْطَفُه وأرَقُّه، وهو من الحب بمنزلة الرأفة من الرحمة، قال الجوهري: وَدِدْت الرجلَ أَوَدُّه وُدًّا إذا أحببته. والوِدُّ والوُدُّ والوَدُّ المَوَدَّة، تقول: بودّي أن يكون كذا.

والوَدُود: المحب. قلت: الوَدُود من صفات الله سبحانه وتعالىٰ، أصله

من المَوَدَّة، واخْتلِفَ فيه عَلَى قولين: فقيل: هو وَدودٌ بمعنى وادٍّ، كضَرُوبٍ بمعنى ضارب، وقَتُول بمعنى قاتل، ونؤُوم بمعنى نائم، ويشهد لهذا القول أن فعولاً في صفات الله سبحانه وتعالى فاعل، كغفور بمعنى غافر، وشكور بمعنى شاكر، وصبور بمعنى صابر[1]. وقيل: بل هو بمعنى مَوْدُود وهو الحبيب، وبذلك فسره البخاري في صحيحه، فقال: الوَدود الحبيب، والأوَّل أظهر لاقترانه بالغفور في قوله: ﴿وَهُوَ الْغَفُوْرُ الْوَدُوْدُ﴾[2] وبالرحيم في قوله: ﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيْمٌ وَدُوْدٌ﴾[3] وفيه سرٌّ لطيف وهو أنه يحب التوابين، وأنه يحب عبده بعد المغفرة فيغفر له ويحبه، كما قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِيْنَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِيْنَ﴾[4] فالتائب حبيب الله، فالود أصفى الحب وألطفُه.

فصل

وأما الخُلَّة فتوحيد المحبة، فالخليل هو الذي توحَّد حبُّه لمحبوبه، وهي رتبةٌ لا تقبل المشاركة، ولهذا اختص بها في العالم الخليلان إبراهيم ومحمد صلوات الله وسلامه عليهما، كما قال الله تعالى: ﴿وَاتَّخَذَا اللَّهُ إِبْرَاهِيْمَ خَلِيْلاً﴾[5]. وصح عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله اتخذني خليلاً، كما اتخذ إبراهيم خليلاً»[6].

---

(١) الصبور لم يرد في أسمائه في الكتاب ولا في السنة، والله أعلم (م).

(٢) الآية (١٤) سورة البروج.

(٣) الآية (٩٠) سورة هود.

(٤) الآية (٢٢٢) سورة البقرة.

(٥) الآية (١٢٤) سورة النساء.

(٦) رواه مسلم في المساجد (١/ ٣٧٧) من حديث جندب رضي الله عنه.

وفي الصحيح عنه ﷺ: «لو كُنتُ مُتَّخِذاً من أهل الأرض خليلاً لاتَّخذتُ أبا بكر خليلاً، ولكنَّ صاحبكم خليلُ الرحمن»(١).

وفي الصحيح أيضاً: «إنِّي أبْرأُ إلىٰ كُلِّ خليلٍ من خُلَّته»(٢).

ولما كانت الخُلة مرتبة لا تقبل المشاركة، امتحن الله سبحانه إبراهيم الخليل بذبح ولده لما أخذ شعبة من قلبه، فأراد أن يخلص تلك الشعبة له ولا تكون لغيره، فامتحنه بذبح ولده، والمراد ذبحه من قلبه، لا ذبحه بالمُدْيَة، فلما أسلم الأمر الله، وقدَّم محبة الله تعالىٰ علىٰ محبة الولد، خَلص مقام الخُلَّة وفدىٰ الولد بالذِّبح.

وقيل: إنما سُمِّيت خُلَّةَ لتخلل المحبة جميع أجزاء الرُّوح، قال:

قد تخللّت مسلك الرُّوح مني
وبذا سُمِّي الخليل خليلا

والخُلَّةُ الخليلُ يستوي فيه المذكر والمؤنث لأنه في الأصل مصدر.

ويجمع علىٰ خِلال مثل قُلَّة وقِلال. والخِلُّ الودّ والصديق، والخِلال أيضاً مصدر بمعنىٰ المُخَالَّة، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿لا بَيْعٌ فِيْهِ ولاَ خِلاَلٌ﴾(٣).

وقال في الآية الأخرىٰ: ﴿لاَ بَيْعٌ فِيْهِ ولاَ خِلَّةٌ﴾(٤)

---

(٧) رواه البخاري في مواضع أولها في الصلاة (١/ ٥٥٨) ومسلم في فضائل الصحابة (٤/ ١٨٥٤ ـ ١٨٥٦).

(٢) جزء من حديث مسلم السابق.

(٢) الآية (٣١) سورة إبراهيم.

(٣) الآية (٢٥٤) سورة البقرة.

والخليل الصديق والأنثى خليلة، والخِلالة والخَلالة والخُلالة بكسر الخاء وفتحها وضمها: الصداقة والمودة.

وقد ظن بعض من لا علم عنده أن الحبيب أفضل من الخليل، وقال: محمد حبيب الله وإبراهيم خليل الله، وهذا باطل من وجوه كثيرة منها: إن الخُلة خاصة والمحبة عامة، فإن الله يحبُّ التوابين ويحبُّ المتطهرين، وقال في عباده المؤمنين: ﴿يُحِبُّهُم وَيُحِبُّونَهُ﴾[1]، ومنها: أن النبي ﷺ نفى أن يكون له من أهل الأرض خليل، وأخبر أن أحب النساء إليه عائشة ومن الرجال أبوها[2].

ومنها: أنه قال: «إن الله اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً»[3].

ومنها أنه قال: «لو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكن أخوَّةُ الإسلام ومودَتُهُ»[3].

فصل

وأما الخِلْمُ فهو مأخوذ من المُخَالَة وهي المصادقة والمودة، والخِلْمُ الصديق والأخلام الأصحاب.

فصل

وأما الغَرَام: فهوالحبُّ اللازم، يقال: رجلٌ مُغْرَمٌ بالحبِّ، أي: قد لزمه

(١) الآية (٥٧) سورة المائدة.

(٢) رواه البخاري في فضائل الصحابة (٧/ ١٨) وفي المغازي (٨/ ٧٤) ومسلم في فضائل الصحابة (٤/ ١٨٥٦) من حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه.

(٣) تقدم تخريجهما.

الحب وأصل المادة من اللزوم، ومنه قولهم: رجلٌ مُغْرَمٌ، من الغُرْم أو الدَّيْنُ، قال في الصحاح: والغَرَام الوَلوع، وقد أُغْرِمَ بالشيء، أي أُولعَ به، والغريم الذي عليه الدَّين، يقال: خذ من غريم السوء ما سَنَحَ، ويكون الغريم أيضاً الذي له الدين.

ومن المادة قوله تعالىٰ في جهنم: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً﴾[1].

والغرام: الشر الدائم اللازم والعذاب.

قال الأعشىٰ:

إن يعاقبْ يكن غراماً وإن يُعْـ
ـطِ جزيلاً فإنه لا يبالي

وقال أبوعبيدة: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً﴾[2] كان هلاكاً ولزاماً لهم.

وللطف المحبة عندهم واستعذابهم لها، لم يكادوا يطلقون عليها لفظ الغرام، وإن لهِجَ به المتأخرون.

فصل

وأما الهُيام: قال في الصحاح: هام علىٰ وجهه يَهِيمُ هَيْماً، وَهَيَمَاناً ذهب من العشق أو غيره، وقلبٌ مستهام، أي: هائم، والهُيام بالضم: أشد العطش، والهيامُ كالجنون من العشق، والهُيام: داء يأخذ الإبل فتهيم لا ترعىٰ، يقال: ناقة هَيْمَاء قال: والهِيام بالكسر: الإبل العِطَاش الواحد

(١) الآية (٦٥) سورة الفرقان.

(٢) الآية (٦٥) سورة الفرقان.

هَيْمَان، وناقة هَيْمَىٰ مثل عطشان وعطشىٰ، وقومٌ هِيمٌ، أي عِطاش، وقد هاموا هُياماً، وقوله تعالىٰ: ﴿فَشَارِبُوْنَ شرْبَ الْهِيْم﴾[1] هي الإبل العِطاش.
قلت: جمع أَهْيم: هِيْمٌ، مثل: أحمر وحمر.

فصل

وأما التَّدْليه: ففي الصحاح: التَدْليهُ ذهاب العقل من الهوىٰ، يقال: دلَّهه الحُبُّ، أي: حيَره وأدهشه، ودَلِهَ هو يَدْلَهُ قال: أبو زيد: الدَّلُوهُ: الناقة لا تكاد تحنُّ إلىٰ إلف ولا ولد، وقد دَلَهِتْ عن إلفها وعن ولدها، تَدْلَهُ دُلوهاً.

فصل

وأما الوَلَهُ، فقال في الصحاح: الوَلَهُ: ذهاب العقل والتحيُّرُ من شدة الوجد، ورجل وَالِهٌ، وامرأة وَالِهٌ وَوَالِهَةٌ.

وقد وَلِهَ يَوْلَهُ وَلَهاً وَوَلَهاناً وتَوَلَّهَ واتَّلَهَ، وهو افتعل أُدغم.

والتَّوْلِيهُ: أن يُفَرَّق بين الأم وولدها.

وناقةٌ والِهٌ: إذا اشتد وجدُهَا علىٰ ولدها. والمِيلاهُ التي من عادتها أن يشتد وجدها علىٰ ولدها، صارت الواو ياء لكسرة ما قبلها.

فصل

وأما التعبُّد فهو غاية الحب وغاية الذل، يقال: عَبَّدَه الحبُّ، أي: ذَلَّله. وطريقٌ معبَّدٌ بالأقدام، أي مُذَلَّلٌ، وكذلك المحب قد ذلله الحب ووطَّأه، ولا تصلح هذه المرتبة لأحد غير الله عز وجل، ولا يغفر الله سبحانه لمن أشرك به في عبادته، ويغفر ما دون ذلك لمن شاء.

---

(١) الآية (٥٥) سورة الواقعة.

فمحبة العبودية هي أشرف أنواع المحبة، وهي خالص حق الله على عباده، وفي الصحيح: عن مُعاذ أنه قال: كنت سائراً مع رسول الله ﷺ فقال: يا مُعاذ، فقلت: لَبَّيك يا رسول الله وسَعْدَيْك. قال: ثم سار ساعة ثم قال: يا معاذ، قلت لَبَّيْكَ رسول الله وسَعْدَيك، ثم سار ساعة فقال: يا معاذ، قلت: لَبَّيك رسول الله وَسَعْدَيك، قال: أتدري ما حقُّ الله على عباده؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: حقُّه عليهم أن يعبدوه لا يشركوا به شيئاً، أتدري ما حقُّ العباد على الله إذا فعلوا ذلك؟ أن لا يعذبهم بالنار. (١)

وقد ذكر الله سبحانه رسوله بالعبودية في أشرف مقاماته، وهي مقام التحدِّي، ومقام الإسراء، ومقام الدعوة، فقال في التحدي: ﴿**وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ**﴾(٢)، وقال في مقام الإسراء: ﴿**سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا**﴾(٣)، وقال في مقام الدعوة: ﴿**وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ**﴾(٤).

وإذا تدافع أولو العزم الشفاعة الكبرىٰ يوم القيامة، يقول المسيح لهم: اذهبوا إلىٰ محمد، عبد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. فنال ذلك المقام بكمال العبودية لله، وكمال مغفرة الله له، فأشرف صفات العبد صفة العبودية، وأحبُّ أسمائه إلىٰ الله اسم العبودية، كما ثبت عن النبي ﷺ أنه

---

(١) رواه البخاري في مواضع أولها: في الجهاد (٦/ ٥٨) ومسلم في الإيمان (١/ ٥٨ ـ ٥٩)، من حديث معاذ رضي الله عنه.

(٢) الآية (٢٣) سورة البقرة.

(٣) أول سورة الإسراء.

(٤) الآية (١٩) من سورة الجن.

قال: «أحب الأسماء إلىٰ الله عبدُ الله وعبدالرحمن، وأصدقُها حارثٌ وهمَّام، وأقبحها حربٌ ومُرَّة»(١).

وإنما كان حارث وهمام أصدقها، لأن كل أحد لابد له من همٍّ وإرادة وعزم ينشأ عنه حرثُه وفعله، وكلُّ أَحد حارثٌ وهمام، وإنما كان أقبحها حربٌ ومُرة، لما في مسمىٰ هذين الإسمين من الكراهة، ونفور العقل عنهما، وبالله التوفيق.

(١) القسم الأول من الحديث رواه مسلم في الآداب (٣/ ١٦٨٢) من حديث ابن عمر ولفظه: «إن أحب أسمائكم إلى الله: عبدالله وعبدالرحمن». وأخرجه بتمامه: أبوداود (٤٩٥٠) من حديث أبي وهب الجشمي. وهو حديث حسن بشواهده، انظر الصحيحة (١٠٤٠).

الباب الثالث

في نسبة هذه الأسماء بعضها إلى بعض هل هي بالترادف أو التباين

فالأسماء الدالة على مسمى واحد نوعان: أحدهما: أن يَدُلَّ عليه باعتبار الذات فقط، فهذا النوع هو المترادفُ ترادفاً محضاً، وهذا كالحِنْطة والقمح والبُرِّ، والاسم والكُنْيَةِ واللَّقَب إذا لم يكن فيه مدحٌ ولا ذمٌّ، وإنما أُتي به لمجرد التعريف، والنوع الثاني: أن يدلَّ على ذات واحدة باعتبار تبايُنِ صفاتها كأسماء الرب تعالى، وأسماء كلامه، وأسماء نبيه، وأسماء اليوم الآخر، فهذا النوع مُترادِفٌ بالنسبة إلى الذات، متباينٌ بالنسبة إلى الصفات، فالرب والرحمن والعزيز والقدير والمَلِكُ يدلُّ على ذاتٍ واحدةٍ، باعتبار صفاتٍ متعددة، وكذلك البشير والنذير والحاشر والعاقب والماحي، وكذلك يوم القيامة ويوم البعث ويوم الجَمْع ويوم التَّغابُن ويوم الآزفة ونحوها، وكذلك القرآن والفرقان والكتاب والهدى ونحوها، وكذلك أسماء السيف، فإن تعدُّدها بحسب أوصافٍ وإضافاتٍ مختلفة، كالمهنَّد والعَضْب الصارم ونحوها، وقد عرَفتَ تبايُنَ الأوصاف في أسماء المحبة، وقد أنكر كثيرٌ من الناس الترادُف في اللغة، وكأنهم أرادوا هذا المعنى، وأنه ما من اسمين لمسمًّى واحد إلا وبينهما فرقٌ في صفة أو نسبة أو إضافة، سواء عُلِمت لنا أو لم تُعْلم، وهذا الذي قالوه صحيح باعتبار الواضع الواحد، ولكن قد يقعُ الترادُف باعتبار واضِعَيْن مختلفَيْن يسمي أحدهما المسمى باسم، ويسميه الواضع الآخر باسم غيره، ويشتهر الوضعان عند القبيلة الواحدة، وهذا كثير ومن ههنا يقع الاشتراك أيضاً، فالأصل في اللغة هو التبايُن، وهو أكثر اللغة، والله أعلم.

الباب الرابع

في أن العالم العلوي والسفلي إنما وُجد بالمحبة ولأجلها، وأن حركات الأفلاك والشمس والقمر والنجوم، وحركات الملائكة والحيوانات وحركة كل متحرك إنما وجدت بسبب الحب

وهذا بابٌ شريفٌ من أشرف أبواب الكتاب، وقبل تقريره لابد من بيان مقدمة وهي أن الحركات ثلاث: حركةٌ إرادية، وحركةٌ طبيعية، وحركةٌ قسرية، وبيان الحصر أن مبدأ الحركة إما أن يكون من المتحرك أو من غيره، فإن كان من المتحرك فإما أن يقارنها شعوره وعلمه بها أو لا، فإن قارنها الشعور والعلم فهي الإرادية، وإن لم يقارنها الشعور والعلم فهي الطبيعية، وإن كانت من غيره فهي القسرية، وإن شئت أن تقول المتحرك إما أن يتحرك بإرادته أو لا، فإن تحرَّك بإرادته فحركته إرادية، وإن تحرَّك بغير إرادته فإما أن تكون حركته إلىٰ نحو مركزه أو لا، فإن تحرَّك إلىٰ جهة مركزه فحركته طبيعية، وإن تحرَّك إلىٰ غير جهة مركزه فحركته قسرية، إذا ثبت هذا فالحركة الإرادية تابعة لإرادة المتحرك، والمراد إما أن يكون مراداً لنفسه أو لغيره، ولابد أن ينتهيَ المراد لغيره إلىٰ مراد لنفسه دفعاً للدَّور والتسلسل.

والإرادة إما أن تكون لجلب منفعة ولذة، إما للمتحرك وإما لغيره، أو دفع ألم ومضرة إما عن المتحرك أو عن غيره، والعاقل لا يَجْلِبُ لغيره منفعة ولا يدفع عنه مضرة، إلا لما له في ذلك من اللذة ودفع الألم، فصارت حركته الإرادية تابعة لمحبته، بل هذا حكم كل حيٍّ متحرك.

وأما الحركة الطبيعية فهي حركة الشيء إلىٰ مستقره ومركزه، وتلك تابعة

للحركة التي اقتضت خروجه عن مركزه، وهي القسرية التي إنما تكون بقسر قاسر أخرجه عن مركزه، إما باختياره كحركة الحجر إلىٰ أسفل إذا رُمي به إلىٰ جهة فوق، وإما بغير اختيار مُحَرِّكه كتحريك الرياح للأجسام إلىٰ جهة مهابِّها، وهذه الحركة تابعةٌ للقاسر، وحركة القاسر ليست منه، بل مبدؤها من غيره، فإن الملائكة مُوَكَّلةٌ بالعالم العلوي والسفلي، تدبِّره بأمر الله عز وجل كما قال الله تعالىٰ: ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا (٥)﴾[1] وقال: ﴿فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا (٤)﴾[2] وقال تعالىٰ: ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا (١) فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا (٢) وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا (٣) فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا (٤) فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا (٥)﴾[3].

وقال: ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا (١) وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا (٢) وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا (٣) فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا (٤) فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا (٥)﴾[4].

وقد وكَّل الله سبحانه بالأفلاك والشمس والقمر ملائكة تحركها، ووكّل بالرياح ملائكة تصرفها بأمره وهم خزنتها، قال الله تعالىٰ: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (٦)﴾[5]، وقال غير واحد من السلف: عَتَتْ علىٰ الخُزَّان فلم يقدروا علىٰ ضبطها ذكره البخاري في صحيحه[6].

ووكل بالقطر ملائكة، وبالسحاب ملائكة تسوقه إلىٰ حيث أمرت به،

---

(١) الآية (٥) سورة النازعات .

(٢) الآية (٤) سورة الذاريات .

(٣) أوائل سورة المرسلات .

(٤) الآية (٤) سورة الذاريات .

(٥) الآية (٦) سورة الحاقة .

(٦) الفتح (٦/ ٣٧٦) عن ابن عيينة ، وفي التفسير (٨/ ٦٦٤) : ويقال : طغت على الخزان كما طغى الماء على قوم نوح .

وقد ثبت في الصحيح: عن النبي ﷺ أنه قال: «بينا رجلٌ بفلاةٍ من الأرض إذ سمع صوتاً في سحابة يقول: اسقِ حديقة فلان، فتتبع السحابة حتىٰ انتهت إلىٰ حديقة فأفرغت ماؤها فيها، فنظر فإذا رجل في الحديقة يحوِّل الماء بمسحاة، فقال له: ما اسمك يا عبدالله؟ فقال فلانٌ الاسم الذي سمعه في السحابة، فقال: إني سمعتُ قائلاً يقول في هذه السحابة: اسق حديقة فلان، فما تصنع في هذه الحديقة؟ فقال: إني أنظر ما يخرج منها فأجعله ثلاثة أثلاث: ثُلُثٌ أتصدق به، وثُلُثٌ أنفقه علىٰ عيالي، وثُلُثٌ أردُّه فيها»(١).

ووكل الله سبحانه بالجبال ملائكة، وثبت عن النبي ﷺ أنه جاءه ملك الجبال يسلم عليه ويستأذنه في هلاك قومه إن أحب، فقال: «بل أستأني لهم، لعلَّ الله أن يُخرج من أصلابهم من يعبُدُ الله لا يُشرك به شيئاً»(٢).

ووكَّل بالرِّحِم ملكاً يقول: يا رب نطفة؟ يا رب علقة؟ يا رب مضغة؟ يا رب ذكرٌ أم أنثىٰ؟ فما الرزق؟ فما الأجل؟ وشقيٌّ أم سعيد؟

ووكَّل بكل عبد أربعة من الملائكة في هذه الدنيا: حافظان عن يمينه وعن شماله يكتبان أعماله، ومُعقَّباتٌ من بين يديه ومن خلفه أقلُّهم اثنان يحفظونه من أمر الله(٣)، ووكَّل بالموت ملائكة، ووكَّل بمساءلة الموتىٰ ملائكة في القبور، ووكل بالرحمة ملائكة، وبالعذاب ملائكة، وبالمؤمن ملائكة

(١) أخرجه مسلم في الزهد (٤/ ٢٢٨٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٦/ ٣١٢ ـ ٣١٣) وأخرجه في التوحيد (١٣/ ٣٧٣) مختصراً، ومسلم في الجهاد والسير (٣/ ١٤٢٠ ـ ١٤٢١) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣) من أمر الله: بأمر الله وإذنه، كما جاء في تفسير الخازن.

(٤) يؤزونه: يغرونه.

يثبتونه ويؤُزُّونه(٤) إلىٰ الطاعات أزاً، ووكل بالنار ملائكة يبنونـها ويوقدونها، ويصنعـون أغـلالهـا وسـلاسلهـا ويقـومون بـأمرها، ووكـل بالجنة مـلائكة يبنونها ويفرشـونهـا، ويصنعـون أرائكهـا وسُـرُرَها وصِحـافـهـا ونمـارِقَـهـا وزرابيَّها(١).

فأمرُ العالم العلوي والسُّفلي والجنة والنار بتدبير الملائكة بإذن ربهم تبارك وتعالىٰ وأمره، ﴿**لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ** (٢٧)﴾(٢) و﴿**لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ** (٦)﴾(٣). فأخبر أنهم لا يعصونه في أمره، وأنهم قادرون علىٰ تنفيذ أوامره ليس بهم عجز عنها، بخلاف من يترك ما أُمر به عجزاً فلا يعصي الله ما أمره، وإن لم يفعل ما أمره به، وكذلك البحار قد وُكِّلت بها ملائكةُ تسجرها(٤) وتمنعها أن تفيض علىٰ الأرض فتغرق أهلها، وكذلك أعمال بني آدم خيرُها وشرُّها قد وُكِّلت بها ملائكةٌ تحصيها وتحفظها وتكتبها، ولهذا كان الإيمان بالملائكة أحدَ أركان الإيمان الذي لا يتم إلا به. وهي خمس: الإيمان بالله، وملائكه، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر.

وإذا عُرِفَ ذلك عُرف أن كل حركة في العالم فسببُها الملائكة، وحركتهم طاعة الله بأمره وإرادته، فيرجع الأمر كله إلىٰ تنفيذ مراد الرب تعالىٰ شرعاً وقدراً، والملائكةُ هم المنفِّذون ذلك بأمره، ولذلك سُمُّوا ملائكةً من الألوكة وهي الرسالة، فهم رسل الله في تنفيذ أوامره.

---

(١) الأرائك: الأسرة المنجدة المزينة. والصحاف: آنية الأكل. والنمارق: الوسائد. والزرابي: البسط.

(٢) الآية (٢٧) سورة الأنبياء.

(٣) الآية (٦) سورة التحريم.

(٤) تسجرها: تملؤها. قال الله تعالى: ﴿والبحر المسجور﴾.

والمقصود أن حركات الأفلاك وما حوته تابعةٌ للحركة الإرادية المستلزمة للمحبة، فالمحبة والإرادة أصلُ كل فعل ومبداه، فلا يكون الفعل إلا عن محبة وإرادة، حتىٰ دفعه للأمور التي يبغضها ويكرهها، فإنما يدفعها بإرادته ومحبته لأضدادها واللذة التي يجدها بالدفع، كما يقال: شفي غيظه، وشفي صدره، والشفاء والعافية يكون للمحبوب وإن كان كريهاً، مثل شرب الدواء الذي يُدْفَعَ به ألمُ المرض، فإنه وإنْ كان مكروهاً من وجهٍ فهو محبوبٌ لما فيه من زوال المكروه وحصول المحبوب، وكذلك فعلُ الأشياء المخالفة للهوىٰ، فإنها وإنْ كانت مكروهة فإنما تُفْعَل لمحبةٍ وإرادة، وإن لم تكن محبوبة لنفسها فإنها مستلزمة للمحبوب لنفسه. فلا يترك الحي ما يحبه ويهواه، إلا لما يُحبُّه ويهواه، ولكن يترك أضعفهما محبة لأقواهما محبة، ولذلك كانت المحبة والإرادة أصلاً للبغض والكراهة، فإن البغيض المكروه ينافي وجودَ المحبوب، والفعلُ إما أن يتناول وجود المحبوب أو دفع المكروه والمستلزم لِوجود المحبوب، فعاد الفعل كله إلىٰ وجود المحبوب.

والحركة الاختيارية أصلها الإرادة، والقسرية والطبيعية تابعتان لها، فعاد الأمر إلىٰ الحركة الإرادية، فجميع حركات العالم العلوي والسفلي تابعة للإرادة والمحبة، وبها تحرك العالم ولأجلها، فهي العلة الفاعلية والغائية، بل هي التي بها ولأجلها وجد العالم، فما تحرك في العالم العلوي والسفلي حركة إلا والإرادة والمحبة سببها وغايتها، بل حقيقة المحبة حركة نفس المحب إلىٰ محبوبه، فالمحبة حركة بلا سكون.

وكمال المحبة هو العبودية، والذل، والخضوع، والطاعة للمحبوب، وهو الحق الذي به وله خلقت السموات والأرض، والدنيا والآخرة، قال

تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾[1] وقال الله تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً﴾[2] وقال تعالىٰ: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾[3].

والحق الذي خلق به ولأجله الخلق هو عبادة الله وحده، التي هي كمال محبته والخضوع والذل له، ولوازم عبوديته من الأمر والنهي والثواب والعقاب، ولأجل ذلك أرسل الرسل، وأنزل الكتب، وخلق الجنة والنار.

والسموات والأرض إنما قامت بالعدل، الذي هو صراط الله الذي هو عليه، وهو أحبُّ الأشياء إلىٰ الله تعالىٰ، قال الله تعالىٰ حاكياً عن نبيه شعيب عليه السلام: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٦)﴾[4]. فهو علىٰ صراط مستقيم في شرعه وقدره، وهو العدل الذي به ظهر الخلق والأمر، والثواب والعقاب، وهو الحق الذي به وله خلقت السموات والأرض وما بينهما، ولهذا قال المؤمنون في عبادتهم: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ﴾[5].

فنزهوا ربهم سبحانه أن يكون خلق السموات عبثاً لغير حكمة ولا غاية محمودة، وهو سبحانه يحمد لهذه الغايات المحمودة كما يحمد لذاته وأوصافه، فالغايات المحمودة في أفعاله هي الحكمة التي يحبها ويرضاها،

---

(١) الآية (٨٥) سورة الحجر.

(٢) الآية (٢٧) سورة ص.

(٣) الآية (١١٦) سورة المؤمنون.

(٤) الآية (٥٦) سورة هود.

(٥) الآية (١٩١) سورة آل عمران.

وخلق ما يكره لاستلزامه ما يحبه وترتب المحبوب له عليه، ولذلك يترك سبحانه فعل بعض ما يحبه لما يترتب عليه من فوات محبوب له أعظم منه، أو حصول مكروه أكره إليه من ذلك المحبوب، وهذا كما ثَبَّطَ قلوب أعدائه عن الإيمان به وطاعته، لأنه يكره طاعاتهم ويُفوِّت بها ما هو أحب إليه منها من جهادهم وما يترتب عليه من الموالاة فيه والمعاداة، وبذل أوليائه نفوسهم فيه، وإيثار محبته ورضاه على نفوسهم، ولأجل هذا خلق الموت والحياة، وجعل ما على الأرض زينة لها، قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾(١).

وقال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً (٧)﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾(٣) فأخبر سبحانه عن خلق العالم والموت والحياة، وتزيين الأرض بما عليها، أنه للابتلاء والامتحان، ليختبر خلقه أيهم أحسن عملاً، فيكون عمله موافقاً لمحاب الرب تعالى، فيوافق الغاية التي خلق هو لها وخلق لأجلها العالم، وهي عبوديته المتضمنة لمحبته وطاعته، وهي العمل الأحسن وهو مواقع محبته ورضاه، وقدر سبحانه مقادير تخالفها بحكمته في تقديرها، وامتحن خلقه بين أمره وقدره ليبلوهم أيهم أحسن عملاً.

فانقسم الخلق في هذا الابتلاء فريقين: فريقاً داروا مع أوامره ومحابِّه،

---

(١) الآية (٢) سورة الملك.

(٢) الآية (٧) سورة الكهف.

(٣) الآية (٧) سورة هود.

ووقفوا حيث وقف بهم الأمر، وتحركوا حيث حركهم الأمر، واستعملوا الأمر في القَدَر، وركبوا سفينة الأمر في بحر القدر، وحكموا الأمر على القدر، ونازعوا القدر بالقدر، امتثالاً لأمره، واتباعاً لمرضاته، فهؤلاء هم الناجون.

والفريق الثاني: عارضوا بين الأمر والقدر، وبين ما يحبه ويرضاه، وبين ما قدره وقضاه، ثم افترقوا أربع فرق:

فرقة كذّبت بالقَدَر محافظة على الأمر، فأبطلت الأمر من حيث حافظت على القدر، فإن الإيمان بالقدر أصل الإيمان بالأمر، وهو نظام التوحيد، فمن كذَّب بالقدر نقض تكذيبُه إيمانه.

وفرقةٌ ردت الأمر بالقدر، وهؤلاء من أكفر الخلق، وهم الذين حكى الله قولهم في القرآن إذ قالوا: ﴿**لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ**﴾(١). وقالوا أيضاً: ﴿ **لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ**﴾(٢). وقالوا أيضاً: ﴿**لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم**﴾(٣). وقالوا أيضاً: ﴿**أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ**﴾(٤).

فجعلهم الله سبحانه وتعالى بذلك مكذبين خارصين، ليس لهم علم، وأخبر أنهم في ضلال مبين.

---

(١) الآية (١٤٨). سورة الأنعام.

(٢) الآية (٣٥) سورة النحل.

(٣) الآية (٢٠) سورة الزخرف.

(٤) الآية (٤٧) سورة يس.

وفرقة دارت مع القدر، فسارت بسيره، ونزلت بنزوله، ودانت به، ولم تبال وافق الأمر أو خالفه، بل دينها القدر، فالحلال ما حل بيدها قدراً، والحرام ما حُرِمَتْه قدراً، وهم مع من غلب قدراً من مسلم أو كافر، برًّا كان أو فاجراً، وخواص هؤلاء وعبادهم لما شهدوا الحقيقة الكونية القدرية، صاروا مع الكفار المسلَّطين بالقدر، وهم خفراؤهم، فهؤلاء أيضاً كفار.

وفرقةٌ وقفت مع القدر مع اعترافها بأنه خلافُ الأمر، ولم تدن به ولكنها استرسلت معه، ولم تحكم عليه الأمر وعجزت عن دفع القدر بالقدر اتباعاً للأمر، فهؤلاء مفرطون، وهم بين عاجز وعاص لله.

وهؤلاء الفرق كلهم مؤتمون بشيخهم إبليس، فإنه أول من قدم القدر على الأمر وعارضه به، وقال: ﴿رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٣٩)﴾[1] وقال: ﴿فبما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم﴾[2] فرد أمر الله بقدره، واحتج على ربه بالقدر. وانقسم أتباعه أربع فرق كما رأيت، فإبليس وجنوده أرسلوا بالقدر إرسالاً كونياً، فالقدر دينهم. قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا (٨٣)﴾[3] فدينهم القدر، ومصيرهم سقر. فبعث الله الرسل بالأمر، وأمرهم أن يحاربوا به أهل القدر، وشرع لهم من أمره سفناً، وأمرهم أن يركبوا فيها هم وأتباعم في بحر القدر، وخص بالنجاة من ركبها، كما خص بالنجاة أصحاب السفينة، وجعل ذلك آية للعالمين.

---

(١) الآية (٣٩) سورة الحجر.

(٢) الآية (١٥) سورة الأنعام.

(٣) الآية (٨٤) سورة مريم.

فأصحاب الأمر حرب لأصحاب القدر، حتىٰ يردوهم إلىٰ الأمر، وأصحاب القدر يحاربون أصحاب الأمر حتىٰ يخرجوهم منه، فالرسل دينهم الأمر مع إيمانهم بالقدر وتحكيم الأمر عليه، وإبليس وأتباعه دينهم القدر ودفع الأمر به، فتأمل هذه المسألة في القدر والأمر، وانقسام العالم فيها إلىٰ هذه الأقسام الخمسة، وبالله التوفيق.

فحركاتُ العالمَ العلوي والسفلي وما فيهما موافقة للأمر، إما الأمر الديني الذي يحبه الله ويرضاه، وإما الأمر الكوني الذي قدَّرة وقضاه، وهو سبحانه لم يقدره سدىٰ ولا قضاه عبثاً، بل لما فيه من الحكمة والغايات الحميدة، وما يترتب عليه من أمور يُحب غاياتها، وإنْ كره أسبابها ومبادئها، فإنه سبحانه وتعالىٰ يُحب المغفرة، وإن كَرِه معاصي عباده، ويحب السَّتر وإن كره ما يستر عبده عليه، ويحب العتق وإن كره السبب الذي يُعتق عليه من النار، ويحب العفو كما في الحديث: «اللهم إنك عَفُوٌ تحب العفو، فاعفُ عني»(١).

وإن كره ما يعفو عنه من الأوزار، ويحب التوابين وتوبتهم، وإن كره معاصيهم التي يتوبون إليه منها، ويحب الجهاد وأهله، بل هم أحب خلقه إليه، وإن كره أفعال من يجاهدونه، وهذا باب واسع قد فتح لك فادخل منه يطلعك علىٰ رياض من المعرفة مُونقِة، مات من فاتته بحسرتها، وبالله التوفيق.

---

(١) حديث صحيح، رواه أحمد (٦/ ١٧١، ٢٠٨) والترمذي (٣٥٠٨) وابن ماجة (٣٨٥٠) من حديث عائشة رضي الله عنها. وقال الترمذي: حسن صحيح.

وهذا موضع يضيق عنه عدة أسفار، واللبيب يدخل إليه من بابه، وسرُّ هذا الباب أنه سبحانه كامل في أسمائه وصفاته، ويحب ظهور آثارها في خلقه، فإن ذلك من لوازم كماله، فإنه سبحانه وترٌ يحب الوتر، جميل يحب الجمال، عليم يحب العلماء، جواد يحب الأجواد، قويٌّ، والمؤمن القوىٰ أحب إليه من المؤمن الضعيف، حَيٌّ يحب أهل الحياء، وفيٌّ يحب أهل الوفاء، شكورٌ يحب الشاكرين، صادقٌ يحب الصادقين، محسن يحب المحسنين.

فإذا كان يحب العفو والمغفرة والحلم والصفح والستر، لم يكن بدٌّ من تقديره للأسباب التي تظهر آثار هذه الصفات فيها، ويستدل بها عباده علىٰ كمال أسمائه وصفاته، ويكون ذلك أدعىٰ لهم إلىٰ محبته، وحمده وتمجيده والثناء عليه بما هو أهله، فتحصل الغاية التي خلق لها الخلق، وإنْ فاتت من بعضهم فذلك الفوات سبب لكمالها وظهورها، فتضمن ذلك الفوات المكروه له أمراً هو أحب إليه من عدمه، فتأمل هذا الموضع حق التأمل.

وهذا ينكشف يوم القيامة للخليقة بأجمعهم حينَ يجمعهم في صعيدٍ واحد، ويُوصل إلىٰ كل نفسٍ ما ينبغي إيصاله إليها من الخير والشر، واللذة والألم، حتىٰ مثقال الذرة، ويوصل كل نفس إلىٰ غاياتها التي تشهد هي أنها أولىٰ بها، فحينئذ ينطق الكون بأجمعه بحمده تبارك وتعالىٰ قالاً وحالاً، كما قال سبحانه وتعالىٰ: **﴿وَتَرَى الْمَلائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٧٥)﴾**[1]، فحذف فاعل القول

(١) الآية (٧٥) سورة الزمر.

لأنه غير معين، بل كلُ أحدٍ يحمده على ذلك الحكم الذي حكم فيه، فيحمده أهلُ السموات وأهل الأرض، والأبرار والفجار، والإنس والجن حتى أهلُ النار.

قال الحسن أو غيره: لقد دخلوا النار وإن حمده لفي قلوبهم، ما وجدوا عليه سبيلاً، وهذا ـ والله أعلم ـ هو السر الذي حذف لأجله الفاعل، في قوله: ﴿قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾[1].

وقوله: ﴿وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ ⑩﴾[2].

كأن الكون كله نطق بذلك وقاله لهم، والله تعالى أعلم بالصواب.

---

(١) الآية (٧٢) سورة الزمر.

(٢) الآية (١٠) سورة التحريم.

الباب الخامس

في دواعي المحبة ومتعلقها

الداعي قد يُراد به الشعور الذي تتبعه الإرادة والميل، فذلك قائم بالمحب، وقد يراد به السبب الذي لأجله وُجدت المحبةُ وتعلقت به، وذلك قائم بالمحبوب، ونحن نريد بالداعي مجموع الأمرين، وهو ما قام بالمحبوب من الصفات التي تدعو إلىٰ محبته، وما قام بالمحب من الشعور بها، والموافقة التي بين المحب والمحبوب، وهي الرابطة بينهما وتسمىٰ بين المخلوق والمخلوق مناسبةً وملاءمة.

فهاهنا أمور: وصف المحبوب وجماله، وشعورُ المحب به، والمناسبة وهي العلاقة والملاءمة التي بين المحب والمحبوب، فمتىٰ قويت الثلاثة وكَمُلت، قويت المحبة واستحكمت، ونقصان المحبة وضعفها بحسب ضعف هذه الثلاثة أو نقصها، فمتىٰ كان المحبوب في غاية الجمال، وشعور المحب بجماله أتم شعور، والمناسبة التي بين الروحين قوية، فذلك الحب اللازم الدائم، وقد يكون الجمال في نفسه ناقصاً لكن هو في عين المحب كامل، فتكون قوة محبته بحسب ذلك الجمال عنده، فإن حُبَّك للشيء يُعمي ويُصِم، فلا يرىٰ المحب أحداً أحسن من محبوبه، كما يحكىٰ أن عزة دخلت علىٰ الحجاج فقال لها: يا عزة، والله ما أنت كما قال فيك كثير، فقالت: أيها الأمير، إنه لم يرني بالعين التي رأيتني بها.

ولا ريب أن المحبوب أحلىٰ في عين محبه، وأكبر في صدره من غيره، وقد أفصح بهذا القائل في قوله[1]:

---

(١) هو الحكم بن معمر الخضري.

فـــــوالله مـــــا أدري أَزِيدَتْ مـــــلاحـــــةً

وحـــــسناً على النِّســـــوان أم ليس لي عـــــقلُ

وقد يكون الجمال موفراً لكنه ناقصُ الشعور به، فتضعف محبته لذلك، فلو كشف له عن حقيقته لأسر قلبه، ولهذا أمر النساء بستر وجوههن عن الرجال، فإن ظهور الوجه يُسْفر عن كمال المحاسن فيقع الافتتان، ولهذا شُرع للخاطب أن ينظر إلىٰ المخطوبة، فإنه إذا شاهد حسنها وجمالها، كان ذلك أدعىٰ إلىٰ حصول المحبة والألفة بينهما، كما أشار إليه النبي ﷺ في قوله: «إذا أرادَ أحدُكم خِطبةَ امرأةٍ فلينظر إلىٰ ما يدعوه إلىٰ نكاحها، فإنه أَحْرىٰ أن يُؤْدَم بينهما»[1]. أي: يُلأم ويوافق ويصلح. ومنه الأدام الذي يَصْلح به الخبز، وإذا وجد ذلك كله وانتفت المناسبة والعلاقة التي بينهما، لم تستحكم المحبة، وربما لم تقع البتة، فإن التناسب الذي بين الأرواح من أقوىٰ أسباب المحبة.

* فكل امرئٍ يَصبو إلىٰ مَن يُناسبه *

وهذه المناسبة نوعان: أصلية من أصل الخِلْقة، وعارضةٌ بسبب المجاورة أو الاشتراك في أمر من الأمور، فإن من ناسب قصدُك قصدَه حصل التوافق بين روحك وروحه، فإذا اختلف القصدَ زال التوافق، فأما التناسب الأصلىٰ

---

(١) مأخوذ من حديثين صحيحين: الأول رواه أبو داود (٢٠٨٢) عن جابر ولفظه: «إذا خطب أحدكم المرأة، فإن استطاع أن ينظر إلى ما يدعوه إلى نكاحها، فليفعل».

والآخر عن المغيرة بن شعبة رضي الله تعالى عنه قال: خطبت امرأة في عهد رسول الله ﷺ فقال لي: «أنظرت إليها»؟ قلت: لا قال: «فانظر إليها، أجدر أن يُؤدم بينكم» رواه أحمد (٤/ ٢٤٥) والترمذي (١٠٨٧) والنسائي (٦/ ٦٩ ـ ٧٠) وابن ماجة (١٨٦٥، ١٨٦٦) وغيرهم من طرق عنه.

فهو اتفاق أخلاق وتشاكُل أرواح وشوق كل نفس إلىٰ مشاكلها، فإن شبه الشيء ينجذب إليه بالطبع، فتكون الروحان متشاكلتين في أصل الخلقة، فتنجذب كل منهما إلىٰ الأخرىٰ بالطبع، وقد يقع الانجذاب والميل بالخاصيَّة، وهذا لا يعلَّل ولا يُعرف سبُبه، كانجذاب الحديد إلىٰ الحجر المغناطيس. ولا ريب أن وقوع هذا القَدْر بين الأرواح، أعظم من وقوعه بين الجمادات، كما قيل:

محاسنُها هَيُولى[1] كل حُسْنَ
ومغناطيسُ أفئدةِ الرجال

وهذا الذي حمل بعض الناس علىٰ أن قال: إن العشق لا يقف علىٰ الحسن والجمال، ولا يلزم من عدمه عدَمه، وإنما هو تشاكل النفوس وتمازجها في الطباع المخلوقة، كما قيل[2]:

وما الحبُّ من حُسْنٍ ولا من مَلاحةٍ
ولكنه شيءٌ به الروح تَكْلَف[3]

قال هذا القائل: فحقيقتهُ أنه مرآة يبصر فيها المحب طباعه ورقَّته في صورة محبوبه، ففي الحقيقة لم يحب إلا نفسه وطباعه ومشاكلَه.

قال بعضهم لمحبوبه: صادفتُ فيك جوهر نفسي، ومشاكلتها في كل أحوالها، فانبعثت نفسي نحوك وانقادت إليك، وإنما هويت نفسي.

---

(١) الهيول: مادة الشيء الذي يصنع منها. وعند القدماء: مادة ليس لها شكل ولا صورة معينة قابلة للتشكيل والتصوير، وهي التي صنع الله تعالى منها أجزاء العالم المادية!

(٢) هو لمحمد بن داود الظاهري كما جاء في ديوان الصبابة.

(٣) كلف الشيء وبه: أحبه وأولع به.

وهذا صحيح من وجه، فإن المناسبة علةُ الضَّم شرعاً وقدراً، وشاهد هذا بالاعتبار: أن أحب الأغذية إلىٰ الحيوان ما كان أشبَهَ بجوهر بدنه وأكثَر مناسبةً له. وكلما قويت المناسبة بين الغاذي والغذاء، كان ميلُ النفس إليه أكثر، وكلما بعدت المناسبة حصلت النَّفْرةُ عنه، ولا ريب أنَّ هذا قدرٌ زائد علىٰ مجرد الحسن والجمال، ولهذا كانت النفوسُ الشريفة الزكيةُ العُلوية، تعشق صفات الكمال بالذات، فأحبُّ شيء إليها العلم والشجاعة والعفة والجود والإحسان والصبر والثبات، لمناسبة هذه الأوصاف لجوهرها، بخلاف النفوس اللئيمة الدنِّية فإنها بمعزل عن محبة هذه الصفات، وكثير من الناس يحمله علىٰ الجود والإحسان فرطُ عشقه ومحبته له، واللذة التي يجدها في بذله، كما قال المأمون: لقد حُبِّب إليَّ العفو حتىٰ خشيت أن لا أُؤجر عليه. وقيل للإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالىٰ: تعلمت هذا العلم لله؟ فقال: أما لله فعزيز، ولكن شيء حُبِّب إليَّ ففعلته. وقال آخر: إني لأفرح بالعطاء وألتذ به، أكثر وأعظم مما يفرح الآخذ بما يأخذه مني. وفي هذا قيل في مدح بعض الكرماء من أبيات:

وتأخذه عند المكارم هَزَّةٌ
كما اهتزَّ عند البارح[1] الغُصنُ الرَّطْب

وقال شاعر الحماسة:

تراه إذا ما جئته مُتَهلِّلاً
كأنك تعُطيه الذي أنت سائلُه[2]

(١) البارح: الريح الحارة في الصيف.
(٢) البيت لزهير بن أبي سلمى.

وكثير من الأجواد يعشق الجود أعظمَ عشق، فلا يصبر عنه مع حاجته إلىٰ ما يجود به، ولا يقبل فيه عذلَ عاذل، ولا تأخذه فيه لومةُ لائم، وأما عشاق العلم فأعظمُ شغفاً به وعشقاً له من كل عاشق بمعشوقه، وكثير منهم لا يشغله عنه أجمل صورة من البشر. وقيل لامرأة الزبير بن بكار أو غيره: هنيئاً لك إذ ليست لك ضرَّة، فقالت: والله لهذه الكتب أضرُّ علي من عِدَّة ضرائر.

وحدثني أخو شيخنا عبدالرحمن بن تيمية عن أبيه قال: كان الجدُّ إذا دخل الخلاء يقول لي: اقرأ في هذا الكتاب وارفع صوتك حتىٰ أسمع. وأعرف من أصابه مرضٌ من صداع وحمىٰ وكان الكتاب عند رأسه، فإذا وجد إفاقةً قرأ فيه، فإذا غلب وضعه، فدخل عليه الطبيب يوماً وهو كذلك فقال: إن هذا لا يحل لك فإنك تعين علىٰ نفسك وتكون سبباً لفوات مطلوبك.

وحدَّثني شيخنا قال: ابتدأني مرضٌ فقال لي الطبيب: إن مطالعتك وكلامك في العلم يزيد المرض، فقلت له: لا أصبر علىٰ ذلك وأنا أحاكمك إلىٰ علمك، أليست النفس إذا فرحت وسُرّت قويت الطبيعةُ فدفعت المرض؟ فقال: بلىٰ، فقلت له: فإن نفسي تُسَرُّ بالعلم فتقوىٰ به الطبيعة فأجدُ راحة، فقال: هذا خارجٌ عن علاجنا، أو كما قال.

فَعِشْقُ صفات الكمال من أنفع العشق وأعلاه، وإنما يكون بالمناسبة التي بين الرُّوح وتلك الصفات، ولهذا كان أعلىٰ الأرواح وأشرفها، أعلاها وأشرفَها معشوقاً، كما قيل:

أنت القتيلُ بكلِّ من أَحببتَه

فاخْتَرْ لنفسِكَ في الهوى من تَصْطفي

فإذا كانت المحبة بالمشاكلة والمناسبة، ثبتت وتمكنت ولم يزلها إلا مانعٌ أقوىٰ من السبب، وإذا لم تكن بالمشاكلة فإنما هي محبةٌ لغرض من الأغراض، تزول عند انقضائه وتضمحل، فمن أحبك لأمر ولَّىٰ عند انقضائه، فداعي المحبة وباعثُها إن كان غرضاً للمحب لم يكن لمحبته بقاء، وإن كان أمراً قائماً بالمحبوب، سريعَ الزوال والانتقال زالت محبته بزواله، وإن كان صفة لازمةً فمحبته باقية ببقاء داعيها، ما لم يعارضه معارض يوجب زوالها، وهو إما تغير حال في المحب، أو أذىٰ من المحبوب، فإن الأذىٰ إما أن يضعف المحبة، أو يزيلها.

قال الشاعر:

خذى العفو مني تستديمي مودَّتي
ولا تَنطقي في سَوْرتي حين أغضَب

فإني رأيت الحبَّ في القلب والأذى
إذ اجتمعا لم يلبثِ الحبُّ يذهب

وهذا موضع انقسم المحبوب فيه قسمين: ففرقة قالت: ليس بحب صحيح ما يزيله الأذىٰ، بل علامة الحب الصحيح أنه لا ينقص بالجفوة، ولا يذهبه أذىٰ، قالوا: بل المحب يلتذ بأذىٰ محبوبه له، كما قال أبو الشيص:

وقف الهوى بي حيث أنت فليس لي
مُتَأَخَّرٌ عنه ولا مُتَقَدَّمٌ

وأهنتني فأهنتُ نفسي جاهداً
ما من يهون عليكِ ممن يُكرَم

أشـبـهـتِ أعـدائي فـصـرت أُحـبُّـهـم

إذ كـان حـظي منـك حـظّـيَ منـهـم

أجـدُ المـلامـة في هـواك لـذيـذةً

حـبـاً لذكـرك فَلْيَلُمني اللوَّم[1]

فهذا هو الحب على الحقيقة فإنه متضمن لغاية الموافقة، بحيث قد اتحد مراده ومراد محبوبه من نفسه، فأهان نفسه موافقة لإهانة محبوبه له، وأحب أعداءه لما أشبههم محبوبه في أذاه. وهذا وإن كانت الطباعُ تأباه لكنه موجبُ الحب التام ومقتضاه. وقالت فرقة: بل الأذى مزيلٌ للحب، فإن الطباع مجبولة على كراهة من يؤذيها، كما أن القلوب مجبولةٌ على حب من يحسن إليها. وما ذكره أولئك فدعوى منهم.

والإنصاف أن يقال: يجتمع في القلب بغضُ أذى الحبيب وكراهتُه، ومحبته من وجه آخر، فيحبه ويبغض أذاه، وهذا هو الواقع، والغالبُ منها يوارى المغلوب ويبقى الحكم له، وقد كشف عن بعض هذا المعنى الشاعر في قوله[2]:

ولـو قـلـتِ طَـأْ فـي الـنـار أعـلـم أنـه

رضـاً لكِ أو مُـدْنٍ لنا من وصـالكِ

لقـدَّمتُ رجلي نحـوها فـوطئـتُـهـا

هـدى منـك لـي أو ضِلّةً من ضـلالكِ

(١) تقدمت هذه الأبيات في الصفحة ٢٢ .

(٢) هو عبدالله بن الدمينة .

وإنْ ساءني أن نِلتني بمساءةٍ

فقد سرّني أني خطرتُ ببالكِ

فهذا قد أنصف، حيث أخبر أنه يسوؤه أن يناله محبوبه بمساءة، ويسره خطوره بباله، لا كمن ادعىٰ أنه يلتذ بأذىٰ محبوبه له، فإن هذا خارج عن الطباع، اللهم إلا أن يكون ذلك الأذىٰ وسيلة إلىٰ رضىٰ المحبوب وقربه، فإنه يلتذ به إذا لاحظ غايته وعاقبته، فهذا يقع، وقد أخبرني بعض الأطباء قال: إني ألتذ بالدواء الكريه إذا علمت ما يحصل به من الشفاء، وأضعه علىٰ لساني وأترشفه محبة له، ومن هذا التذاذ المحبين بالمشاقِّ التي توصلهم إلىٰ وصال محبوبهم وقربه، وكلما ذكروا روح الوصال وأن ما هم فيه طريق موصل إليه، لذَّ لهم مقاساتُه، وطاب لهم تحملُه. كما قال الشاعر:

لها أحاديثُ من ذكراك تَشغلُها

عن الشراب وتُلهيها عن الزاد

لها بوجهك نورٌ تستضيءُ به

ومن حديثك في أعقابها حادي

إذا شَكَتْ من كَلال السير أُوعِدها

رَوْحَ اللقاء فتقوى عند ميعاد

والمقصود أن المحبة تستدعي مشاكلةً ومناسبة، وقد ذكر الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالىٰ في مسنده: من حديث عائشة رضي الله عنها: أن امرأة كانت تدخل علىٰ قريش فتضحكهم، فقدمت المدينة فنزلت علىٰ امرأة تُضحك الناس، فقال النبي ﷺ: علىٰ من نزلت فلانة؟ فقالت: علىٰ فلانةٍ

المضحكة، فقال: «الأرواحُ جُنودٌ مُجَنَّدة، فما تَعَارف منها ائتَلفَ، وما تناكر منها اختَلفَ». وأصل الحديث في الصحيح(1).

وذكر لبقراط رجل من أهل النقص يحبه فاغتم لذلك، وقال: ما أحبني إلا وقد وافقته في بعض أخلاقه، وأخذ المتنبي هذا المعنى فقلبه وأجاد فقال:

وإذا أتتك مَذَمَّتي من ناقص

فهي الشهادةُ لي بأني فاضل(2)

وقال بعض الأطباء: العشق امتزاج الروح بالروح لما بينهما من التناسب والتشاكل، فإذا امتزج الماء بالماء امتنع تخليص بعضه من بعض، ولذلك تبلغ المحبة بين الشخصين حتى يتألم أحدهما بتألم الآخر، ويسقم بسقمه وهو لا يشعر ويذكر أن رجلاً كان يحب شخصاً فمرض فدخل عليه أصحابه يعودونه فوجدوا به خفة فانبسط معهم، وقال: من أين جئتم؟ قالوا: من عند فلان عدناه، فقال: أو كان عليلاً؟ قالوا: نعم وقد عُوفي، فقال: والله لقد أنكرت عِلَّتِي هذه ولم أعرف لها سبباً غير أني توهمت أن ذلك لعلة نالت بعضَ من أحب، ولقد وجدت في يومي هذا راحة ففرحت طمعاً أن يكون الله سبحانه وتعالى شفاه، ثم دعا بدواة فكتب إلى محبوبه(3):

---

(1) لم أجده في مسند أحمد من حديث عائشة! وإنما رواه من حديث أبي هريرة (٢/ ٢٩٥، ٥٢٧، ٥٣٩) وهو عند مسلم أيضاً (٤/ ٢٠٣١ ـ ٢٠٣٢). وقد رواه بلفظ الكتاب تقريباً: أبو يعلى (٧/ ٤٣٨١) وإسناده صحيح، وعلقه البخاري في الأنبياء (٦/ ٣٦٩) ووصله في الأدب المفرد (٩٠٠) دون ذكر سببه «أن امرأة مزَّاحَه...».

(2) في بعض نسخ الديوان: فهي الشهادة لي بأني كامل. (الفقي)

(3) الشعر لأبي نواس، قاله في رحمة بن نجاح كما في ديوانه (ص٢٩٩)م مصر. (الفقي)

إني حُممتُ ولم أشعر بحُمَّاك

حتى تحدَّثَ عُوَّادي بشكواكِ

فقلتُ ما كانت الحمى لتَطرُقَني

من غير ما سببٍ إلا لحمَّاكِ

وخصلةٍ كنتُ فيها غير متهم

عافاني الله منها حين عافاكِ

حتى اتفقت نفسي ونفُسك في

هذا وذاك وفي هذا وفي ذاك

ويحكى أن رجلاً مرض من يحبه، فعاده المحب فمرض من وقته، فعوفي محبوبه فجاء يعوده، فلما رآه عُوفي من وقته، وأنشد:

مَرِضَ الحبيبُ فعدْتُه

فمرضتُ من حَذَري[1] عليه

وأتى الحبيبُ يعودُني

فبرئت من نظري إليه

وأنت إذا تأملت الوجود، لا تكاد تجد اثنين يتحابان، إلا وبينهما مشاكلة أو اتفاق، في فعل أو حال أو مقصد، فإذا تباينت المقاصد والأوصاف

(١) في رواية أخرى: من وجدي عليه.

والأفعال والطرائق لم يكن هناك إلا النفرة والبعد بين القلوب، ويكفي في هذا الحديث الصحيح: عن رسول الله ﷺ: «مَثَلُ المؤمنين في تَوادِّهم وتراحمِهم وتعاطفهم، كمثلِ الجسدِ الواحد، إذا اشتكىٰ منه عضوٌ، تداعىٰ له سائرُ الجسد بالحمىٰ والسهر»(١).

فإن قيل: فهذا الذي ذكرتم يقتضي أنه إذا أحب شخص شخصاً، أن يكون الآخر يحبه فيشتركان في المحبة، والواقع يشهد بخلافه، فكم من محب غير محبوب، بل بسيف البغض مضروب، قيل: قد اختلف الناس في جواب هذا السؤال، فأما أبو محمد بن حزم فإنه قال: الذي أذهب إليه أن العشق اتصالٌ بين أجزاء النفوس المقسومة في هذه الخلقة في أصل عنصرها الرفيع.

قال: وقد علمنا أن سر التمازج والتباين في المخلوقات إنما هو الاتصال والانفصال، فالشكلُ إنما يستدعىٰ شكله، والمثل إلىٰ مثله ساكن. وللمجانسة عملٌ محسوس وتأثير مشاهد. والتنافرُ في الأضداد، والموافقة في الأنداد، والنزاع فيما تشابه موجود بيننا، فكيف بالنفس وعالمها العالم الصافي الخفيف؟

والله تعالىٰ يقول: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾(٢) فجعل علة السكون أنها منه، ولو كان علة الحب حسن الصورة الجسدية، لوجب أن لا يستحسن الأنقص من الصور، ونحن نجد كثيراً ممن يؤثر الأدنىٰ ويعلم فضل غيره، ولا يجد محيداً لقلبه عنه، ولو كان

---

(١) رواه البخاري في الأدب (١٠/ ٤٣٨) ومسلم في البر والصلة (٤/ ١٩٩٩ـ ٢٠٠٠).

(٢) الآية (١٨٨) سورة الأعراف.

للموافقة في الأَخلاق لما أحب المرء من لا يساعده ولا يوافقه، فعلمنا أنه شيءٌ في ذات النفس، وربما كانت المحبة لسبب من الأسباب، وتلك تفنى بفناء سببها.

قال: ومما يؤكد هذا القول أننا قد علمنا أن المحبة ضروب: فأفضلها محبة المتحابين في الله عز وجل إما لاجتهاد في العمل، وإما لاتفاق في أصل المذهب، وإما لفضل علمٍ يُمْنَحُه الإنسان. ومحبة القرابة، ومحبة الألفة والاشتراك في المطالب، ومحبة التصاحب والمعرفة، ومحبةٌ لبر يضعه المرء عند أخيه، ومحبةٌ لطمع في جاه المحبوب، ومحبة المتحابين لسر يجتمعان عليه يلزمهما ستره، ومحبةٌ لبلوغ اللذة وقضاء الوَطَر، ومحبة العشق التي لا علة لها إلا ما ذكرنا من اتصال النفوس. وكل هذه الأجناس فمنقضيةٌ مع انقضاء عللها، وزائدة بزيادتها، وناقصة بنقصانها، متأكدةٌ بدنوها، فاترة ببعدها، حاشا محبةِ العشق الصحيح المتمكن من النفس.

[قلت]: بل الصواب في الجواب أن يقال: إن المحبة كما تقدم قسمان: محبة عَرَضية غَرَضِية، فهذه لا يجب الاشتراك فيها بل يقارنها مقت المحبوب وبغضه للمحب كثيراً، إلا إذا كان له معه غرض نظير غرضه فإنه يحبه لغرضه منه، كما يكون بين الرجل والمرأة اللذين لكل منهما غرض مع صاحبه.

والقسم الثاني: محبة روحانية، سببها المشاكلة والاتفاق بين الروحين، فهذه لا تكون إلا من الجانبين ولابد، فلو فتش المحب المحبةَ الصادقة قلب المحبوب، لوجد عنده من محبته، نظير ما عنده أو دونه أو فوقه.

فصل

وإذا كانت المحبةُ من الجانبين، استراح بها كلٌّ واحد من المحبين، وسَكَّن ذلك بعض مابه، وعده نوعاً من الوصال.

قال (رجل):

فيا ربِّ أَشغِلْها بحبِّي كما بها
شَغَلْتَ فؤادي كي يَخفَّ الذي بيا

وقالت امرأة تُعاتب بعلها: أسأل الذي قسم بين العباد معايشهم، أن يقسم الحب بيني وبينك، ثم أنشدت:

أدعو الذي صَرَفَ الهوى
مني إليكَ ومنكَ عني
أن يبتليك بما ابتلاني
أو يَسلَّ الحبَّ مني

وقال آخر:

فيا ربِّ إن لم تَقْسِمِ الحَب بيننا
بشَطرين فاجعلني على هجرها جَلْدا
وأعقبنيَ السُّلوانَ عنها ورُدَّ لي
فؤادي من سلمى أُثِبْك به حَمْدا

فإذا تشاكلت النفوس، وتمازجت الأرواح وتفاعلت، تفاعلت عنها

الأبدان، وطلبت نظير الامتزاج والجوار الذي بين الأرواح، فإن البدن آلة الروح ومركبه، وبهذا ركب الله سبحانه شهوة الجماع بين الذكر والأنثىٰ طلباً للامتزاج والاختلاط بين البدنين، كما هو بين الروحين، ولهذا يسمىٰ جماعاً وخلاطاً ونكاحاً وإفضاء، لأن كل واحد منهما يفضي إلىٰ صاحبه فيزول الفضاء بينهما.

فإن قيل: فهذا يوجب تأكُّدَ الحب بالجماع وقوتهَ به، والواقع خلافه، فإن الجماع يطفئ نار المحبة، ويبرد حرارتها، ويسكِّن نفس المحب.

قيل: الناس مختلفون في هذا، فمنهم من يكون بعد الجماع أقوىٰ محبة، وأمكنَ وأثبتَ مما قبله، ويكون بمنزلة من وصف له شيء ملائم فأحبه، فلما ذاقه كان له أشدَّ محبة، وإليه أشد اشتياقاً، وقد ثبت في الصحيح: عن النبي ﷺ في حديث عروج الملائكة إلىٰ ربهم أنه سبحانه يسألهم عن عباده ـ وهو أعلم بهم ـ فيقولون: إنهم يُسبِّحونك ويحمدونك ويقدِّسونك، فيقول: وهل رأوني؟ فيقولون: لا، فيقول: فكيف لو رأوني؟ فتقول الملائكة: لو رأوك لكانوا أشد تسبيحاً وتقديساً وتمجيداً، ثم يقولون: ويسألونك الجنة، فيقول: وهل رأوها؟ فيقولون: لا، فيقول: فكيف لو رأوها؟ فتقول الملائكة: لو رأوها لكانوا أشد لها طلباً. وذكر الحديث(١).

ومعلومٌ أن محبةَ من ذاق الشيء الملائم وعدمَ صبره عنه، أقوىٰ من محبة من لم يذقه، بل نفسه مفطومةٌ عنه، والمودة التي بين الزوجين والمحبة بعد

---

(١) أخرجه البخاري في الدعوات (١١/ ٢٠٨ ـ ٢٠٩) ومسلم في الذكر والدعاء (٤/ ٢٠٦٩ ـ ٢٠٧٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. وما ذكره المصنف هنا هو الصواب، فإن المحبة تزيد بالنكاح الحلال، والاقتران الذي أحله الله تعالى.

الجماع أعظمُ من التي كانت قبله. والسبب الطبيعي: أن شهوة القلب ممتزجة بلذة العين، فإذا رأت العين اشتهىٰ القلب، فإذا باشر الجسمُ الجسمَ اجتمع شهوة القلب ولذة العين ولذة المباشرة، فإذا فارق هذه الحال كان نزاع نفسه إليها أشد، وشوقه إليها أعظم، كما قيل:

وأكثرُ ما يكونُ الشوقُ يوماً
إذا دنتِ الديارُ من الديار

ولذلك يتضاعف الألم والحسرة، علىٰ من رأىٰ محبوبه أو باشره، ثم حيل بينه وبينه، فتضاعفُ ألمه وحسرته، في مقابلة مضاعفة لذة من عاوده، وهذا في جانب المرأة أقوىٰ فإنها إذا ذاقت عُسَيْلَةَ الرجل، ولاسيما أول عسيلةٍ لم تكد تصبر عنه بعد ذلك، قال أيمن بن خُرَيم:

يميت العتابَ خِلاط النساءِ
ويُحيي اجتنابُ الخِلاط العتابا

وتزوج زهير بن مسكين الفهري جارية ولم يكن عنده ما يرضيها به، فلما أمكنته من نفسها لم تر عنده ما ترضىٰ به فذهبت ولم تَعُد، فقال في ذلك أشعاراً كثيرة، منها:

تقول وقد قَبْلُتها ألفَ قُبْلةٍ
كفاك أما شيءٌ لديك سوى القُبَلْ
فقلت لها حبٌ على القلب حفظهُ
وطولُ بكاءٍ تستفيض له المُقَلْ

فقالت لعمرُ الله ما لذةُ الفتى
من الحب في قولٍ يخالفه الفعل

وقال آخر:

إذا ما البعلُ لم يكُ ذا جِماعٍ
يُرى في البيت من سقطِ المتاع

وقال آخر:

قولا لعاتكة التي
في نظرةٍ قضت الوَطَرْ
إنـي أريدكِ للنكاحِ
ولا أريدكِ للنظرْ
لو كان هذا مقنعي
لقَنَعتُ عنها بالقمرْ

وقال المؤلف:

سألت فقيهَ الحب عن علة الهوى
وقلتُ له أشكو إلى الشيخ حاليا
فقال دواء الحب أن تُلصقَ الحَشَا
بأحشاء من تهوى إذا كنتَ خاليا

وَتَتَّحدَا من بعد ذاك تعانُقاً

وتلْثَمَهُ حتى يُرى لك ناهياً

فتقضيَ حاجاتِ الفؤاد بأسرها

على الأمن ما دام الحبيب مُؤاتيا

إذا كان هذا في حلال فحبَّذا

وصالٌ به الرحمنُ تلقاه راضياً

وإن كان هذا في حرامٍ فإنه

عذابٌ به تلقى العنا والمكاويا

وقال ابن الرومي :

أُعانقُها والنفسُ بعدُ مَشوقَةٌ

إليها وهل بعد العِناق تداني

وألثم فاها كي تزولَ صبابتي

فيشتد ما ألقى من الهَيَمان

ولم يَكُ مقدارُ الذي بي من الجَوَى

ليشفيه ما ترشُفُ الشَّفتان

كأن فؤادي ليس يشفي غَليلَه

سوى أن أرى الروحين تمتزجان

وروىٰ الطبراني في معجمه الأوسط (بسنده): عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رجلاً قال: يا رسول الله، عندنا يتيمة قد خطبها رجلان: مُوسرٌ ومُعسر، وهي تهوىٰ المُعسر، ونحن نهوىٰ المُوسر، فقال: «لم يُرَ للمتحابين مثل التزويج»[1].

وقالت هند بنت المهلَّب: ما رأيت لصالحي النساء وشرارهن، خيراً من إلحاقهن بمن يَسكُنَّ إليه من الرجال، ولربَّ مسكونٍ إليه غير طائل، والسَّكَن علىٰ كل حال أوفق.

فصل

ورأت طائفة أن الجماعُ يفسد العشق ويبطله أو يضعفه! واحتجت بأمور منها: أن الجماع هو الغاية التي تُطْلَب بالعشق، فما دام العاشق طالباً فعشقه ثابت، فإذا وصل إلىٰ الغاية قضىٰ وَطَره، وبَرَدت حرارة طلبه، وطَفِئَت نارُعشقه. قالوا: وهذا شأن كل طالب لشيء إذا ظفر به، كالظمآن إذا رَوِيَ، والجائع إذا شبع، فلا معنىٰ للطلب بعد الظفر. ومنها: أن سبب العشق فكري وكلما قَوِيَ الفكر زاد العشق، وبعد الوصول لا يبقىٰ الفكر، ومنها: أنه قبل الظفر ممنوعٌ، والنفس مُولعةٌ بحب ما مُنِعتْ منه، كما قال[2]:

---

(١) حديث صحيح، وأخرجه أيضاً في الكبير (١١٠٠٩)، وأخرجه ابن ماجة (١٨٤٧) والحاكم (٢/ ١٦٠) وصححه والبيهقي (٧/ ٧٨) عن طاووس عن ابن عباس مرفوعاً، دون سبب الحديث. وله طريق أخرى عند الطبراني في الكبير (١٠٨٩٥).
وثالثه عند عبدالرزاق (١٠٣١٩) وأبو يعلى (٥/ ٢٧٤٧) عن طاووس مرسلاً فالحديث صحيح بهذه الطرق، وانظر الصحيحة (٦٢٤).

(٢) هو الأحوص.

وزادني كَلَفاً في الحب أن مُنعت

أحبُّ شيء إلى الإنسان ما مُنِعا

وقال الآخر(١):

لولا طِراُد الصيد لم تَكُ لذةٌ

فتَطاردي لي بالوصال قليلا

قالوا: وكانت الجاهلية الجهلاء في كفرهم لا يرجون ثواباً ولا يخافون عقاباً، وكانوا يصونون العشق عن الجماع، كما ذُكر أن أعرابياً عَلِق امرأة، فكان يأتيها سنين وما جرىٰ بينهما ريبة، قال: فرأيت ليلة بياض كفها في ليلة ظلماء فوضعتُ يدي علىٰ يدها فقالت: مه، لا تفسد ما صلح، فإنه ما نكح حِبٌّ إلا فسد!(٢).

وذكر عمر بن شَبَّة: عن بعض علماء أهل المدينة قال: كان الرجل يحب الفتاة فإذا ظفر بها بمجلس تشاكيا وتناشدا الأشعار، واليوم يشير إليها وتشير إليه فيعدُها وتَعِدُه، فإذا التقيا لم يَشْكُ حباً، ولم يُنشد شعراً، وقام إليها كأنه أشهد علىٰ نكاحها أبا هريرة رضي الله عنه!

وقال بعضهم: الحب يطيب بالنظر ويفسد بالغمز. قال هؤلاء: والحب الصحيح يوجب إعظام المحبوب وإجلاله والحياء منه، فلا تطاوع نفسه أن يلقىٰ جلباب الحياء عند محبوبه، وأن يُلقيه عنه، ففي ذلك غاية إذلاله وقهره.

---

(١) هو كشاجم، كما جاء في ديوان الصبابة.

(٢) قلت: لا شك في فساده إذا كان بالحرام، وسيأتي بيان المصنف لذلك.

وزعم بعضهم: أنه كان يشرط بين العشيقة والعاشق أن له من نصفها الأعلىٰ إلىٰ سرتها! ينال منه ما يشاء من ضم وتقبيل ورشف، والنصف الأسفل يحرم عليه، وفي ذلك قال شاعر القوم:

فللحب شطرٌ مطلقٌ من عِقَالهِ

وللبَعْل شطرٌ ما يُرام مَنِيعُ

وهذا كان من دين الجاهلية فأبطلته الشريعةُ، وجعلت الشَّطرين كليهما للبعل. والشعراء قاطبةً لا يرون بالمحادثة والنظر للأجنبيات بأساً! وهو مخالف للشرع والعقل، فإن فيه تعريضاً للطبع لما هو مجبول علىٰ الميل إليه، والطبع يسرق ويَغْلِب، وكم من مفتونٍ بذلك في دينه ودنياه.

وقد ذهب أبو بكر محمد بن داود الأصفهاني إلىٰ جواز النظر إلىٰ من لا يحل له، كما سيأتي كلامه إن شاء الله تعالىٰ. قال أبو الفرج بن الجوزي: وأخطأ في ذلك وجرَّ عليه خطؤه اشتهاره بين الناس وافتضاحه. وذهب أبو محمد بن حزم إلىٰ جواز العشق للأجنبية من غير ريبة، وأخطأ في ذلك خطأ ظاهراً، فإن ذريعة العشق أعظم من ذريعة النظر، وإذا كان الشرعُ قد حرَّم النظر لما يؤدي إليه من المفاسد، كما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالىٰ، فكيف يجوز تعاطي عشق الرجل لمن لا يحل له؟

والمقصود أن هذه الفرقة رأت أن الجماع يفسد العشق، فغارت عليه مما يفسده! وإنْ لم تتركه ديانة!

وسيأتي تمام الكلام في هذا في باب «عفاف المحبين»، إن شاء الله تعالىٰ.

فصل

فصلُ الخطاب بين الفريقين أن الجماعَ الحرام يفسد الحب، ولابد أن تنتهي المحبة بينهما إلىٰ المعاداة والتباغض والقِلىٰ كما هو مشاهدٌ بالعيان، فكل محبة لغير الله آخرها قِلىٰ وبغض، فكيف إذا قارنها ما هو من أكبر الكبائر؟

وهذه عداوة بين يدي العداوة الكبرىٰ، التي قال الله تعالىٰ فيها: ﴿**الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ** (٦٧)﴾[١] وسنذكر إن شاء الله تعالىٰ من ظَفِر بمحبوبه وترك قضاء وطره منه، رغبة في بقاء محبته، وخشية أن تنقلب قِلًىٰ وبغضاً في الباب الموعود به، فإن ذلك أليق به.

وأما الجماعُ المباح فإنه يزيد الحبَّ إذا صادف مراد المحب، فإنه إذا ذاق لذته وطعمه، أوجب له ذلك رغبة أخرىٰ لم تكن حاصلة قبل الذوق. ولهذا لا يكاد البِكْران يصبر أحدهما عن الآخر، هذا مالم يَعْرِض للحب ما يُفسده ويوجب نقله إلىٰ غير المحبوب.

وأما ما احتج به الآخرون، فجوابه: أن الشهوة والإرادة لم تُطْفأ نارُها بالكلية، بل فترت شهوة ذلك الوقت ثم تعود أمثالها، وإنما يظهر هذا إذا غاب أحدُهما عن حبيبه، وإلا فما دام بمرأىٰ منه، وهو قادر عليه متىٰ أحب، فإن النفس تسكن بذلك وتطمئن به، وهذا حال كل من كان بحضرته ما يحتاج إليه من طعام وشراب ولباس وهو قادر عليه، فإن نفسه تسكن عنده، فإذا حيل بينه وبينه اشتد طلبه له ونزاعُ نفسه إليه.

علىٰ أن المحب للشيء متىٰ أفرط في تناول محبوبه، نَفَرتْ نفسه منه، وربما انقلبت محبتُه كراهية. وسيأتي مزيد بيان لهذا في باب سُلُوِّ المحبين، إن شاء الله تعالىٰ.

---

(١) الآية (٦٧) سورة الزخرف.

فصل

ودواعي الحب من المحبوب جمالُه، إما الظاهرُ أو الباطن أوهما معاً، فمتى كان جميل الصورة جميل الأخلاق والشِّيم والأوصاف، كان الداعي منه أقوى. وداعي الحب من المحب أربعة أشياء: أولها: النظر إما بالعين أو بالقلب إذا وصف له، فكثير من الناس يحب غيره ويفنى فيه محبةً وما رآه، لكن وُصف له، ولهذا نهى النبي ﷺ المرأة أن تنعت المرأة لزوجها حتى كأنه ينظر إليها، والحديث في الصحيح(١).

الثاني: الاستحسان، فإنْ لم يورث نظرُه استحساناً لم تقع المحبة، الثالث: الفكر في المنظور وحديثُ النفس به، فإن شُغِل عنه بغيره مما هو أهم عنده منه، لم يَعْلَق حبه بقلبه، وإن كان لا يعدم خطراتٍ وسوانح، ولهذا قيل: العشق حركة قلب فارغ. ومتى صادف هذا النظر والاستحسان والفكر قلباً خالياً تمكن منه، كما قيل:

أتاني هَوَاها قبل أن أعرِفَ الهوى
فصادفَ قلباً خالياً فتمكَّنا

فإن قيل: فهل يتوقف على الطمع في الوصول إلى المحبوب أم لا؟

قيل: الناس في هذا على أقسام: منهم من يعشق الجمال المطلق، فقلبه معلق به إن استقلت ركائبهُ، وإن حلَّت مضاربهُ، وهذا لا يتوقف عشقه على الطمع. ومنهم من يعشق الجمال المقيد سواء طمعت نفسه في وصاله أم لم

---

(١) رواه البخاري في النكاح (٩/ ٣٣٨): وهو قوله ﷺ: «لا تباشر المرأة المرأة فتنعتها لزوجها كأنه ينظر إليها» من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، ونعت: وصف.

تطمع، ومنهم من لا يعشق إلا من طَمِعت نفسه في وصاله، فإن يئس منه لم يعلق حبه بقلبه، والأقسام الثلاثة واقعة في الناس، فإذا وُجد النظرُ والاستحسان والفكر والطمع هاجت بلابلُه، وأمكن من معشوقه مقاتله، واستحكم داؤه، وعجز عن الأطباء دواؤه.

تالله ما أسَرَ الهوى من عاشقٍ

إلا وعزَّ على النفوس فَكاكُه

وإذا كان النظر مبدأ العشق، فحقيقٌ بالمطلق أن لا يعرِّض نفسه للإسار الدائم بواسطة عينه، وإذْ قد أفضىٰ بنا الكلام إلىٰ النظر، فلنذكر حُكمه وغائلته.

الباب السادس

في أحْكامِ النَّظَر وغائِلَته وما يَجْني على صاحبه

قال الله تعالىٰ: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٣٠) وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ الآية(١).

فلما كان غض البصر أصلاً لحفظ الفرج بدأ بذكره، ولما كان تحريمُه تحريم الوسائل، فيباح للمصلحة الراجحة، ويحرم إذا خيف منه الفساد، ولم يعارضه مصلحة أرجح من تلك المفسدة، لم يأمر سبحانه بغضه مطلقاً بل أمر بالغض منه، وأما حفظ الفرج فواجب لكل حال، لا يباح إلا بحقه، فلذلك عم الأمر بحفظه.

وقد جعل الله سبحانه العينَ مِرآة القلب، فإذا غض العبدُ بصَرَه غض القلب شهوته وإرادته، وإذا أطلق بصره أطلق القلب شهوته. وفي الصحيح: أن الفضل بن عباس رضي الله عنهما كان رديف(٢) رسول الله ﷺ يوم النحر من مزدلفة إلىٰ منىٰ، فمرت ظُعُن(٣) يَجْرِين فَطفِقَ الفضلُ ينظر إليهن، فَحوَّل رسول الله ﷺ رأسه إلىٰ الشقِّ الآخر(٤).

وهذا منع وإنكار بالفعل، فلو كان النظر جائزاً لأقره عليه.

---

(١) الآيتان (٣٠ و٣١) سورة النور.

(٢) الرديف: الراكب خلف الراكب.

(٣) جمع ظعينة: الراحلة يرتحل عليها، والهودج، والزوجة.

(٤) رواه مسلم في الحج (٢/ ٨٩١).

وفي الصحيح: عنه ﷺ أنه قال: «إن الله عز وجل كَتَب على ابن آدم حَظَّه من الزنى، أدرَكَ ذلك لا محالة، فالعين تزني وزناها النَّظَر، واللسانُ يزني وزناه النُّطق، والرِّجل تزني وزناها الخُطَى، واليد تزني وزناها البَطْشُ، والقلبُ يهوى ويتمنى، والفرجُ يُصَدِّق ذلك أو يُكذِّبه»(١).

فبدأ بزنى العين لأنه أصل زنى اليد والرجل والقلب والفرج، ونبه بزنى اللسان بالكلام على زنى الفم بالقُبَل، وجعل الفرج مصدقاً لذلك إن حقق الفعل، أو مكذباً له إن لم يحققه. وهذا الحديث من أبين الأشياء على أن العين تعصي بالنظر وأن ذلك زناها، ففيه رد على من أباح النظر مطلقاً.

وثبت عنه ﷺ أنه قال: «يا علي لا تُتْبع النَّظْرَةَ النظرة، فإن لك الأولى، وليست لك الثانية»(٢).

ووقعت مسألة: ما تقول السادة العلماء في رجل نظر إلى امرأة نظرة، فعلق حبُّها بقلبه واشتد عليه الأمر، فقال له نفسه: هذا كله من أول نظرة فلو أعدت النظر إليها لرأيتها دون ما في نفسك فسلوتَ عنها، فهل يجوز له تعمد النظر ثانياً لهذا المعنى؟

فكان الجواب: الحمدلله لا يجوز هذا، لعشرة أوجه: أحدها: أن الله سبحانه أمر بغض البصر، ولم يجعل شفاء القلب فيما حرمه على العبد. الثاني: أن النبي ﷺ سُئل عن نظر الفَجْأة، وقد علم أنه يؤثِّر في القلب فأمر

---

(١) رواه البخاري (١١/ ٢٦، ٥٠٢) واللفظ مقارب لمسلم في القدر (٤/ ٢٠٤٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) حديث صحيح، رواه أحمد (٥/ ٣٥٣، ٣٥٧) وأبو داود (٢١٤٩) والترمذي (٢٧٧٧) من حديث ابن بريدة عن أبيه رضي الله عنه.

بمداواته بصرف البصر، لا بتكرار النظر. الثالث: أنه صرح بأن الأولىٰ له وليست له الثانية، ومحال أن يكون داؤه مما له، ودواؤه فيما ليس له. الرابع: أن الظاهر قوة الأمر بالنظرة الثانية، لا تناقُصُه، والتجربة شاهدةٌ به، والظاهر أن الأمر كما رآه أول مرة، فلا تحسنُ المخاطرة بالإعادة. الخامس: أنه ربما رأىٰ ما هو فوق الذي في نفسه فزاد عذابه.

السادس: أن إبليس عند قصده للنظرة الثانية، يقوم في ركائبه فيُزيِّن له ما ليس بحسن لتتم البلية. السابع: أنه لا يُعان علىٰ بليته إذا أعرض عن امتثال أوامر الشرع، وتداوىٰ بما حرمه عليه، بل هو جديرٌ أن تتخلف عنه المعونة.

الثامن: أن النظرة الأولىٰ سهمٌ مسموم من سهام إبليس، ومعلوم أن الثانية أشد سماً، فكيف يتداوىٰ من السم بالسم؟

التاسع: أن صاحب هذا المقام في مقام معاملة الحق عز وجل في ترك محبوبٍ كما زعم، وهو يريد بالنظرة الثانية أن يتبين حال المنظور إليه، فإن لم يكن مرضياً تَرَكه، فإذاً يكون تركْهٍ لأنه لا يلائم غرضه، لا لله تعالىٰ، فأين معاملة الله سبحانه بترك المحبوب لأجله؟

العاشر: يتبين بضرب مثلٍ مطابق للحال، وهو: أنك إذا ركبت فرساً جديداً فمالت بك إلىٰ درب ضيق لا ينفذ ولا يمكنها تستدير فيه للخروج، فإذا همت بالدخول فيه فاكبحها لئلا تدخل، فإذا دخلت خطوة أو خطوتين فصح بها وردها إلىٰ وراء عاجلاً قبل أن يتمكن دخولها، فإن رددتها إلىٰ ورائها سهل الأمر، وإن توانيت حتىٰ وَلَجَت(١) وسقتها داخلاً ثم قمت تجذبها بذنبها

---

(١) ولجت: دخلت

إلىٰ داخل؟ فكذلك النظرة إذا أثرت في القلب، فإن عجل الحازم وحسم المادة من أولها، سهل علاجه، وإنْ كرر النظر، ونقب عن محاسن الصورة ونقلها إلىٰ قلب فارغ فنقشها فيه، تمكنت المحبة، وكلما تواصلت النظرات كانت كالماء يسقي الشجرة، فلا تزال شجرة الحب تَنْمىٰ حتىٰ يفسد القلب ويُعْرض عن الفكر فيما أُمر به، فيخرج بصاحبه إلىٰ المحن، ويوجب ارتكاب المحظورات والفتن، ويُلقي القلب في التلف.

والسبب في هذا: أن الناظر التَّذت عينه بأول نظرة فطلبت المعاودة، كأكل الطعام اللذيذ إذا تناول منه لقمة، ولو أنه غض أولاً لاستراح قلبه وسَلِم، وتأمل قول النبي ﷺ: «النظرة سهم مسموم من سهام إبليس»(١).

فإن السهم شأنه أن يسري في القلب، فيعمل فيه عمل السم الذي يُسقاه المسموم، فإن بادر واستفرغه، وإلا قتله ولابد.

قال المروذي: قلت لأحمد: الرجل ينظر إلىٰ المملوكة. قال: أخاف عليه الفتنة، كم نظرة قد ألقت في قلب صاحبها البلابل(٢).

وقال ابن عباس: الشيطان من الرجل في ثلاثة: في نظره وقلبه وذكره، وهو من المرأة في ثلاثة: في بصرها وقلبها وعَجُزها.

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (١٠٣٦٢) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، قال في المجمع (٨/ ٦٣): وفيه عبدالرحمن بن إسحاق الواسطي وهو ضعيف، وقد اضطرب فيه فأخرجه الحاكم (٤/ ٣١٣ـ ٣١٤) والقضاعي في مسند الشهاب (٢٩٢) من حديث حذيفة رضي الله عنه وفيه عبدالرحمن السابق. ثم أخرجه القضاعي (٢٩٣) من حديث ابن عمر رضي الله عنه من الطريق نفسه وأخرجه عمر بن شبه ـ كما في هذا الكتاب ـ عن علي رضي الله عنه في الباب السابع، فهو حديث ضعيف الإسناد، لكنه صحيح من جهة المعنى.

(٢) جمع بلبال وبلبالة: شدة الهم والوساوس.

فصل

ولما كان النظرُ من أقرب الوسائل إلىٰ المحرم، اقتضت الشريعة تحريمه، وأباحته في موضع الحاجة، وهذا شأن كل ما حرم تحريم الوسائل فإنه يباح للمصلحة الراجحة، كما حرمت الصلاة في أوقات النهي، لئلا تكون وسيلة إلىٰ التشبه بالكفار في سجودهم للشمس، أُبيحت للمصلحة الراجحة، كقضاء الفوائت، وصلاة الجنازة، وفعل ذوات الأسباب علىٰ الصحيح.

وقال جرير بن عبدالله رضي الله عنهما: سألت رسول الله ﷺ عن نظر الفَجْأَة، فأمرني أن أصرف بصري(١).

ونظرة الفجأة هي النظرة الأولىٰ التي تقع بغير قصد من الناظر، فما لم يَعْتمده القلب لا يعاقب عليه، فإذا نظر الثانية تعمداً أَثِم، فأمره النبي ﷺ عند نظرة الفجأة أن يصرف بصره، ولا يستديم النظر فإن استدامته كتكريره. وأرشد من ابتلىٰ بنظرة الفجأة أن يداويه بإتيان امرأته، وقال: «إن معها مثل الذي معها»(٢)، فإن في ذلك التسلي عن المطلوب بجنسه.

والثاني: أن النظرُ يثير قوة الشهوة، فأمره بتنقيصها بإتيان أهله، ففتنة النظر أصلُ كل فتنة، كما ثبت في الصحيحين: من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «ما تَركتُ بعدي فتنةً أضَرَّ علىٰ الرجال من النساء»(٣).

---

(١) رواه مسلم في الآداب (٣/ ١٦٩٩) وأبو داود (٢١٤٨) والترمذي (٢٧٧٦).

(٢) حديث صحيح، رواه الترمذي (١١٥٨) عن جابر مرفوعاً: «إن المرأة إذا أقبلت، أقبلت في صورة شيطان، فإذا رأى أحدكم امرأة فأعجبته فليأت أهله، فإن معها مثل الذي معها».
ورواه أبو داود (٢١٥١) مع اختلاف، وكذا مسلم في صحيحه في النكاح (٢/ ١٠٢١).

(٣) رواه البخاري في النكاح (٩/ ١٣٧) ومسلم في الذكر والدعاء (٤/ ٢٠٩٧ ـ ٢٠٩٨).

وفي صحيح مسلم: من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «اتقوا الدنيا، واتقوا النساء»[1].

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: لم يكفُر من كفر ممن مضىٰ إلا من قبل النساء، وكُفْرُ من بقي من قبل النساء.

فصل

وفي غض البصر عِدَّة فوائد: أحدها تخليص القلب من ألم الحسرة، فإن من أطلق نظره دامت حسرته، فأضر شيء علىٰ القلب إرسال البصر، فإنه يريه ما يشتد طلبه ولا صبر له عنه، ولا وصول له إليه، وذلك غاية ألمه وعذابه، قال الأصمعي: رأيت جارية في الطواف كأنها مهاةٌ، فجعلت أنظر إليها وأملأُ عيني من محاسنها، فقالت لي: يا هذا ما شأنك؟ قلت: وما عليك من النظر؟ فأنشأت تقول:

وكنتَ متى أرسلتَ طَرفَك رائداً
لقلبك يوماً أتَعبتكَ المناظرُ
رأيتَ الذي لا كُلّه أنتَ قادرٌ
عليه ولا عن بعضه أنتَ صابرُ

والنظرة تفعل في القلب ما يفعل السهم في الرَّمية، فإن لم تقتله جرحته، وهي بمنزلة الشرارة من النار ترمىٰ في الحشيش اليابس، فإنْ لم يُحرقه كله أحرقت بعضه، كما قيل:

---

(١) مسلم في الذكر (٤/ ٢٠٩٨).

كل الحوادث مَبْدأها من النظر

ومُعظم النارِ من مُستصغر الشرر

كم نظرةٍ فَتَكتْ في قلب صاحبها

فَتْكَ السهامِ بلا قوسٍ ولا وتر

والمرءُ ما دام ذا عينٍ يُقلِّبها

في أعين الغِيدِ موقوفٌ على الخطر

يَسُرّ مقلته ما ضرَّ مهجته

لا مرحباً بسرورٍ عاد بالضرر

والناظر يرمي من نظره بسهام غَرَضها قلبه وهو لا يشعر، فهو إنما يرمي قلبه، ولي من أبيات:

يا رامياً بسهام اللَّحظِ مجتهداً

أنتَ القتيلُ بما ترمي فلا تُصِبِ

وباعثَ الطرف يَرْتاد الشفاءَ له

تَوَقَّهُ إنه يأتيك بالعَطَبِ

وقال الفرزدق:

تزوَّدَ منها نظرةً لم تَدَعْ له

فؤاداً ولم يَشعر بما قد تزودَّا

فلم أر مقتولاً ولم أر قاتلاً

بغير سلاحٍ مثلها حين أقصدا

وقال المتنبي :

وأنا الذي اجْتَلَب المنيَّة طرفُه

فَمَن المطالب والقتيلُ القاتلُ

ودخل أصبهان مُغن فكان يتغنى بهذين البيتين :

سماعاً يا عباد الله مني

وكفُّوا عن ملاحظة المِلاح

فإن الحب آخرُه المنايا

وَأوَّلُهُ شبيهٌ بالمزاح

وقال آخر :

وشادن[1] لما بدا

أسلمني إلى الرَّدى

بظَرفه ولطفه

وطَرفه لما بَدَا

أردتُ أنْ أصيده

فصاد قلبي وعدا

---

(١) الشادن : ولد الظبية ، وجمعه شوادن .

وقال آخر يعاتب عينه :

والله يا بصري الجاني على جسدي

لأطفئنَّ بدمعي لَوْعةَ الحزن

وقال آخر :

يا من يرى سقمي يزيدُ

وعِلَّتي أَعْيتْ طبيبي

لا تعجبَّن فهكذا

تَجْني العيونُ على القلوب

وقال آخر :

لواحظُنا تجني ولا علم عندنا

وأنفُسنا مأخوذةٌ بالجرائر[1]

ولم أرى أغبى من نفوس عفائف

تُصَدِّق أخبارَ العيون الفواجر

ومن كانت الأجفان حُجَّاب قلبه

أذِنَّ على أحشائه بالفواقر[2]

---

(١) الجرائر جمع جريرة : الذنوب والجنايات .

(٢) الفواقر جمع فاقرة : الدواهي .

وقال آخر:

وَمُسْتَفْتِحٍ بابَ البلاء بنظرةٍ
تزوَّد منها قلبُه حَسْرَةَ الدَّهر

فوالله ما تدري أيدري بما جنت
على قلبه أم أهلكَتْه وما يدري

وقال آخر:

أنا ما بين عدوين هما قلبي وطرفي
ينظر الطرفُ ويهوى القلبُ والمقصودُ حَتْفي

الفائدة الثانية: أنه يورث القلب نوراً وإشراقاً، يظهر في العين، وفي الوجه، وفي الجوارح، كما أن إطلاق البصر يورثه ظلمة تظهر في وجهه وجوارحه. ولهذا والله أعلم ذكر الله سبحانه آية النور في قوله تعالى: ﴿**اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ**﴾ عقيب قوله: ﴿**قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ**﴾(١).

الفائدة الثالثة: أنه يورث صحة الفراسة، فإنها من النور وثمراته، وإذا استنار القلب صحَّت الفِراسة، لأنه يصير بمنزلة المرآة المجلوة تظهر فيها المعلومات كما هي، والنظر بمنزلة التنفس فيها، فإذا أطلق العبد نظره تَنفَّست نفسُه الصُّعَداء في مرآة قلبه فطمست نورها، كما قيل:

---

(١) الآيتان (٣٥ و٣٠) سورة النور.

مـــــــرآة قـلبـك لا تُـريك صـــــــلاحـــــه
والنـفسُ فـــــيـــــهـــــا دائمـــــاً تـتـنـفـس

وقال شجاع الكرماني: من عَمَّرَ ظاهره باتباع السنة، وباطنه بدوام المراقبة، وغض بصره عن المحارم، وكف نفسه عن الشهوات، وأكل من الحلال، لم تخطئ فراسته. وكان شجاع لا تخطئ له فراسة.

والله سبحانه وتعالىٰ يجزي العبد علىٰ عمله بما هو من جنسه، فمن غضَّ بصره عن المحارم، عوَّضه الله سبحانه وتعالىٰ إطلاق نور بصيرته، فلما حبس بصره لله، أطلق اللهُ نور بصيرته، ومن أَطلق بصره في المحارم، حبس الله عنه بصيرته.

الفائدة الرابعة: أنه يفتح له طرق العلم وأبوابه، ويسهِّل عليه أسبابه، وذلك بسبب نور القلب، فإنه إذا استنار ظهرت فيه حقائق المعلومات، وانكشفت له بسرعة، ونفذ من بعضها إلىٰ بعض. ومن أرسل بصره تكدَّر عليه قلبه وأظلم، وأنسد عليه باب العلم وطُرُقه.

الفائدة الخامسة: أنه يورث قوةَ القلب وثباته وشجاعته، فيجعل له سلطان البصيرة مع سلطان الحجة. وفي الأثر: إن الذي يخالف هواه يَفْرَق[1] الشيطان من ظله، ولهذا يوجد في المتَّبع لهواه من ذلّ القلب وضعفه، ومهانة النفس وحقارتها، ما جعله الله لمن آثر هواه علىٰ رضاه.

قال الحسن: إنهم وإن هَمْلَجَت بهم البغال، وطَقْقت بهم البَراذين[2] إن ذل المعصية لفي قلوبهم، أبىٰ اللهُ إلا أن يذل من عصاه.

---

(١) يفرق: يخشى ويخاف.

(٢) الهملجة: حسن سير الدابة. والطقطقة: حكاية صوت حوافر الدواب. والبراذين: الدواب مفردها برذون وبرذونه.

وقال بعض الشيوخ: الناس يطلبون العز بأبواب الملوك، ولا يجدونه إلا في طاعة الله.

ومن أطاع الله فقد والاه فيما أطاعه فيه، ومن عصاه فقد عاداه فيما عصاه فيه، وفيه قِسْطٌ ونصيبٌ من فعل من عاداه بمعاصيه، وفي دعاء القنوت: «إنه لا يَذِلُّ من واليت، ولا يَعِزُّ من عاديت».

الفائدة السادسة: أنه يورث القلب سروراً وفرحة، وانشراحاً أعظم من اللذة والسرور الحاصل بالنظر، وذلك لقهره عدوَّه بمخالفته، ومخالفة نفسه وهواه.

وأيضاً: فإنه لما كف لذته، وحبس شهوته لله، وفيها مسرة نفسه الأمارة بالسوء، أعاضه الله سبحانه مسرةً ولذة أكمل منها، كما قال بعضهم: والله للذَّةُ العفة أعظمُ من لذة الذنب. ولا ريب أن النفس إذا خالفت هواها أعقبها ذلك فرحاً وسروراً ولذة، أكملَ من لذة موافقة الهوىٰ بما لا نسبة بينهما. وهاهنا يمتاز العقل من الهوىٰ.

الفائدة السابعة: أنه يُخلِّص القلبَ من أسر الشهوة، فإن الأسير هو أسير شهوته وهواه، فهو كما قيل:

* طليق برأْيٰ العين وهو أسير *

ومتىٰ أسرت الشهوةُ والهوىٰ القلب، تمكن منه عدوُّه، وسامه سوء العذاب، وصار:

كعصفورة في كفِّ طفل يَسومها

حياضَ الرَّدى والطفلُ يلهو ويلعب

الفائدة الثامنة: أنه يسدّ عنه باباً من أبواب جهنم، فإن النظر بابُ الشهوة الحاملة على مواقعة الفعل، وتحريم الرب تعالى وشرعه حجابٌ مانع من الوصول، فمتى هتك الحجاب ضَرِيَ[1] على المحظور، ولم تَقِفْ نفسُه منه عند غاية، فإن النفس في هذا الباب لا تقنع بغاية تقف عندها، وذلك أن لذتها في الشيء الجديد، فصاحب الطارف لا يُقْنعه التَّليد[2]، وإن كان أحسنَ منه منظراً، وأطيبَ مخبراً، فغضُّ البصرَ يسدُّ عنه هذا الباب الذي عَجِزت الملوك عن استيفاء أغراضهم فيه.

الفائدة التاسعة: أنه يقويّ عقله ويزيده ويثبته، فإن إطلاق البصر وإرسالهَ لا يحصل إلا من خِفة العقل وطيشه، وعدم ملاحظته للعواقب، فإن خاصة العقل ملاحظةُ العواقب. ومُرْسل النظر لو علم ما تجنى عواقبُ نظره عليه، لما أطلق بصره، قال الشاعر:

وأعقلُ الناسِ من لم يرتكب سبباً

حتى يفكّرَ ما تَجني عواقبه

الفائدة العاشرة: أنه يُخلِّص القلب من سُكر الشهوة، ورقدة الغفلة، فإن إطلاق البصر يوجب استحكام الغفلة عن الله والدار الآخرة، ويوقع في سكرة العشق، كما قال الله تعالى عن عشاق الصور: ﴿**لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ** (٧٢)﴾[3]. فالنظرةُ كأسٌ من خمر، والعشقُ هو سكر ذلك الشراب، وسُكر العشق أعظمُ من سكر الخمر، فإن سكران الخمر يفيق،

(١) ضرى به أو عليه: لزمه وأولع بع، اعتاده وتجرأ عليه.

(٢) التليد: القديم، وضده الطارف.

(٣) الآية (٧٢) سورة الحجر.

وسكران العشق قلما يفيق إلا وهو في عسكر الأموات، كما قيل:

سكران سكر هوًى وسكر مدامةٍ

ومتى إفاقتُه من به سُكران؟

وفوائد غض البصر، وآفاتُ إرساله، أضعاُف أضعاف ما ذكرنا، وإنما نبهنا عليه تنبيهاً، ولاسيما النظر إلى من لم يجعل الله سبيلاً إلى قضاء الوطر منه شرعاً، كالمردان الحسان، فإن إطلاق النظر إليهم السم الناقع والداء العضال.

وقال سعيد بن المسيب: إذا رأيتم الرجل يحدُّ النظر إلى الغلام الأمرد فاتهموه. وكان إبراهيم النخعي وسفيان الثوري وغيرهما من السلف: ينهون عن مجالسة المردان. قال النخعي: مجالستهم فتنة، وإنما هم بمنزلة النساء.

وبالجملة فكم من مرسل لحظاته، رجع بجيش صبره مغلولا، ولم يُقلع حتى تَشحَّط(1) بينهم قتيلاً.

يا ناظراً ما أقلعت لحَظاته

حتى تشحَّط بينهن قتيلاً

(1) تشحط: تخبط واضطرب وتمرغ.

الباب السابع

في ذكر مناظرة بين القلب والعين

ولوم كل منهما صاحبه والحكم بينهما

لما كانت العين رائداً، والقلب باعثاً وطالباً، وهذه لها لذَّة الرؤية، وهذا له لذة الظفر، كانا في الهوىٰ شريكَي عنان[1] ولما وقعا في العناء، واشتركا في البلاء، أقبل كلٌ منهما يلوم صاحبه ويعاتبه.

فقال القلب للعين: أنتِ التي سُقّتني إلىٰ موارد الهَلَكات، وأوقعتني في الحسرات بمتابعتك اللَّحظات، ونزَّهت طرفك في تلك الرياض، وطلبت الشفاء من الحَدق المِراض، وخالفتِ قول أحكم الحاكمين: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾[2].

فمن الملومُ سوىٰ من رمىٰ صاحبَه بالسهم المسموم؟ أو ما علمتِ أنه ليس شيء أضرَّ علىٰ الإنسان من العين واللسان؟ فما عَطِب أكثر من عَطِب إلا بهما، وما هلك أكثر من هلك إلا بسببهما، فلله كم من مورد هَلَكه أورداه، ومصدر ردىٰ عنه أصدراه، فمن أحب أن يحيا سعيداً أو يعيش حميداً، فليغض من عنان طرفه ولسانه ليسلم من الضرر، فإنه كامنٌ في فضول الكلام وفضول النظر.

وقد صرح الصادق المصدوق بأن العينين تزنيان، وهما أصل زني الفرج،

---

(١) شركه العنان: هي أن يشترك اثنان فأكثر في مال يتجران فيه، ويكون الربح بينهما بحسب ما يتفقان عليه.

(٢) الآية (٣٠) سورة النور.

فإنهما له رائدان، وإليه داعيان، وقد سئل رسول الله ﷺ عن نظرة الفجأة فأمر السائل أن يَصْرف بصره، فأرشده إلىٰ ما ينفعه ويدفع عنه ضرره، وقال لابن عمه علي رضي الله عنه محذراً له، مما يوقع في الفتنة ويورث الحسرة: «لا تُتْبع النَّظْرَة النظرة»(١).

أو ما سمعت قول العقلاء: من سرَّح ناظره، أتعب خاطره، ومن كثرت لحظاته، دامت حسراته، وضاعت عليه أوقاته، وفاضت عبراته، وقول الناظم(٢):

نَظَرُ العيونِ إلى العيون هو الذي
جعل الهلاكَ إلى الفؤاد سبيلا
مازالت اللحظات تغزو قلبَه
حتى تَشَحَّط بينهن قتيلاً

وقال آخر(٣):

تَمَتَّعتُما يا مقلتي بنظرةٍ
وأوردتما قلبي أمرَّ الموارد
أعيني كُفَّا عن فؤادي فإنه
من الظلم سعيُ اثنين في قتل واحد

(١) تقدم تخريجه .

(٢) البيتان لابن مرداس كما جاء في سحر العيون .

(٣) البيتان للأرجاني كما جاء في تزيين الأشواق ، وفيهما : أعيناي . (الفقي)

فصل

قالت العين: ظلمتَني أولاً وآخراً، وبُؤْتَ بإثمي باطناً وظاهراً، وما أنا إلا رسولُك الداعي إليك، ورائدُك الدالُّ عليك.

وإذا بَعثتَ برائدٍ نحو الذي
تهوى وتَعْتِبُه ظلمت الرائدا

فأنت الملك المطاع، ونحن الجنود والأتباع. أركبتني في حاجتك خيل البريد، ثم أقبلت علي بالتهديد والوعيد. فلو أمرتني أن أُغلق علي بابي، وأُرخي علي حجابي، لسمعتُ وأطعت، ولما رعيت في الحمى[1] ورتعت، أرسلتني لصيد قد نُصِبَت لك حبائله وأشراكه، واستدارت حولك فخاخه وشباكه، فغدوت أسيراً، بعد أن كنت أميراً، وأصبحت مملوكاً، بعد أن كنت مليكاً. هذا وقد حكم لي عليك سيد الأنام، وأعدل الحكام عليه الصلاة والسلام، حيث يقول: «إن في الجسد مُضْغَةً، إذاَ صَلَحت صلح لها سائرُ الجسد، وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد، ألا وهي القلب»[2].

وقال أبو هريرة رضي الله عنه: القلب ملك والأعضاء جنوده، فإن طاب الملك طابت جنوده، وإذا خبث الملك خبثت جنوده. ولو أنعمت النظر لعلمت أن فساد رعيتك بفسادك، وصلاحها ورشدها برشادك،

(١) الحمى: الموضع فيه كلأ يُحمى من الناس أن يرعى فيه. وحمى الله محارمه، ورتعت الماشية: رعت كيف شاءت في خصب وسعة.

(٢) رواه البخاري في العلم (١/ ١٢٦) ومسلم في المساقاة (٣/ ١٢١٩ ـ ١٢٢٠) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما.

ولكنك هلكت وأهلكت رعيتك، وحملت على العين الضعيفة خطيئتك، وأصل بليتك: أنه خلا منك حبُّ الله، وحب ذكره وكلامه وأسمائه وصفاته، وأقبلتَ على غيره وأعرضت عنه، وتعوَّضت بحب من سواه والرغبة فيه منه.

هذا وقد سمعتَ ما قص عليك من إنكاره سبحانه على بني إسرائيل استبدالهم طعاماً بطعام أدنى منه، فذمهم على ذلك ونعاه عليهم، وقال: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾[1] فكيف بمن استبدل بمحبة خالقه وفاطره، ووليه ومالكِ أمره، الذي لا صلاح له ولا فلاح، ولا نعيم ولا سرور، ولا فرحة ولا نجاة، إلا بأن يوحِّده في الحب، ويكون أحبَّ إليه مما سواه، فانظر بالله بمن استبدلت؟ وبمحبة من تعوضت؟ رضيت لنفسك بالحبس في الحش[2]، وقلوب محبيه تجول حول العرش. فلو أقبلتَ عليه وأعرضت عمن سواه لرأيت العجائب، ولأمنت من المتالف والمعاطب، أو ما علمتِ أنه خصَّ بالفوز والنعيم، من أتاه بقلبٍ سليم، أي: سليم مما سواه، ليس فيه غيرُ حبه واتباع رضاه.

قالت: وبين ذنبي وذنبك عند الناس، كما بين عماي وعماك في القياس. وقد قال من بيده أزمة الأمور: ﴿فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (٤٦)﴾[3].

---

(١) الآية (٦١) سورة البقرة.

(٢) الحش مثلثة: البستان. وهو أيضاً المخرج. وكانوا يقضون حوائجهم في البساتين.

(٣) الآية (٤٦) سورة الحج.

فصل

فلما سمعت الكبد تحاوُرهما الكلام، وتناوُلَهما الخصام، قالت: أنتما على هلاكي تساعدتما، وعلى قتلي تعاونتما. ولقد أنصف من حكى مناظرتكما، وعلى لساني متظلماً منكما:

يقـــول طَرْفي لقلبي هِجْت لي سـقمـاً
والعين تزعمُ أن القلب أنكاها[1]

والجسمُ يشهد أن العينَ كاذبةٌ
وهي التي هيَّجت للقلب بَلْواها

لولا العيونُ وما يَجْنينَ من سَقَمٍ
ما كنتُ مُطَّرحاً من بعض قتلاها

فقالت الكبدُ المظلومة اتَّئدا
قطعتماني وما راقبتما الله

وقال آخر[2]:

يقول قلبي لطَرْفي أن بكى جزعاً
تبكي وأنت الذي حمَّلتَني الوَجَعا

فقال طرفي له فيما يعاتبه
بل أنت حملتني الآمال والطَّمَعا

(١) أنكاها: أوقع بها، ونكى: غلب وقهر وانتصر.
(٢) في سحر العيون أنه ابن جنكيتا البغدادي.

حتى إذا ما خلا كلٌّ بصاحبه
كلاهما بطويل السُّقم قد قَنِعا

نادتهما كبدي لا تبعدا فلقد
قطعتماني بما لاقيتما قِطعا

وقال آخر:

عاتبتُ قلبي لما
رأيتُ جسمي نحيلاً

فألزم القلبُ طرفي
وقال كنتَ الرسولا

فقال طرفي لقلبي
بل كنتَ أنتَ الدليلا

فقلتُ كُفّا جميعاً
تركتماني قتيلاً

ثم قالت: أنا أتولى الحكم بينكما، أنتما في البلية شريكا عِنان، كما أنكما في اللذة والمسرة فرَسَا رِهان. فالعين تلتذ، والقلب يتمنّى ويشتهي.

وإن لم تُدْرككما عناية مُقلب القلوب والأبصار، وإلا فما لك من قرة ولا للقلب من قرار، قال الشاعر:

فــــوالله مـــــا أدري أنفـــــسي ألـومُـــــهـــــا

على الحب أم عـــــيني المشـــــومـــــة أم قلبي

فـــــإنْ لمتُ قلبي قـــــال لي العينُ أبصــــرتْ

وإن لمتُ عـــــــيني قـــــالت الذنبُ للقلب

فـعـــيني وقلبي قـــد تقـاسـمـتُـمـا دمي

فـــيـــــا رب كن عـــونـاً على العين والقلب

قالت : ولما سقيتِ القلب ماء المحبة بكؤوسك ، أوقدتِ عليه نار الشوق ، فارتفع إليك البخار ، فتقاطر منك فشَرِقتِ بشربه أولاً ، وشرقت بحرّ ناره ثانياً .

قالت : والحاكم بينكما الذي يحكم بين الروح والجسد إذا اختصما بين يديه ، فإن في الأثر المشهور : لا تزال الخصومة يوم القيامة بين الخلائق حتىٰ تختصم الروح والجسد ، فيقول الجسد للروح : أنت الذي حرَّكتني وأمرتني وصرفتني ، وإلا فأنا لم أكن أتحرك ولا أفعل بدونك . فتقول الروح له : وأنت الذي أكلت وشربت وباشرت وتنعمت ، فأنت الذي تستحق العقوبة ، فيرسل الله سبحانه إليهما ملكاً يحكم بينهما فيقول : مثلُكما مَثَلُ مُقْعدٍ بصير وأعمىٰ يمشي ، دخلا بستاناً فقال المقعد للأعمىٰ : أنا أرىٰ ما فيه من الثمار ولكن لا أستطيع القيام ، وقال الأعمىٰ : أنا أستطيع القيام ولكن لا أبصر شيئاً ، فقال له المقعد : تعال فاحملني فأنت تمشي وأنا أتناول ، فعلىٰ من تكون العقوبةُ؟ فيقول : عليهما ، قال : فكذلك أنتما[1] . وبالله التوفيق .

---

(١) راجع خاتمة كتاب شرح الصدور للسيوطي .

الباب الثامن

في ذكر الشُّبه التي احتج بها من أباح النظر إلى من لا يحل له الاستمتاع به وأباح عشقه

قالت هذه الطائفة: بيننا وبينكم الكتاب، والسنة! وأقوال أئمة الإسلام والمعقول الصحيح!

أما الكتاب فقوله تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾[1] وهذا يَعُمُّ جميعَ ما خلق الله، فما الذي أخرج من عمومه الوجه المليح؟ وهو من أحسن ما خلق. وموضع الاستدلال به والاعتبار أقوىٰ، ولذلك يُسَبَّح الخالق سبحانه عند رؤيته، كما قال بعض الناظرين إلىٰ جميل الصورة:

ذي طلعةٍ سبحان فالق صبحه
ومَعَاطفٍ[2] جلَّت يمينُ الغارس
مرَّت بأرجاء الخيال طُيوفُه
فبكت على رسم السُّلوّ الدارس[3]

ورؤية الجمال البديع تُنطق ألسنةَ الناظرين بقولهم: سبحان الله رب العالمين، وتبارك الله أحسن الخالقين، والله تعالىٰ لم يخلق هذه المحاسن

(١) الآية (١٨٤) سورة الأعراف.

(٢) المواضع التي تتثنى من الجسد.

(٣) درس درساً: عفا وذهب أثره وبلي وتقادم عهده.

عبثاً، وإنما أظهرها ليستدل الناظر إليها على قدرته ووحدانيته وبديع صنعه، فلا تعطل عما خُلقت له.

وأما السنة فالحديثُ المشهور: «النظر إلى الوجه المليح عبادة[1]»!

وفي الحديث الآخر: «اطلبوا الخير من حسان الوجوه»!

وفي هذا إرشاد إلى تَصفُّح الوجوه وتأملها.

وخطب رجل امرأة فاستشار النبي ﷺ في نكاحها، فقال: هل نظرت إليها؟ فقال: لا، قال: «اذهب فانظر إليها»[2].

ولو كان النظر حراماً لما أطلق له أن ينظر فإنه لا يأمن الفتنة.

[وذكروا أخباراً وأشعاراً عن الأئمة في جواز النظر!][3]

وروى الخطيب في تاريخ بغداد: عن إبراهيم بن محمد بن عرفة نِفْطَوْيه بقرطبة قال: دخلت على محمد بن داود الأصبهاني في مرضه الذي مات فيه فقلت له: كيف تجدك؟ قال: حبٌّ من تعلم أورثني ما ترى، فقلت له: ما منعك عن الاستمتاع به مع القدرة عليه؟ قال: الاستمتاع على وجهين: أحدهما النظر المباح، والثاني اللذة المحظورة. فأما النظر المباح فأورثني ما ترى، وذكر القصة. وستأتي في باب عفاف العشاق.

---

(١) سيأتي الكلام على هذا الحديث وما بعده في الباب التاسع.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) وقد حذفناها في هذا المختصر فهي قصص وحكايات وأشعار عن أئمة الدين لا يصح منها شيء، بل هي مما يعرف كذبه بالضرورة، وبما عرف عن أئمة الإسلام من التقوى والورع والبعد عن هذه الحال (م).

والمقصود أنه لم ير النظرَ إلىٰ معشوقه ولا عِشْقَه حراماً.

وجرىٰ علىٰ هذا المذهب أبو محمد بن حزم في كتاب «طوق الحمامة» له.

قالوا: وقد جوزت طائفة من فقهاء السلف والخلف والعلماء استمناء الإنسان بيده إذا خاف الزنى[1]، وقد جوزت طائفة من الفقهاء لمن خاف علىٰ نفسه في الصوم الواجب من شدة الشبق أن تتشقق أنثياه، أن يجامع امرأته، وبنوا علىٰ ذلك فرعاً: وهو إذا كان له امرأتان حائض وصائمة، فهل يطأ هذه أو هذه علىٰ وجهين؟ ولا ريب أن النظر والقبلة والضم إذا تضمن شفاءه من دائه، كان أسهل من الاستمناء باليد، والوطء في نهار رمضان.

ولا ريب أن الشريعة جاءت بالتزام الدخول في أدنىٰ المفسدتين دفعاً لأعلاهما، وتفويت أدنىٰ المصلحتين تحصيلاً لأعلاهما، فأين مفسدةُ النظر والقبلة والضم، من مفسدة المرض والجنون أو الهلاك جملة؟ فهذا ما احتجت به هذه الفرقة، ونحن نذكر ما لها وما عليها في ذلك، بحول الله وقوته وعونه.

---

(١) لئن أجاز العلماء ذلك لمن خشي من الزنا، فإنهم لم يطلقوا جوازه إطلاقاً يبيح استعمالها لمن أراد، وكلما أراد، ولم يبيحوها إلا بالقدر الذي يمنع من ارتكاب جريمة الزنا، وبعد استنفاد الوسائل التي تساعد على إطفاء نار الشهوة، مثل الصوم، واجتناب كل ما يثيرها من نظر وقراءة (الفقي).

الباب التاسع
في الجواب عما احتجّتْ به هذه الطائفة
وما لها وما عليها في هذا الاحتجاج

وشُبَهُهُمُ التي ذكروها دائرةٌ بين ثلاثة أقسام: أحدها: نقولٌ صحيحة لا حجة لهم فيها، والثاني: نقولٌ كاذبة عمن نسبت إليه، من وضع الفساق والفجار كما سنبينه، الثالث: نقولٌ مجملة محتملة لخلاف ما ذهبوا إليه.

فأما احتجاجهم بقوله تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾(١) فهو نظير احتجاجهم بعينه على إباحة السماع الشيطاني الفسقي، بقوله تعالىٰ: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ (١٧) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾(٢)، قالوا: والقول عام، فحملوا لفظه ومعناه ما هو بريء منه. وإنما القول هاهنا ما أمرهم الله باستماعه، وهو وحيه الذي أنزله على رسوله وهو الذي قال فيه: «﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾(٣) وقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ﴾(٤) فهذا هو القول الذي أمروا باتباع أحسنه، كما قال: ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾(٥).

والنظر الذي أمرنا سبحانه به: المؤديّ إلىٰ معرفته والإيمان به ومحبته، والاستدلال على صدق رسله فيما أخبروا به عنه، من أسمائه وصفاته

(١) الآية (١٨٤) سورة الأعراف.

(٢) الآيتان (١٧ و١٨) سورة الزمر.

(٣) الآية (٦٩) سورة المؤمنون.

(٤) الآية (٥١) سورة القصص.

(٥) الآية (٥٥) سورة الزمر.

وأفعاله، وعقابه وثوابه، لا النظرُ الذي يوجب تعلُّق الناظر بالصورة التي يَحْرم عليه الاستمتاع بها نظراً ومباشرة، فهذا النظر الذي أمر الله سبحانه وتعالىٰ صاحبه بغض بصره، هذا مع أن القوم لم يبتلوا بالمُرْدَان، وهم كانوا أشرفَ نفوساً، وأطهر قلوباً من ذلك، فإذا أمرهم بغض أبصارهم عن الصورة التي تباح لهم في بعض الأحوال، خشية الافتتان، فكيف النظر إلىٰ صورة لا تباح بحال؟!

ثم يقال لهذه الطائفة: النظر الذي ندب الله إليه نظرٌ يُثاب عليه الناظر، وهو نظر موافق لأمره، يقصد به معرفة ربه ومحبته، لا النظر الشيطاني! ويشبه هذا الاستدلال استدلال بعض الزنادقة المنتسبين إلىٰ الفقه، علىٰ حلِّ الفاحشة بمملوك الرجل، بقوله تعالىٰ: ﴿ **إلاَّ علَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٦)** ﴾[1]، ومعتقدُ ذلك كافرٌ حلال الدم بعد قيام الحجة عليه، وإنما تسترت هذه الطائفة لهواها وشهواتها، وأوهمت أنها تنظر عبرةً واستدلالاً، حتىٰ آل ببعضهم الأمر، إلىٰ أن ظنوا أن نظرهم عبادةٌ، لأنهم ينظرون إلىٰ مظاهر الجمال الإلهي، ويزعمون أن الله ـ سبحانه وتعالىٰ عن قول إخوان النصارىٰ ـ يظهر في تلك الصورة الجميلة! ويجعلون هذا طريقاً إلىٰ الله! كما وقع فيه طوائف كثيرة ممن يدعىٰ المعرفة والسلوك.

قال شيخنا رحمه الله تعالىٰ:[2] وكفرُ هؤلاء شرٌ من كفر قوم لوط، وشر من كفر عباد الأصنام، فإن أولئك لم يقولوا: إن الله سبحانه يتجلىٰ في تلك الصورة، وعباد الأصنام غاية ما قالوه: ﴿ **مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ**

---

(١) الآية (٦) سورة المؤمنون. والآية (٣٠) سورة المعارج.

(٢) هو شيخه أبو العباس أحمد بن تيمية رحمه الله تعالى.

زُلْفَىٰ﴾[1]، وهؤلاء قالوا: نعبدهم لأن الله ظهر في صورهم! وحكىٰ لي شيخنا: أن رجلاً من هؤلاء مر به شاب جميل فجعل يتبعه بصره، فأنكر عليه جليس له، وقال: لا يَصلحُ هذا لمثلك! فقال: إني أرىٰ فيه صفات معبودي، وهو مظهرٌ من مظاهر جماله! فقال: لقد فعلتَ به وصنعت، فقال: وإن!

قال شيخنا: فلعن الله أمةً معبودها موطوؤها.

قال: وسئل أفضل متأخريهم العفيف! التلمساني فقيل له: إذا كان الوجود واحداً، فما الفرق بين الأخت والبنت والأجنبية حتىٰ تَحِلَّ هذه؟ فقال: الجميع عندنا سواء! ولكن هؤلاء المحجوبون قالوا: حرام، فقلنا: حرام عليكم!!

ومن هؤلاء الزنادقة من يخص ذلك ببعض الصور، فهؤلاء من جنس النصارىٰ بل هم إخوانهم، فالنظر عند هؤلاء إلىٰ الصور المحرمة عبادة، ويشبه أن يكون هذا الحديث من وضع بعض هؤلاء الزنادقة، أو مُجَّان الفساق، وإلا فرسول الله ﷺ بريء منه.

وسئل شيخنا عمن يقول: النظر إلىٰ الوجه الحسن عبادة، ويروي ذلك عن النبي ﷺ، فهل ذلك صحيح أم لا؟

فأجاب بأن قال: هذا كذبٌ باطل، ومن روىٰ ذلك عن النبي ﷺ أو ما يشبهه فقد كذب عليه ﷺ، فإن هذا لم يَرْوه أحدٌ من أهل الحديث لا بإسناد صحيح ولا ضعيف، بل هو من الموضوعات، وهو مخالف لإجماع

(١) الآية (٣) سورة الزمر.

المسلمين. فإنه لم يقل أحد إن النظر إلى المرأة الأجنبية والصبي الأمرد عبادة! ومن زعم ذلك، فإنه يستتاب فإن تاب وإلا قتل، فإن النظر منه ما هو حرام، ومنه ما هو مكروة، ومنه ما هو مباح، والله أعلم.

وأما الحديث الآخر، وهو: «أُطلُبوا الخيرَ من حسان الوجوه»[1] فهذا وإن كان قد روى بإسناد، إلا أنه باطلٌ لم يصح عن رسول الله ﷺ، ولو صح لم يكن فيه حجةٌ لهذه الطائفة، فإنه إنما أمر بطلب الخير منهم، لا بطلب وصالهم ونيل المحرم منهم، فإن الوجه الجميل مظنة الفعل الجميل، فإن الأخلاق في الغالب مناسبةٌ للخِلْقة، بينهما نسبٌ قريب[2].

وأما أمر النبي ﷺ للخاطب بأن ينظر إلى المخطوبة، فذلك نظرٌ للحاجة، وهو مأمور به أمر استحباب عند الجمهور، وأمر إيجاب عند بعض أهل الظاهر، وهو من النظر المأذون فيه لمصلحة راجحة، وهو دخول الزوج على بصيرة، وأبعد من ندمه ونَفْرته عن المرأة، فالنظر المباح أنواع، هذا أحدها، بخلاف النظر إلى الصورة المحرمة.

---

(١) حديث ضعيف جداً، رواه الطبراني في الأوسط ـ كما في مجمع البحرين (٢٩٤٠، ٢٩٤١) ـ وأبو يعلى (٨/ ٤٧٥٩) والخطيب البغدادي في تاريخه وغيرهم من وجوه ضعيفة جداً.
قال السخاوي في المقاصد الحسنة» (ص١٤٨): وطرقه كلها ضعيفة، وبعضها أشد في ذلك من بعض.
وحكم عليه الشيخ الألباني في الجامع (١٢٤٦) بالوضع.

(٢) في أدب الدنيا والدين للماوردي: سئل ابن عائشة عن قول النبي ﷺ: «اطلبوا الحوائج من حسان الوجوه» فقال: معناه: من أحسن الوجوه التي تحل. وقال شارحه: أي الطلقة المستبشرة وجوههم، وقيل: من له بشر عند الطلب وإن لم يكن جميل الوجه.

فصل

وأما قصة محمد بن داود الأصبهاني فغايتها أن تكون من سعيه المغفو المغفور، لا من عمله المشكور، وسُلِّط الناس بذلك على عرضه، والله يغفر لنا وله، فإنه تعرض بالنظر إلى القسم الذي صار به صاحبَ فراش، وهذا لو كان ممن يباح له لكان نقصاً وعيباً، فكيف من صبي أجنبي؟ وأرضاه الشيطان بحبه والنظر إليه عن مواصلته، إذا لم يطمع في ذلك منه، فنال منه ما عرف أن كيده لا يتجاوزه وجعله قدوةً لمن يأتمّ به بعده، كأبي محمد بن حزم الظاهري وغيره، وكيد الشيطان أدق من هذا.

وأما أبو محمد فإنه على قدر يُبْسه وقسوته في التمسك بالظاهر، وإلغائه للمعاني والمناسبات والحِكَم والعلل الشرعية، إنماع في باب العشق والنَّظر، وسماع الملاهي المحرمة، فوسَّع هذا الباب جداً، وضيَّق باب المناسبات والمعاني والحكم الشرعية جداً، وهو من انحرافه في الطرفين حين رد الحديث الذي رواه البخاري في صحيحه في تحريم آلات اللهو، بأنه معلق غير مسند! وخفي عليه أن البخاري لقي من علَّقه عنه وسمع منه، وهو هشام بن عمار، وخفي عليه أن الحديث قد أسنده غيرُ واحد من أئمة الحديث غير هشام بن عمار، فأبطل سنة صحيحة ثابتة عن رسول الله ﷺ لا مطعن فيها بوجه[1].

وأما ما ذكرتم من مسألة التزام أدنى المفسدتين لدفع أعلاهما، فنحن لا

---

(١) الحديث الذي يشير إليه هو قوله ﷺ: «ليكونن من أمتي أقوام يستحلون الحرَ (أي الفرج) والحرير والخمر والمعازف، ولينزلنَّ أقوام إلى جنب علم (أي جبل) يروح عليهم بسارحة لهم، يأتيهم - يعني الفقير - لحاجة، فيقولوا: إرجع إلينا غداً، فيبيتهم الله تعالى، ويضع العلم، ويمسخ آخرين قردة وخنازير إلى يوم القيامة» رواه البخاري في الأشربة (١٠/ ٥١) من حديث أبي عامر أو أبي مالك الأشعري.

نكر هذه القاعدة بل هي من أصح قواعد الشريعة، ولكن الشأن في إدخال هذه الصورة فيها، بل نحاكمكم إلىٰ هذه القاعدة نفسها، فإن احتمال مفسدة ألم الحب مع غض البصر وعدم تقبيل المحبوب وضمه ونحو ذلك، أقل من مفسدة النظر والتقبيل، فإن هذه المفسدة تَجُرُّ إلىٰ هلاك القلب وفساد الدين، وغاية ما يقدر من مفسدة الإمساك عن ذلك، سقم الجسد أو الموت تفادياً عن التعرض للحرام، فأين إحدىٰ المفسدتين من الأخرىٰ؟ علىٰ أن النظر والقبلة والضم، لا يمنع السقم والموت الحاصل بسبب الحب، فإن العشق يزيد بذلك ولا يزول.

فما صبابَةُ مشتاقٍ على أَمل
من الوصال كمشتاقٍ بلا أمل

ولا ريب في أن محبة من له طمعٌ، أقوىٰ من محبة من يئس من محبوبه، ولهذا قال الشاعر:

وأبرحُ ما يكون الحبُّ يوماً
إذا دَنتِ الديارُ من الديار

فإن قيل: فقد أباح الله سبحانه للمضطر الميتة والدم ولحم الخنزير، وتناولُها في هذه الحال واجبٌ عليه. قال مسروق والإمام أحمد ـ رحمهما الله تعالىٰ ـ: من اضطر إلىٰ أكل الميتة فلم يأكل فمات، دخل النار، فغاية النظرة والقبلة والضمة أن تكون محرمة، فإذا اضطر العاشق إليها فإن لم تكن واجبة، فلا أقل من أن تكون مباحة! فهذا قياس واعتبار صحيح، وأين مفسدة موت العاشق إلىٰ مفسدة ضمه ولثمه؟!

فالجواب: أن هذا يتبين بذكر قاعدة، وهي أن الله سبحانه وتعالىٰ لم يجعل في العبد اضطراراً إلىٰ الجماع بحيث إن لم يفعله مات، بخلاف اضطراره إلىٰ الأكل والشرب واللباس، فإنه من قِوام البدن الذي إنْ لم يباشره هلك، ولهذا لم يبح من الوطء الحرام، ما أباح من تناول الغذاء والشراب المحرَّم، فإن هذا من قبيل الشهوة واللذة التي هي تتمةٌ وفَضْلة، ولهذا يمكن الإنسان أن يعيش طول عمره بغير تزوج وغير تَسَرٍّ، ولا يمكنه أن يعيش بغير طعام ولا شراب، ولهذا أمر النبي ﷺ الشباب أن يداووا هذه الشهوة بالصوم، وقال تعالىٰ عن عشاق المردان: ﴿**إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ**﴾(١) .

فأخبر أن الحامل علىٰ ذلك مجردُ الشهوة لا الحاجة، فضلاً عن الضرورة، والشهوة المجردة لا تلتحق بالضروريات ولا بالحاجات، والحِمْيةُ عنها خشية إفضائها إلىٰ مرض أصعب منها، جار مجرىٰ الحمية عن تناول ما يضر من الأطعمة والأشربة، وذلك لا تدعو الضرورةُ إلىٰ تناوله وإن كانت النفس قد تشتهيه، فالقبلةُ والنظر والضم ونحوها جار مجري تناول الفاكهة المضرة، والزُّفْرة المضرة للمحموم ومن به مرض يضره معه تناول ذلك، فإذا قال المريض: أنا إن لم أتناول ذلك وإلا خشيتُ الموت، لم يكن صادقاً في قوله، وإنما الحامل له علىٰ ذلك مجرد الشهوة، وربما زاد تناول ذلك في مرضه، فالطبيب الناصح لا يفسح له فيه، فكيف يفسح الشارع الحكيم الذي شريعتُه غايةُ طب القلوب والأديان، وبها تحفظ صحتها وتدفع موادُّها الفاسدة في تناول ما يزيد الداء ويقويه ويمده؟ هذا من المحال، بل الشريعة تأمر بالحمية عن أسباب هذا الداء، خوفاً من استحكامه وتولد داء آخر أصعبَ منه.

(١) الآية (٨١) سورة الأعراف، والآية (٥٥) سورة النمل وفيها (أئنكم).

وأما مسألة من خاف تشقق أُنثَيه، وأنه يباح له الوطء في رمضان، فهذا ليس على إطلاقه، بل إن أمكنه إخراج مائة بغير الوطء، لم يَجُزْ له الوطءُ بلا نزاع، وإن لم يمكنه ذلك إلا بالوطء المباح، فإنه يجري مجرى الإفطار لعذر المرض، ثم يقضي ذلك اليوم، والإفطار بالمرض لا يتوقَّف على خوف الهلاك، فكيف إذا خاف تلف عضو من أعضائه القاتلة، بل هذا نظير من اشتد عطشه وخاف إن لم يشرب أن يحدث له داءٌ من الأدواء، أو يتلف عضو من أعضائه، فإنه يجوز له الشرب ثم يقضي يوماً مكانه.

فإن قيل: فلو اتفق له ذلك، ولم يكن عنده إلا أجنبية، هل يباح له وطؤها لئلا تتلف أنثياه؟ قيل: لا يباح له ذلك، ولكن له أن يخرج ماءً باستمنائه، فإن تعذر عليه فهل يجوز له أن يمكنها من استخراج مائه بيدها؟ هذا فيه نظر، فإن أبيح جرى مجرى تطبيب المرأة الأجنبية للرجل، ومسِّها منه ما تدعو الحاجة إلى مسه. وكذلك تطبيب الرجل للمرأة الأجنبية ومَسُّه ما تدعو الحاجة إليه، والله أعلم.

وسئل الإمام أبو الفرج بن الجوزي ـ رحمه الله ـ بأبيات:

يا أيها العالمُ ماذا ترى
في عاشق ذاب من الوَجْد

من حب ظبيٍ أغيدٍ أهيف
سهل المُحْيا حسنِ القد

فهل ترى تقبيله جائزاً
في الفمِ والعينين والخد

من غـيـر مـا فُـحْش ولا ريبـةٍ

بـل بـعـنـاقٍ جـائـز الحـد

إِن كـنـتَ مـا تـفُـتـي فـإنـي إذاً

أصـيـح مـن وَجْـدي وأسـتـعـدى

فكتب ـ رحمه الله تعالىٰ ـ الجواب :

يـاذا الـذي ذاب مـن الـوَجْـد

وظـل فـي ضُـرٍّ وفـي جَـهْـد

إِسـمـع فـدتـك الـنـفـس مـن نـاصـحٍ

بـنـصـحـه يَـهْـدي إِلى الرشـد

لو صح مـنـك العـشقُ مـا جـئـتـني

تـسـألـني عنـه وتـسـتـعـدِي

فـالعـاشـقُ الصـادقُ في حـبـه

مـا بـالـه يـسـأل مـا عـنـدي

غَـيَّـبـه العـشقُ فـمـا إن يُـرى

يُـعـيـدُ في العـشـق ولا يُـبـدي

وكـلُّ مـا تـذكـر مـسـتـفـتـيـاً

حـرَّمـه الله عـلى العـبـد

إلا لمـــــا حـــــلَّــــلـــــه ربُّـــــنـــــا

في الـشـــــرع بـالإبـرام والـعَــــــقْـــــد

فَـــعَـــدِّ من طرق الـهــــوى مُـــعْـــرِضـــاً

وقـف بـبـــــاب الـواحـــــدِ الـفـــــرد

وسَـلْـه يَـشـــــفـــــيـك ولا يـبـــــتـلـي

قـلـبـك بـالـتـــــعـــــذيـب والـصَّـــــدِّ

وعِـفَّ فـي الـعـــــــشـق ولا تُـبْـــــــده

واصـــــبْـــــر وكـــــاتم غـــــايـةَ الجُـــــهْـــــد

فـــإن تَـمُـتْ مـــحـــتـــســـبـــاً صـــابـراً

تَـفُـــــــزْ غـــــــداً فـي جـنـة الخـلـد

الباب العاشر

في ذِكْر حقيقة العشق وأوْصافه وكلام الناس فيه

فالذي عليه الأطباء قاطبة أنه مرض وسواسي شبيه بالماليخوليا، يَجْلُبه المرء إلى نفسه بتسليط فكره على استحسان بعض الصور والشمائل، وسببه النفساني: الاستحسان والفكر، وسببه البدني ارتفاع بخار رديء إلى الدماغ عن مَنِيٍّ محتقن، ولذلك أكثر ما يعتري العُزاب، وكثرة الجماع تزيله بسرعة.

وقال بعض الفلاسفة: العشق طمعٌ يتولد في القلب ويتحرك وينمى، ثم يتربى ويجتمع إليه مواد من الحرص، وكلما قَوِي ازداد صاحبه في الاهتياج والقلق، ويكون احتراق الدم عند ذلك باستحالته إلى السوداء، والتهاب الصفراء وانقلابها إليها. ومن غلبة السوداء يحصلُ له فسادُ الفكر، ومع فساد الفكر يكون زوال العقل، ورجاء ما لا يكون، وتمني ما لا يتم، حتى يؤدي إلى الجنون، فحينئذ ربما قتل العاشقُ نفسَه، وربما مات غماً، وربما نظر إلى معشوقه فمات فرحاً، وربما شهق شهقة فتختنق رُوحُه فيبقى أربعة وعشرين ساعة فَيُظَن أنه قد مات، فيدفن وهو حي، وربما تنفس الصعداء فتختنق نفسه في تامور[1] قلبه، وينضم عليها القلبُ ولا ينفرج حتى يموت، وتراه إذا ذُكر له من يهواه هرب دمُه واستحال لونه.

وقال أفلاطون: العشق حركة النفس الفارغة. وقال أرسطاطاليس: العشق عمى الحس عن إدراك عيوب المحبوب.

ومن هذا أخذ جرير قوله:

---

(١) التامور: دم القلب، وقيل كل دم.

فلست براءٍ عيبَ ذي الودِّ كلَّه

ولا بعضَ ما فيه إذا كنتَ راضياً

فعينُ الرضى عن كلِّ عيب كَليلةٌ

ولكنَّ عينَ السُّخط تُبْدي المساويا

وقال أرسطو: العشق جهل عارض صادف قلباً فارغاً، لا شغل له من تجارة ولا صناعة. وقال غيره: هو سوء اختيار صادف نفساً فارغة.

قال قيس بن الملوح:

أتاني هواها قبل أن أعرفَ الهَوَى

فصادفَ قلباً خالياً فتمكَّنا(١)

وقال بعضهم: لم أر حقاً أشبه بباطل، ولا باطلاً أشبه بحق من العشق، هزله جد، وجده هزل، وأولُه لعب، وآخره عَطَب.

وقال الجاحظ: العشق اسم لما فَضَل عن المحبة، كما أن السَّرَف اسمٌ لما جاوز الجود، والبخلَ اسم لما جاوز الاقتصاد، فكل عشق يسمىٰ حباً، وليس كل حب يسمىٰ عشقاً، والمحبة جنس والعشق نوع منها. ألا ترىٰ أن كل محبةٍ شوقٌ، وليس كل شوق محبة؟

وقال أعرابي في وصفه: بالقلب وثبته، وبالفؤاد وجبته(٢)، وبالأحشاء

(١) فأما من كان قلبه ممتلئاً بالإيمان، والرغبة في العمل الصالح، والمحبة لما يحب الله تعالى ورسوله ﷺ من الطاعات، والاشتغال بها ليلاً ونهاراً وسراً وجهاراً . . . فلا يكون كذلك (م).

(٢) وجبته: خفقته واضطرابه.

ناره، وسائر الأعضاء خُدَّامه، فالقلبُ من العاشف ذاهلٌ، والدمعُ منه هامل[1] والجسم منه ناحل. مرور الليالي تجدده، وإساءة المحبوب لا تفسده.

وقيل: ليس هو موقوفاً على الحسن والجمال، وإنما هو تشاكل النفوس وتمازجها في الطباع المخلوقة فيها كما قيل:

وما الحبُّ من حُسْنٍ ولا من مَلاحة

ولكنه شيءٌ به الروُح تَكْلَف

وقيل: أول العشق عناء، وأوسطه سُقم، وآخره قتل.

---

(١) هملت العين: فاضت وسالت.

الباب الحادي عشر
في العشق هل هو اضطراري خارج عن الاختيار؟ أو أمر اختياري؟ واختلاف الناس في ذلك، وذكر الصواب فيه

فنقول: اختلف الناس في العشق هل هو اختياري أو أضطراري خارج عن مقدور البشر؟ فقالت فرقة: هو اضطراري وليس باختياري، قالوا: وهو بمنزلة محبة الضمآن للماء البارد، والجائع للطعام، وهذا مما لا يُمْلك.

قال بعضهم: والله لو كان لي من الأمر شيء ما عذبت عاشقاً، لأن ذنوب العشاق اضطرارية، فإذا كان هذا قوله فيما تولد عن العشق من فعل اختياري فما الظن بالعشق نفسه؟ وقال أبو محمد بن حزم: قال رجل لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: يا أمير المؤمنين، إني رأيت امرأة فعشقتها، فقال عمر: ذاك مما لا يملك.

وقال التميمي في كتاب امتزاج الأرواح: سئل بعض الأطباء عن العشق فقال: إن وقوعه بأهله ليس باختيار منهم، ولا بحرصهم عليه، ولا لذة لأكثرهم فيه، ولكن وقوعه بهم كوقوع العلل المُدْنفة. والأمراض المُتْلِفة، لا فرق بينه وبين ذلك.

ويدل على ذلك من السنة ما رواه البخاري في صحيحه: من قصة بريرة أن زوجها كان يمشي خلفها بعد فراقها له وقد صارت أجنبية منه، ودموعه تسيل على خديه، فقال النبي ﷺ: «يا عباسُ، ألا تَعْجبُ من حب مغيثٍ

بريرةَ، ومن بغض بريرة مغيثاً؟ ثم قال لها: لو راجَعتيه، فقالت: أَتأمُرُني؟ فقال إنما أنا شافعٌ، قالت: لا حاجةَ لي فيه»[1].

ولم يَنْهَه عن عشقها في هذه الحال، إذ ذلك شيء لا يُملك ولا يدخل تحت الاختيار.

قالوا: والعشق نوع من العذاب، والعاقل لا يختار عذاب نفسه.

وقال القاضي أبو عمر محمد بن أحمد النُّوقاتي في كتابه «محنة الظرّاف»: العشاق معذورون على الأحوال! إذ العشق إنما دهاهم عن غير اختيار، بل اعتراهم عن جبر واضطرار، والمرء إنما يلام على ما يستطيع من الأمور، لا على المقضي عليه والمقدور. فقد قيل: إن الحامل كانت ترى يوسف عليه الصلاة والسلام فتضع حملها، فكيف ترى هذه وضعته؟ أباختيار كان ذلك أم باضطرار؟ قال غيره: وهؤلاء النسوة قطعن أيديهن لما بدا لهن حسن يوسف عليه السلام، وما تمكن حبُّه من قلوبهن، فكيف لو شُغِفن حباً؟

فإذا كان هذا من مجرد الرؤية فكيف بالمحبة التي لا تملك؟

قالوا: وقد فسر كثير من السلف قوله تعالى: ﴿**رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ**﴾[2] بالعشق. وهذا لم يريدوا به التخصيص، وإنما أرادوا به التمثيل وأن العشق من تحميل ما لا يطاق. والمراد بالتحميل هاهنا التحميل القدري، لا الشرعي الأمري. قالوا: وقد رأينا جماعة من العشاق يطوفون على من يدعو

(١) رواه البخاري في كتاب الطلاق (٩/ ٤٠٨) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.
(٢) الآية (٢٨٦) آخر سورة البقرة.

لهم أن يعافيَهم الله من العشق، ولو كان اختياراً لأزالوه عن نفوسهم. ومن هاهنا يتبين خطأُ كثيرٍ من العاذلين، وعَذْلهم في هذه الحال بمنزلة عذل المريض في مرضة، قال:

يا عـــــاذلي والأمـــــرُ في يده
هلا عَـــــذَلْتَ وفي يدي الأمـــــرُ

وإنما ينبغي العذلُ قبل تعلق هذا الداء بالقلب.

وقالت فرقة أخرىٰ: بل اختياريٌّ تابع لهوىٰ النفس وإرادتها، بل هو استحكامُ الهوىٰ الذي مدح اللهُ مَنْ نَهىٰ عنه نفسه، فقال تعالىٰ: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ (٤١)﴾[١].

فمحال أن ينهىٰ الإنسان نفسه عما لا يدخل تحت قدرته.

قالوا: والعشق حركةٌ اختياريةٌ للنفس إلىٰ نحو محبوبها، وليس بمنزلة الحركات الاضطرارية التي لا تدخل تحت قدرة العبد. قالوا: وقد ذم الله سبحانه وتعالىٰ أصحابَ المحبة الفاسدة الذين يحبون من دونه أنداداً، ولو كانت المحبة اضطرارية لما ذموا علىٰ ذلك. قالوا: ولأن المحبةَ إرادةٌ قوية، والعبد يحمد ويذم علىٰ إرادته، ولهذا يُحمد مريدُ الخير وإن لم يفعله، ويذم مريد الشر وإن لم يفعله. وقد ذمَّ الله الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا، وأخبر أن لهم عذاباً أليماً[٢] ولو كانت المحبة لا تُملك لم يتوعدهم

(١) الآيتان (٤٠ و ٤١) سورة النازعات.

(٢) في قوله تعالى ﴿إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة﴾ (النور: ١٩).

بالعذاب على ما لا يدخل تحت قدرتهم. قالوا: والعقلاء قاطبة، مطبقون على لوم من يحب ما يتضرر بمحبته. وهذا فطرةٌ فَطَر الله عليها الخلق، فلو أعتذر بأني لا أملك قلبي، لم يقبلوا له عذراً.

فصل

وفصل النزاع بين الفريقين: أن مبادئ العشق وأسبابه اختياريةٌ داخلة تحت التكليف، فإن النظر والتفكر والتعرض للمحبة أمرٌ اختياري، فإذا أتى بالأسباب كان ترتب المسبب عليها بغير اختياره، كما قيل:

تَولَّعَ بالعِشقِ حتى عَشِق
فلما استقلَّ به لم يُطِق

رأى لجة ظنها موجةً
فلما تمكَّن منها غَرِق

تَمنَّى الإقالةَ من ذنبه
فلم يستطعها ولم يَسْتَطِق

وهذا بمنزلة السكر من شُرْب الخمر، فإن تناول المسكر اختياري وما يتولد عنه السكر اضطراري، فمتى كان السبب واقعاً باختياره، لم يكن معذوراً فيما تولّد عنه بغير اختياره، فمتى كان السبب محظوراً، لم يكن السكران معذوراً.

ولا ريب أن متابعة النظر، واستدامة الفكر، بمنزلة شرب المسكر، فهو

يلام على السبب، ولهذا إذا حصل العشق بسبب غير محظور لم يُلَم عليه صاحبه، كمن كان يعشق امرأته أو جاريته، ثم فارقها وبقى عشقُها غيرَ مفارق له، فهذا لا يلام على ذلك كما تقدم في قصة بريرة ومُغيث[1].

وكذلك إذا نظر نظرة فجأة ثم صرف بصره وقد تمكن العشق من قلبه بغير اختياره، على أنَّ عليه مدافعته وصرفه عن قلبه بضده، فإذا جاء أَمر يَغلبه فهناك لا يلام بعد بذل الجهد في دفعه.

ومما يبين ما قلناه: أن سكر العشق أعظم من سكر الخمر، كما قال الله تعالى عن عشاق الصور من قوم لوط: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧٢)﴾[2]. وإذا كان أدنى السُّكرين لا يعذر صاحبه إذا تعاطى أسبابه، فكيف يعذر صاحب السكر الأقوى مع تعاطي أسبابه؟ وإذ قد وصلنا إلى هذا الموضع، فلنذكر باباً في سكرة الحب وسببها.

---

(١) انظر الصفحة ١٢٥.

(٢) الآية (٧٢) سورة الحجر.

الباب الثاني عشر

في سكرة العشاق

ولابد قبل الخوض في ذلك، من بيان حقيقة السُّكْر وسببه وتولده، فنقول: السكر لذة يغيب معها العقل الذي يُعْلم به القولُ، ويحصل معه التمييز.

قال الله تعالىٰ: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾**(١) فجعل الغاية التي يزول بها حكم السكران: أن يعلم ما يقول، فمتىٰ لم يعلم ما يقول فهو في السكر، وإذا علم ما يقول خرج عن حكمه، وهذا هو حدُّ السكران عند جمهور أهل العلم.

قيل للإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالىٰ: بماذا يعلم أنه سكران؟ فقال: إذا لم يعرف ثوبه من ثوب غيره، ونعله من نعل غيره. ويُذْكر عن الشافعي رحمه الله تعالىٰ أنه قال: إذا اختلط كلامه المنظوم، وأفشىٰ سره المكتوم. وقال محمد بن داود الأصفهاني: إذا عزبت عنه الهموم، وباح بسره المكتوم.

فالسكر يجمع معنيين: وجود لذة، وعدم تمييز، والذي يقصد السكر قد يقصد أحدهما وقد يقصد كليهما، فإن النفس لها هوىٰ وشهوات تلتذ بإدراكها، والعلم بما في تلك اللذات من المفاسد العاجلة والآجلة يمنعها من تناولها، والعقل يأمرها بأن لا تفعل، فإذا زال العقلُ الآمر، والعلم الكاشف، انبسطت النفس في هواها، وصادفت مجالاً واسعاً.

---

(١) الآية (٤٢) سورة النساء.

وحرَّم الله سبحانه وتعالىٰ السُّكر لشيئين ذكرهما في كتابه، من قوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ (٩١)﴾(١).

فأخبر الله سبحانه أنه يوجب المفسدة الناشئة من النفس، بواسطة زوال العقل، ويمنع المصلحة التي لا تتم إلا بالعقل.

وقد يكون سببُ السكر ألماً، كما يكون لذة. قال الله تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (١) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ (٢)﴾(٢).

وقد يكون سببُه قوةَ الفرح بإدراك المحبوب بحيث يختلط كلامه، وتتغير أفعاله بحيث يزول عقلُه، وربما قتله الفرحُ بسبب طبيعي، وهو انبساط دم القلب انبساطاً خارجاً عن العادة، والدم حامل الحارِّ الغريزي فيبردُ القلبُ بسبب انبساط دمه، فيحدث الموت.

وقد جرىٰ هذا لأحمد بن طولون أمير مصر فإنه مر بصياد في يوم بارد وعنده بُنَيٌّ له، فرق عليهما، وأمر غلامه أن يدفع إليه ما معه من الذهب، فصبه في حجره ومضىٰ، فاشتد فرحه به فلم يحمل ما ورد عليه من الفرح، فقضىٰ مكانه، فعاد الأمير من شأنه فوجد الرجل ميتاً، والصبي يبكي عند رأسه فقال: من قتله؟ فقال: مر بنا رجل - لا جزاه الله خيراً - فصب في حجر أبي شيئاً فقتله مكانه، فقال الأمير: صدق نحن قتلناه. أتاه الغِنىٰ وهلة واحدة(٣) فعجز عن

(١) الآية (٩٤) سورة المائدة.

(٢) أول سورة الحج.

(٣) وهلة واحدة: أي دفعة واحدة.

احتماله فقتله، ولو أعطيناه ذلك بالتدريج لم يقتله، فحرض الصبي على أن يأخذ الذهب فأبى، وقال: والله لا أمسك شيئاً قتل أبي.

والمقصودُ أن السكر يوجب اللذة ويمنع العلم، فمنه السكر بالأطعمة والأشربة، فإن صاحبها يحصل له لذة وسرور بها يحمله على تناولها، لأنها تغيب عنه عقله فتغيب عنه الهموم والغموم والأحزان تلك الساعةَ، ولكن يغلط في ذلك فإنها لا تزول ولكن تتوارى، فإذا صحا عادت أعظمَ ما كانت وأوفره، فيدعوه عَوْدها إلى العَوْد، كما قال الشاعر:

وكأسٍ شَربتُ على لذَّةٍ
وأخرى تداويتُ منها بها

ومن الناس من يقصدُ بها منفعةَ البدن وهو غالط، فإنه يترتب عليها من المضرَّة المتولدة عن السكر ما هو أعظم من تلك المنفعة بكثير، واللذة الحاصلة بذكر الله والصلاة، عاجلاً وآجلاً، أعظمُ وأبقى، وأدفع للهموم والغموم والأحزان.

وتلك اللذة أجلبُ شيءٍ للهموم والغموم، عاجلاً وآجلاً، ففي لذة ذكر الله والإقبال عليه والصلاة، بالقلب والبدن، من المنفعة الشريفة العظيمة، السالمة عن المفاسد، الدافعة للمضار، غنى وعِوَضٌ، للإنسان الذي هو إنسان، عن تلك اللذة الناقصة القاصرة، المانعة لما هو أكملُ منها، الجالبة لألم أعظمَ منها.

فصل

ومن أسباب السكر حبُّ الصور، فإنه إذا استحكم الحب وقَوِي، أسكر المحب، وأشعارهم بذلك مشهورة كثيرة، ولاسيما إذا اتصل الجماع بذلك الحب، فإن صاحبه ينقص تمييزه أو يعدم في تلك الحالة، بحيث لا يميز، فإن انضاف إلىٰ ذلك السكر سكرُ الشراب، بحيث يجتمع عليه سكرُ الهوىٰ، وسكر الخمر، وسكر لذة الجماع، فذلك غاية السكر.

ومنه ما يكون سببه حب المال، والرئاسة، وقوة الغضب، فإن الغضب إذا قوي أوجب سكراً يقرب من سكر الخمر.

ويدخل ذلك في الإغلاق، الذي أبطل النبي ﷺ وقوع الطلاق فيه بقوله: «لا طلاقَ في إغْلاق»(١) رواه أبو داود، وقال: أظنه الغضب. وفسره الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالىٰ أيضاً: بالغضب.

ومما يدل علىٰ صحة ذلك قوله تعالىٰ: ﴿**وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ**﴾(٢) قال السلف في تفسيرها: هو الرجل يدعو علىٰ نفسه وأهله في وقت الغضب، من غير إرادة منه لذلك، فلو استجاب الله دعاءه لأهلكه وأهلك من دعا عليه، ولكن لرحمته لما علم أن الحامل له علىٰ ذلك سكرُ الغضب، لا يجيب دعاءه.

---

(١) حديث حسن، رواه أحمد (٦/ ٢٧٦) وأبو داود (٢١٩٣) وابن ماجه (٢٠٤٦) والحاكم (٢/ ١٩٨) وهو حديث حسن بطرقه، انظر نصب الراية (٣/ ٢٢٣) والإرواء (٢٠٤٧).
وللمصنف رسالة في هذه المسألة سماها: إغاثة اللهفان في حكم طلاق الغضبان.
(٢) الآية (١١) سورة يونس.

ومن هذا قولُ الواجد لراحلته بعد يأسه منها، وإيقانه بالهلاك: اللهم أنت عبدي وأنا ربك، قال رسول الله ﷺ: «أخطأ من شدة الفرح»[1] ولم يكن بذلك كافراً لعدم قصده. وذكر النبي ﷺ ذلك تحقيقاً لشدة الفرح، الذي أفضىٰ به إلىٰ ذلك.

وإنما كانت هذه الأشياء قد توجب السكَر، لأن السكر سببه ما يوجب اللذة القاهرة التي تغمر العقل، وسببُ اللذة إدراك المحبوب، فإذا كانت المحبة قوية، وإدراك المحبوب قوياً، والعقل ضعيفاً، حدث السكر، لكن ضعف العقل يكون تارة من ضعف المحبة، وتارة من قوة السبب الوارد، ولهذا يحصل من السكر للمبتدئين، في إدراك الرئاسة والمال والعشق والخمر، مالا يحصل لمن اعتاد ذلك وتمكَّن فيه.

فصل

ومن أقوىٰ أسباب السكر الموجبة له: سماعُ الأصوات المطربة من جهتين: من جهة أنها في نفسها توجب لذة قوية ينغمر معها العقل، ومن جهة أنها تحرك النفس إلىٰ نحو محبوبها كائناً ما كان، فيحصل بتلك الحركة الشوق والطلب مع التخيل للمحبوب، وإدناء صورته إلىٰ القلب واستيلائها علىٰ الفكرة لذة عظيمة تقهر العقل، فتجتمع لذة الألحان ولذة الأشجان، ولهذا يَقْرن المعنيُّون بهذه اللذات: سماع الألحان بالشراب كثيراً، ليكمُل لهم السكر بالشراب والعشق والصوت المُطْرِب، فيجدون من لذة الوصال وسكره في هذه الحال، ما لا يجدونه بدونها.

---

(١) من حديث رواه البخاري في الدعوات (١١/ ١٠٢) ومسلم في التوبة (٤/ ٢١٠٤ ـ ٢١٠٥) من حديث أنس رضي الله عنه.

فالخمرُ شرابُ النفوس، والألحان شراب الأرواح، ولاسيما إذا اقترن بها من الأقوال ما فيه ذكر المحبوب، ووصف حال المحب، على مقتضى الحال التي هو فيها، فيجتمع سماعُ الأصوات الطيبة، وإدراكُ المعاني المناسبة، وذلك أقوى بكثير من اللذة الحاصلة بكل واحد منها على انفراده، فتستولي اللذة على النفس والروح والبدن أتمَّ استيلاء، فيحدث غايةُ السكر. فكيف يدعي العذر من تعاطى هذه الأسباب ويقول: إن ما تولد عنها اضطراريٌ غير اختياري؟! وبالله التوفيق.

الباب الثالث عشر

في أن اللذةَ تابعةٌ للمحبة في الكمال والنقصان

كلما قويت المحبة قويت اللذة بإدراك المحبوب، وهذا الباب من أجل أبواب الكتاب وأنفعها. ونذكر فيه بيانَ معرفة اللذة وأقسامها ومراتبها فنقول: أما اللذة ففسِّرت بأنها إدراكُ الملائم كما أن الألم إدراك المنافي. قال شيخنا: والصواب أن يقال: إدراك الملائم سبب اللذة، وإدراك المنافي سببٌ الألم، فاللذة والألم ينشآن عن إدراك الملائم والمنافي، والإدراك سبب لهما، واللذة أظهر من كل ما تعرف به فإنها أمر وجداني، وإنما تعرف بأسبابها وأحكامها.

واللذةُ والبهجة والسرور وقرة العين وطيب النفس والنعيم، ألفاظٌ متقاربة المعنى، وهي أمرٌ مطلوب في الجملة، بل ذلك مقصود كل حي، وذلك أمر ضروري من وجوده، وذلك في المقاصد والغايات بمنزلة الحس والعلوم البديهية في المبادئ والمقدمات، فإنَّ كل حي له علمٌ وإحساس، وله عمل وإرادة، وعلم الإنسان لا يجوز أن يكون كله نظرياً استدلالياً لاستحالة الدور والتسلسل، بل لابد له من علم أوله بديهي يَبْدَهُ النفس ويبتدئ فيها، فلذلك يُسمىٰ بديهيَّاً وأولياً، وهو من نوع ما تضطر إليه النفس ويسمىٰ ضرورياً. فإن النفس تضطر إلىٰ العلم تارة، وإلىٰ العمل أخرىٰ، وكذلك العمل الاختياري المرادي له مرادٌ، فذلك المراد إما أن يراد لنفسه أو لشيء آخر، ولا يجوز أن يكون كل مراد مراداً لغيره، حذراً من الدور والتسلسل، فلابد من مراد مطلوب محبوب لنفسه، فإذا حصل المطلوب المراد المحبوب فاقتران اللذة والنعمة والفرح والسرور وقرة العين به، علىٰ قدر قوة محبته

وإرادته والرغبة فيه، وذلك أمرٌ ذَوقي وجدي، ولهذا يغلب على أهل الإرادة والعمل من السالكين اسم الذوق والوجد، لما في وجود المراد المطلوب من الذوق والوجد الموجب للفرح والسرور والنعيم.

فهاهنا ثلاثة أنواع من الأسماء متقاربة المعاني، أحدُها: الشهوةُ والإرادة والميل والطلب والمحبة والرغبة ونحوها، الثاني: الذوقُ والوَجد والوصول والظفر والإدراك والحصول والنيل ونحوها، الثالث: اللذةُ والفرح والنعيم والسرور وطيب النفس وقرة العين ونحوها، وهذه الأمور الثلاثة متلازمة.

فصل

وإذا كانت اللَّذةُ مطلوبةً لنفسها، فهي إنما تُذَم إذا أعقبت ألماً أعظم منها، أو مَنعت لذةً خيراً منها، وتُحمد إذا أعانت على اللذة الدائمة المستقرة، وهي لذة الدار الآخرة ونعيمها، الذي هو أفضل نعيم وأجله، كما قال الله تعالى: **﴿وَلا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٥٦) وَلَأَجْرُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٥٧)﴾**[(١)]، وقال تعالى: **﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ (٣٠)﴾**[(٢)]، وقال تعالى: **﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (١٦) وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى (١٧)﴾**[(٣)]، وقال تعالى: **﴿وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٦٤)﴾**[(٤)]، وقال العارفون بتفاوت ما بين الأمرين لفرعون، **﴿فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٧٢) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا**

---

(١) الآيتان (٥٦ و٥٧) سورة يوسف.

(١) الآية (٣٠) سورة النحل.

(٣) الآيتان (١٦ و١٧) سورة الأعلى.

(٤) الآية (٦٤) سورة العنكبوت.

﴿وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ (٧٣)﴾(١)، والله سبحانه وتعالىٰ إنما خلق الخلق لدار القرار، وجعل اللذة كلها بأسرها فيها، كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ﴾(٢)، وقال تعالىٰ: ﴿فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٧)﴾(٣).

وقال النبي ﷺ: «يقول الله تعالىٰ: أَعددتُ لعبادي الصالحين ما لا عَينٌ رأتْ، ولا أُذُنٌ سمعتْ، ولا خَطَرَ علىٰ قلب بشرٍ، بله ما اطَّلَعتُم»(٤).

أي: غير ما أُطْلعتم عليه، وهذا هو الذي قصده الناصح لقومه الشفيقُ عليهم، حيث قال: ﴿يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ (٣٨) يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ (٣٩)﴾(٥). فأخبرهم أن الدنيا متاع، يُتَمَتَّعُ بها إلىٰ غيرها، والآخرة هي المستقر والغاية.

فصل

وإذا عُرِفَ أن لذات الدنيا ونعيمها متاع ووسيلة إلىٰ لذات الدار الآخرة، ولذلك خُلقت، كما قال النبي ﷺ: «الدنيا متاعٌ، وخيرُ متاعِ الدنيا المرأة الصالحة»(٦)، فكل لذة أعانتْ علىٰ لذات الدار الآخرة فهي محبوبةٌ مرضية

---

(١) الآيتان (٧٢ و٧٣) سورة طه.

(٢) الآية (٧١) سورة الزخرف.

(٣) الآية (١٧) سورة السجدة.

(٤) رواه البخاري في بدء الخلق (٦/ ٣١٨) وفي التفسير (٨/ ٥١٥، ٥١٦) وفي التوحيد (١٣/ ٤٦٥) ومسلم واللفظ له في الجنة وصفة نعيمها (٤/ ٢١٧٤ ـ ٢١٧٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٥) الآيتان (٣٨ و٣٩) سورة المؤمن.

(٦) رواه مسلم في الرضاع (٢/ ١٠٩٠) من حديث ابن عمرو رضي الله عنهما.

للرب تعالىٰ، فصاحبها يلتذ بها من وجهين: من جهة تنعمه وقرة عينه بها، ومن جهة إيصالها له إلىٰ مرضاة ربه، وإفضائها إلىٰ لذة أكمل منها، فهذه هي اللذة التي ينبغي للعاقل أن يسعىٰ في تحصيلها، لا اللذة التي تعقبه غاية الألم وتفوت عليه أعظم اللذات، ولهذا يثاب المؤمن علىٰ كل ما يلتذ به من المباحات إذا قَصَد به الإعانةَ والتوصل إلىٰ لذة الآخرة ونعيمها، فلا نسبة بين لذة صاحب الزوجة أو الأمة الجميلة التي يحبها، وعينه قد قَّرتَ بها، فإنه إذا باشرها والتذَّ قلبه وبدنه ونفسه بوصالها، أثيب علىٰ تلك اللذة، في مقابلة عقوبة صاحب اللذة المحرمة علىٰ لذته، كما قال النبي ﷺ: «وفي بُضْع أحدِكم أجر» قالوا: يا رسول الله، أيأتي أحدُنا شَهوتَه ويكون له فيها أجر؟ قال: «أرأيتم لو وَضَعها في الحرام، أكان عليه وزر»؟ قالوا: نعم، قال: «فكذلك إذا وَضَعها في الحلال يكون له أجرٌ»(١).

واعلم أن هذه اللذةَ تتضاعف وتتزايد، بحسب ما عند العبد من الإقبال علىٰ الله، وإخلاصِ العمل له، والرغبة في الدار الآخرة، فإن الشهوة والإرادة المنقسمة في الصور اجتمعت له في صورة واحدة، والخوَف والهم والغم الذي في اللذة المحرمة معدومٌ في لذته، فإذا اتفق له مع هذا صورةٌ جميلة وُرزِق حبَّها، ورزقت حبه، وانصرفت دواعي شهوته إليها، وقصرت بصره عن النظر إلىٰ سواها، ونفسه عن التطلع إلىٰ غيرها، فلا مناسبة بين لذته ولذة صاحب الصورة المحرمة. وهذا أطيب نعيم ينال من الدنيا، وجعله النبي ﷺ ثالث ثلاثة بها ينال خير الدنيا والآخرة وهي: قلبٌ شاكر، ولسان ذاكر،

---

(١) رواه مسلم في الزكاة (٢/ ٦٩٧ ـ ٦٩٨) من حديث أبي ذر رضي الله عنه. والبضع: الجماع، أو الفرج نفسه، وعقد الزواج والطلاق، والمباضعة: المجامعة. (القاموس)

وزوجة حسناء إن نظر إليها سَرَّته، وإن غاب عنها حفظته في نفسها وماله، فالله المستعان.

وقال القاسم بن عبدالرحمن: كان عبدالله بن مسعود رضي الله عنه يقرأ القرآن فإذا فرغ قال: أين العزاب؟ فيقول: ادنوا مني ثم قولوا: اللهم ارزقني امرأة إذا نظرت إليها سرتني، وإذا أمرتها أطاعتني، وإذا غبت عنها حفظت غيبتي في نفسها ومالي.

والألم والحزنُ والهم والغم ينشأ من عدم العلم بالمحبوب النافع، أو من عدم إرادته وإيثاره مع العلم به، أو من عدم إدراكه والظفر به مع محبته وإرادته، وهذا من أعظم الألم. ولهذا يكون ألم الإنسان في البرزخ(١) وفي دار الحيوان(٢) بفوات محبوبه، أعظم من ألمه بفواته في الدنيا من ثلاثة أوجه، أحدها: معرفتُه هناك بكمال ما فاته ومقداره، الثاني: شدةُ حاجته إليه وشوقُ نفسه إليه، مع أنه قد حيل بينه وبينه، كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾(٣). الثالث: حصول ضده المؤلم له. فليتأمل العاقل هذا الموضع، ولينزل نفسه منزلة من قد فاته أعظم محبوب وأنفعه، وهو أفقرُ شيءٍ وأحوجه إليه فواتاً لا يرجىٰ تداركُه، وحصل علىٰ ضده، فيالها من مصيبة ما أوجعها، وحالة ما أفظعها، فأين هذه الحال، من حالة من يلتذ في الدنيا بكل ما يقصد به وجه الله سبحانه وتعالىٰ، من الأكل والشرب واللباس والنكاح، وشفاء الغيظ بقهر العدو وجهاد في سبيله؟ فضلاً عما يلتذ به من معرفة ربه

---

(١) البرزخ: الحاجز بين شيئين، وما بين الموت والبعث، فمن مات فقد دخل البرزخ. قال تعالى: ﴿ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون﴾ (المؤمنون: ١٠٠).

(٢) دار الحيوان: هي الدار الآخرة.

(٣) آخر آية من سورة سبأ.

وحبه له، وتوحيده، والإنابة إليه، والتوكل عليه، والإقبال عليه، وإخلاص العمل له، والرضا به وعنه، والتفويض إليه، وفرح القلب وسروره بقربه والأنس به، والشوق إلىٰ لقائه، كما في الحديث الذي صححه ابن حبان والحاكم: «وأسألك لذَّةَ النظرِ إلىٰ وجهك، والشوقَ إلىٰ لقائك»(١).

وهذه اللذةُ لا تزال في الدنيا في زيادة، مع تنقيصها بالعدو الباطن من الشيطان، والهوىٰ والنفس، والدنيا والعدو الظاهر، فكيف إذا تجردت الروح، وفارقت دار الأحزان والآفات، واتصلت بالرفيق الأعلىٰ ﴿مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا (٦٩) ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا (٧٠)﴾(٢). فإذا أفضىٰ إلىٰ دار النعيم، فهنالك من أنواع اللذة والبهجة والسرور، ما لا عينٌ رأت ولا أذن سمعت ولا خطر علىٰ قلب بشر، فبؤساً وتَعْساً للنفوس الوضيعة الدنيئة، التي لا يَهزُّها الشوقُ إلىٰ ذلك طرباً، ولا تتَّقد نار إرادتها لذلك رغباً، ولا تعبد عما يصد عن ذلك رهباً، فبصائرها كما قيل:

خفافيش أَعْشَاها النهارُ بضوئه

ولاءَمَها قِطْعٌ من الليل مظلم(٣)

تجول حول الحُش، إذا جالت النفوسُ العلوية حول العرش، وتندس في الأحجار، إذا طارت النفوس الزكية إلىٰ أعلىٰ الأوكار.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) الآيتان (٦٩ و٧٠) سورة النساء.

(٣) الخفاش: الوطواط يبصر في الليل ويعمى في النهار، والجمع خفافيش. ولاءمها: وافقها. والقطع بالكسر: ظلمة آخر الليل أو القطعة منه.

فلم تَرَ أمثالَ الرجال تفاوتوا
إلى الفضل حتى عُدَّ ألفٌ بواحد

فصل

ولكل لذة أعقبت ألماً، أو منعت لذة أكمل منها، فليست بلذةٍ في الحقيقة، وإن غالطت النفس في الالتذاذ بها، فأي لذةٍ لآكل طعام شهي مسموم يُقَطِّع أمعاءه عن قريب؟ وهذه هي لذاتُ الكفارِ والفساق بعلوهم في الأرض وفسادهم وفرحهم فيها بغير الحق ومرحهم. وذلك مثل لذَّة الذين اتخذوا من دون الله أولياء يحبونهم كحب الله، فنالوا بهم مَودةَ بينهم في الحياة الدنيا، ثم استحالت تلك اللذة أعظمَ ألمٍ وأمرَّه. ومن ذلك لذةُ العقائد الفاسدة والفرح بها، ولذةُ غلبة أهل الجور والظلم والعدوان والزنى والسرقة وشرب المسكرات. وقد أخبر الله سبحانه وتعالى أنه لم يُمكِّنهم من ذلك لخير يريده بهم، إنما هو استدراج منه لينيلهم به أعظم الألم، قال الله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ (٥٥) نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لاَّ يَشْعُرُونَ (٥٦)﴾[١] وقال تعالى: ﴿فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (٥٥)﴾[٢].

فصل

وأما اللذة التي لا تُعْقب ألماً في دار القرار، ولا توصل إلى لذة هناك، فهي لذةٌ باطلة، إذ لا منفعة فيها ولا مضرة، وزمنها يسير ليس لتمتع النفس

(١) الآيتان: (٥٥ و٥٦) سورة المؤمنون.
(٢) الآية (٥٥) سورة التوبة.

بها قدر، وهي لابد أن تشغلَ عما هو خيرٌ وأنفع منها، في العاجلة والآجلة، وإن لم تشغل عن أصل اللذة في الآخرة، وهذا القسم هو الذي عناه النبي ﷺ بقوله: «كلُّ لهوٍ يَلهو به الرجلُ فهو باطلٌ، إلا رمْيَه بقوسهِ، وتأديبهَ فَرَسه، وملاعبته أهلهِ، فإنهنَّ من الحق» (رواه مُسلم)(1)!

ولهذا كانت لذة اللعب بالدف في العرس جائزة فإنها تُعين على النكاح، كما تعين لذة الرمي بالقوس وتأديب الفرس على الجهاد، وكلاهما محبوبٌ لله. فما أعان على حصول محبوبه فهو من الحق، ولهذا عدَّ ملاعبة الرجل امرأته من الحق، لإعانتها على مقاصد النكاح الذي يحبه الله سبحانه وتعالى، وما لم يعن على محبوب الرب تعالى فهو باطل لافائدة فيه، ولكن إذا لم يكن فيه مضرة راجحة لم يحرم ولم ينه عنه، ولكن إذا صَدَّ عن ذكر الله وعن الصلاة صار مكروهاً بغيضاً للرب عز وجل مقيتاً عنده، إما بأصله وإما بالتجاوز فيه. وكلُّ ما صدَّ عن اللذة المطلوبة فهو وبالٌ على صاحبه، فإنه لو اشتغل حين مباشرته له بما ينفعه، ويَجْلِب له اللذة المطلوبة الباقية، لكان خيراً له وأنفع.

ولما كانت النفوس الضعيفة ـ كنفوس النساء والصبيان ـ لا تنقاد إلى أسباب اللذة العظمى إلا بإعطائها شيئاً من لذة اللهو واللعب، بحيث لو فُطِمت عنه

---

(1) الحديث غير موجود في مسلم! بل رواه أحمد (4/ 144، 146، 148) وأبو داود (2513) والترمذي (1637) والنسائي (6/ 222 ـ 223) وابن ماجة (2811) وغيرهم من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه.

وله شواهد من حديث كعب بن مرة، وعمرو بن عبسة، وعبدالله بن عمرو، رضي الله عنهم، وانظر الصحيحة (315).

كل الفطام طلبت ما هو شرٌ لها منه، رخَّص لها من ذلك فيما لم يرخص فيه لغيرها.

فأخبر أن ذلك باطلٌ، ولم يمنعهن منه لما يترتب لهن عليه من المصلحة الراجحة، ويَتْرُكن به مفسدة أرجحَ من مفسدته، وأيضاً فيحصلُ لهم من التألمُّ بتركه مفسدة هي أعظم من مفسدته، فتمكينهم من ذلك من باب الرحمة والشفقة والإحسان، كما مكن النبي ﷺ أبا عمير من اللعب بالعصفور بحضرته[١]، ومكن الجاريتين من الغناء بحضرته[٢].

ومكن عائشة رضي الله عنها من النظر إلىٰ الحبشة وهم يلعبون في المسجد[٣].

ومكَّن تلك المرأة أن تضرب علىٰ رأسه بالدُّف[٤] ونظائر ذلك.

فأين هذا من اتخاذ الشيوخ المشار إليهم، المقتدىٰ بهم، ذلك ديناً وطريقاً، مع التوسُّع فيه غاية التوسع بما لا ريب في تحريمه؟ ونظير هذا إعطاء النبي ﷺ المؤلفة قلوبهم من الزكاة والغنيمة، لضعف قلوبهم عن قلوب الراسخين في الإيمان من أصحابه، ولهذا أعطىٰ هؤلاء ومنع هؤلاء، وقال: أَكِلُهم إلىٰ ما

---

(١) رواه البخاري في الأدب (١٠/ ٥٨٢) ومسلم في الآداب (٣/ ١٦٩٣) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري في العيدين (٢/ ٤٧٤) ومسلم في العيدين (٢/ ٦٠٧) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣) المصدرين السابقين.

(٤) حديث حسن، تفرد به أبو داود (٣٣١٢) من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، وسنده حسن. وروى أحمد (٥/ ٣٥٣، ٣٥٦) والترمذي (٣٦٩٠) نحوه من حديث عبدالله ابن بريدة عن أبيه. وإسناده صحيح.

جعل الله في قلوبهم من الغَنَاء والخير. ونظير هذا مزاحُه ﷺ مع من كان يمزح معه من الأعراب والصبيان والنساء تطيباً لقلوبهم، واستجلاباً لإيمانهم، وتفريحاً لهم.

وفي مراسيل الشعبي: أن النبي ﷺ مرَّ على أصحاب الدِّركلَة فقال: «خذوا يا بني أرفدة، حتى تعلمَ اليهودُ والنصارى أن في ديننا فُسْحة» ذكره أبو عبيد[1] وقال: الدركلة: لعبة العجم.

فالنبي ﷺ يبذل للنفوس من الأموال والمنافع، ما يتألفها به على الحق المأمور به، ويكون المبذول مما يلتذُّ به الآخذ ويحبه، لأن ذلك وسيلة إلى غيره، ولا يفعل ذلك مع من لا يحتاج إليه كالمهاجرين والأنصار، بل يبذل لهم أنواعاً أُخر من الإحسان إليهم، والمنافع في دينهم ودنياهم. ولما كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه ممن لا يحب هذا الباطل ولا سماعه، ولا يحتاج أن يُتَألف بما يتألف به غيرُه، وليس مأموراً بما أُمر به النبي ﷺ من التأليف على الإيمان به، وطاعته بكل طريق - كان إعراضُه عنه كمالاً بالنسبة إليه، وحالُ النبي ﷺ أكمل.

فصل

إذا عرف هذا فأقسام اللذات ثلاثةٌ: لذةٌ جثمانية، ولذة خيالية وهمية، ولذة عقلية روحانية.

---

(١) الحديث صحيح، أخرجه أبو عبيد في «غريب الحديث» (٢/ ٢٢٠) وعنه الحارث بن أبي أسامة (٨٦٦) وهو مرسل ضعيف، فيه: عبدالرحمن بن اسحاق الواسطي، ضعيف، لكن قد صح من وجه آخر موصولاً: رواه أحمد (٦/ ١١٦، ٢٣٣). وانظر الصحيحة (١٨٢٩).
فائدة: قال أبو عبيد بعد الحديث: والذي يراد من هذا الحديث النظر إلى اللهو، وليس في هذا حجة للنظر إلى الملاهي المنهي عنها، من المزاهر والمزامير، إنما هذه لعبة للعجم.

فاللذة الجثمانية لذة الأكل والشرب والجماع، وهذه اللذة يشترك فيها مع الإنسان الحيوانُ البهيم، فليس كمالُ الإنسان بهذه اللذة لمشاركة أنقص الحيوانات له فيها، ولأنها لو كانت كمالاً، لكان أفضلُ الإنسان وأشرفهم وأكملهم: أكثرهم أكلاً وشرباً وجماعاً، وأيضاً لو كانت كمالاً، لكان نصيب رسل الله وأنبيائه وأوليائه منها في هذه الدار أكمل من نصيب أعدائه. فلما كان الأمرُ بالضد، تبين أنها ليست في نفسها كمالاً، وإنما تكون كمالاً، إذا تضمنت إعانة على اللذة الدائمة العظمى، كما تقدم.

فصل

وأما اللذة الوهميةُ الخيالية: فلذة الرئاسة، والتعاظم على الخلق، والفخر والاستطالة عليهم.

وهذه اللذة وإن كان طلابُها أشرفَ نفوساً من طلاب اللذة الأولى، فإن آلامها وما توجبه من المفاسد والمضار أعظم من التذاذ النفس بها، فإن صاحبها منتصب لمعاداة كل من تعاظم وترأس عليه. ولهذا شروطٌ وحقوقٌ تفوِّت على صاحبها كثيراً من لذاته الحسية، ولا يتم إلا بتحمل مشاقَّ وآلام أعظم منها. فليست هذه في الحقيقة بلذة وإن فرحت بها النفسُ وسُرَّت بحصولها.

وقد قيل: إنه لا حقيقة للذة في الدنيا وإنما غايتُها دفعُ آلامٍ كما يُدفع ألم الجوع والعطش وألمُ الشهوة بالأكل والشرب والجماع. ولذلك يدفع ألم الخمول وسقوط القدر عند الناس بالرئاسة والجاه.

والتحقيق أن اللذة أمرٌ وجودي، يستلزم دفع الألم بما بينهما من التضاد.

فصل

وأما اللذةُ العقلية الروحانية: فهي كلذة المعرفة والعلم، والاتصاف بصفات الكمال، من الكرم والجود والعفة والشجاعة والصبر والحلم والمروءة وغيرها، فإن الالتذاذ بذلك من أعظم اللذات، وهو لذةُ النفس الفاضلة العُلوية الشريفة، فإذا انضمت اللذة بذلك إلىٰ لذة معرفة الله تعالىٰ ومحبته، وعبادته وحده لا شريك له، والرضا به عوضاً عن كل شيء، ولا يُتَعوّض بغيره عنه فصاحب هذه اللذة في جنة عاجلة، نسبتُها إلىٰ لذات الدنيا، كنسبة لذة الجنة إلىٰ لذة الدنيا، فإنه ليس للقلب والروح ألذُّ ولا أطيبُ ولا أحلىٰ ولا أنعم من محبة الله، والإقبال عليه، وعبادته وحده، وقرة العين به والأنس بقربه، والشوق إلىٰ لقائه ورؤيته، وإن مثقال ذرة من هذه اللذة لا يُعْدَل بأمثال الجبال من لذات الدنيا.

ولذلك كان مثقالُ ذرةٍ من إيمان بالله ورسوله، يخلص من الخلود في دار الآلام، فكيف بالإيمان الذي يمنع دخولَها؟ قال بعض العارفين: مَن قرَّت عينه بالله قرت به كل عين، ومن لم تقر عينه بالله تقطعت نفسه علىٰ الدنيا حسرات، ويكفي في فضل هذه اللذة وشرفها، أنها تُخْرج من القلب ألمَ الحسرة علىٰ ما يفوت من هذه الدنيا، حتىٰ إنه ليتألم بأعظم ما يلتذ به أهلها، ويفرُّ منه فرارهم من المؤلم. وهذا موضعٌ الحاكم فيه: الذوقُ، لا مجردُ لسان العلم.

وكان بعض العارفين يقول: مساكين أهلُ الدنيا خرجوا من الدنيا ولم يذوقوا طيب نعيمها، فيقال له: وما هو؟ فيقول: محبةُ الله، والأنسُ به، والشوق إلىٰ لقائه، ومعرفة أسمائه وصفاته.

وقال آخر: أطيبَ ما في الدنيا معرفتُه ومحبته، وألذُّ ما في الآخرة رؤيتُه وسماع كلامه بلا واسطة.

وقال آخر: والله إنه ليمُرُّ بالقلب أوقات أقول فيها: إن كان أهل الجنة في مثل هذه الحال، إنهم لفي عيشٍ طيب. وأنت ترىٰ محبةَ مَن في محبته عذاب القلب والروح، كيف توجب لصاحبها لذة يتمنىٰ أنه لا يفارقه حبه.

قالت رابعة: شغلوا قلوبهم بحب الدنيا عن الله، ولو تركوها لجالت في الملكوت ثم رجعت إليهم بطرائف الفوائد. وقال سَلم الخوّاص: تركتموه وأقبل بعضكم علىٰ بعض، ولو أقبلتم عليه لرأيتم العجائب. وقالت امرأة من العابدات: لو طالعت قلوب المؤمنين بفكرها، ما ذُخرلها في حُجُب الغيوب من خير الآخرة، لم يصف لها في الدنيا عيش، ولم تقر لها في الدنيا عين.

وقال بعض المحبين: إن حبه عز وجل شَغَل قلوب محبيه عن التلذذ بمحبة غيره، فليس لهم في الدنيا مع حبه عز وجل لذة تداني محبته، ولا يُؤمِّلون في الآخرة من كرامة الثواب أكبر عندهم من النظر إلىٰ وجه محبوبهم.

وقال بعض السلف: ما من عبدٍ إلا وله عينان في وجهه يبصر بهما أمر الدنيا، وعينان في قلبه يبصر بهما أمر الآخرة، فإذا أراد الله بعبد خيراً فتح عينيه اللتين في قلبه، فأبصر بهما من اللذة والنعيم، ما لا خطر له مما وَعَد به من لا أصدقُ منه حديثاً، وإذا أراد به غير ذلك، تركه علىٰ ما هو عليه، ثم قرأ: ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٤﴾﴾[1].

ولو لم يكن للقلب المشتغل بمحبة غير الله، المعرض عن ذكره من العقوبة إلا صدؤه وقسوته، وتعطيله عما خلق له لكفىٰ بذلك عقوبة.

---

(١) الآية: (٢٤) سورة محمد.

وقال بعض العارفين: إن الحديد إذا لم يستعمل، غَشِيه الصدأُ حتىٰ يفسده، كذلك القلب إذا عُطِّل من حب الله والشوق إليه وذكره، غَلَبه الجهل حتىٰ يميته ويُهلكه. وقال رجل للحسن: يا أبا سعيد أشكو إليك قسوة قلبي، قال: أَذِبْه بالذكر. وأبعد القلوب من الله: القلب القاسي، ولا يذهب قساوته إلا حبٌّ مقلق، أو خوفٌ مزعج.

فإن قيل: ما السبب الذي لأجله يلتذ المحب بحبه، وإن لم يظفر بحبيبه؟ قيل: الحب يوجب حركةَ النفس وشدَةَ طلبها، والنفس خلقت متحركة بالطبع كحركة النار، فالحب حركتها الطبيعية، فكل من أحب شيئاً من الأشياء وجد في حبه لذة وروحاً، فإذا خلا عن الحب مطلقاً، تعطَّلت النفسُ عن حركتها، وثَقُلت وكَسِلت وفارقها خفة النشاط.

ولهذا تجد الكسالىٰ أكثر الناس هماً وغماً وحزناً، ليس لهم فرح ولا سرور، بخلاف أرباب النشاط والجِد في العمل، أيِّ عملٍ كان، فإن كان النشاط في عمل هم عالمون بحسن عواقبه وحلاوة غايته، كان التذاذهم بحبه ونشاطهم فيه أقوىٰ، وبالله التوفيق.

الباب الرابع عشر
فيمن مَدَح العشقَ وتمنَّاه
وغبط صاحبه على ما أوتيه من مُنَاه

هذا موضعٌ انقسم الناس فيه قسمين، وربما كان الشخص الواحد فيه مجموع الحالتين: فقسم مدحوا العشق وتمنوه ورغبوا فيه، وزعموا أن من لم يذق طعمه لم يذق طعم العيش. قالوا: وقد تبين أن كمال اللذة تابعٌ لكمال الحب فأعظم الناس لذة بالشيء أكثرُهم محبة له، وقد تقدم تقريره.

قالوا: وقد حبَّب الله سبحانه وتعالىٰ إلىٰ رسله وأنبيائه نساءهم وسراريهم، فكان آدم أبو البشر شديدَ المحبة لحواء، وقد أخبر الله سبحانه وتعالىٰ أنه خلق زوجته منه ليسكن إليها. قالوا: وحبه لها هو الذي حمله علىٰ موافقتها في الأكل من الشجرة. قالوا: وأولُ حبٍّ كان في هذا العالم حبُ آدمَ لحواءَ وصار ذلك سنة في ولده في المحبة بين الزوجين. قالوا: وهذا داود من محبته للنساء جمع بين مائة امرأة. وكذلك ابنه سليمان. قالوا: وقد عاب اليهودُ ـ عليهم لعائن الله ـ رسول الله ﷺ محبة النساء وكثرة تزوُّجه، فأنزل الله سبحانه وتعالىٰ ذباً عن رسوله ﷺ وإخباراً بأن ذلك من فضله وإنعامه عليه: ﴿**أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا** (٥٤)﴾[1]. قالوا: وقد كان عند إبراهيم خليل الرحمن أجمل النساء: سارة، ثم تسرَّىٰ بهاجر وكانت المحبة لها.

---

(١) الآية (٥٣) سورة النساء.

وقد ثبت في الصحيح : من حديث الشعبي عن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال : بعثني رسول الله ﷺ على جيش وفيهم أبو بكر وعمر رضي الله عنهما ، فلما رجعت قلت : يا رسول الله ، من أحبُّ الناس إليك؟ قال : «وما تريد؟» قلت : أحب أن أعلم . قال : «عائشة» ، قلت : إنما أعني من الرجال ، قال : «أبوها»[١] .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : أَرسل أزواجُ النبي ﷺ فاطمة بنت النبي ﷺ إليه ، فدخلت وهو مضطجع معي في مِرْطي[٢]، فقالت : يا رسول الله ، إن أزواجك يسألنك العدلَ في ابنة أبي قحافة ، وأنا ساكتة ، فقال لها رسول الله ﷺ: «ألست تُحبينَ ما أُحبُّ»؟ قالت : بلى ، قال : «فأَحبِّي هذه»[٣] .

وثبت في الصحيح : عن عبدالله بن يزيد عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان رسول الله ﷺ يقسم بين نسائه فيعدل ويقول : «اللهم هذا فِعْلي فيما أملكُ ، فلا تَلُمْني فيما تملكُ ولا أَملك»[٤] .

يريد ﷺ أنه يطيق العدل بينهن في النفقة عليهن ، والقسم بينهن ، وأما التسوية بينهن في المحبة فليست إليه ولا يملكها .

---

(١) رواه البخاري في فضائل الصحابة (٧/ ١٨) وفي المغازي (٨/ ٧٤) ومسلم في فضائل الصحابة (٤/ ١٨٥٦)

(٢) المرط : كساء من خز أو صوف أو كتان ، يؤتزر به وتتلفع به المرأة ، وجمعه مروط .

(٣) رواه مسلم في فضائل الصحابة (٤/ ١٨٩١) .

(٤) الحديث ليس في الصحيح ! بل رواه أحمد (٦/ ١٤٤) وأبو داود (٢١٣٤) والترمذي (١١٤٠) والنسائي (٧/ ٦٤) وابن ماجه (١٩٧١) وصححه ابن حبان (٤٢٠٥) ورجاله ثقات على شرط مسلم ، وأعل بالارسال ، انظر الارواء (٢٠١٨) .

وقال ابن سيرين: سألت عَبيدة[1] عن قوله تعالىٰ: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾[2] فقال: يعني الحبَّ والجماع.

وقال ابن عباس: لا يستطيع أن يعدل بينهن في الشهوة ولو حرص.

وقال بيان الشعبي: أتاني رجل فقال: كل أمهات المؤمنين أُحب إلا عائشة! فقلت: أما أنت فقد خالفت رسول الله ﷺ! كانت عائشة رضي الله عنها أحبهن إلىٰ قلبه.

وقال مصعب بن سعد: فرض عمر بن الخطاب رضي الله عنه لأمهات المؤمنين رضي الله عنهن عشرة آلاف عشرة آلاف، وزدا عائشة ألفين، وقال: إنها حبيبة رسول الله ﷺ.

وكان مسروق إذا حدث عن عائشة رضي الله عنها يقول: حدثتني الصِّدِّيقةُ بنت الصدِّيق حبيبةُ رسول رب العالمين المُبرَّأة من فوق سبع سموات.

قال أبو محمد بن حزم: وقد أحب من الخلفاء الراشدين والأئمة المهديين كثير.

قال الخرائطي: واشترىٰ عبدالله بن عمر جارية رومية فكان يحبها حباً شديداً، فوقعت ذات يوم عن بغلة له فجعل يمسح التراب عن وجهها ويفديها. وكانت تقول له: أنت قالون، تعني جيد، ثم إنها هربت منه فَوَجد عليها وجداً شديداً وقال:

قد كنت أحسِبُني قالون فانصرفتْ

فاليوم أعلمُ أني غيرُ قالون

---

(١) هو عبيدة السلماني، كما جاء في تفسير القرطبي.

(٢) الآية (١٢٩) سورة النساء.

وقصةُ مغيثٍ وعشقِه بَريرةَ، حتىٰ إنه كان يطوف وراءها ودموعُه تسيل علىٰ خديه، في الصحيح.[1]

قالوا: والعشقُ المباح مما يؤجر عليه العاشق، كما قال شريك بن عبدالله ـ وقد سئل عن العشاق ـ فقال: أشدهم حباً أعظمهم أجراً. وصدق والله، إذا كان المعشوق ممن يحب اللهُ للعاشق قربَه ووصله. وقالت امرأة:

لن يقبلَ اللّه من معشوقةٍ عملاً
يوماً وعاشقُها لَهْفانُ مهجور
ليست بمأجورةٍ في قتل عاشقها
لكن عاشقَها في ذاك مأجور

ونحن نقول: متىٰ باتت مهاجرةً لفراش عاشقها، الذي هو بعلها، لعنتها الملائكة حتىٰ تصبح. قالوا: والعشقُ يصفي العقل، ويُذهب الهم، ويبعث علىٰ حسن اللباس، وطيب المطعم، ومكارم الأخلاق، ويعلي الهمة، ويحمل علىٰ طيب الرائحة، وكرم العشرة، وحفظ الأدب والمروءة، وهو بلاء الصالحين ومحنة العابدين، وهو ميزان العقول وجلاء الأذهان، وهو خلق الكرام!

كما قيل:

وما أحببتُها فُحشاً ولكن
رأيتُ الحبَّ أخلاقَ الكرام

---

(١) تقدمت هذه القصة في الصفحة (١٢٥).

قالوا: وأرواح العشاق عَطرةٌ لطيفة، وأبدانهم رقيقة ضعيفة، وأزواجهم بطيئةُ الانقياد لمن قادها، حاشا سكنها الذي سَكَنت إليه، وعقدت حبَّها عليه. وكلامهم ومنادمتهم تزيد في العقول، وتحرك النفوس، وتطرب الأرواح، وتلهو بأخبارهم أولو الألباب.

فأحاديث العشاق زينة مجالسهم، وروح محادثتهم، ويكفي أن يكون الأعرابي الذي لا يُذْكر مع الملوك، ولا مع الشجعان الأبطال، يعشق ويشتهر بالعشق فَيُذكر في مجالس الملوك والخلفاء ومَن دونهم، وتدون أخباره وتروىٰ أشعاره، ويُبقي له العشق ذكراً مخلَّداً، ولولا العشقُ لم يُذكر له اسم، ولم يرفع له رأس!

وقال بعض العقلاء: العشقُ للأرواح بمنزلة الغذاء للأبدان، إنْ تركته ضرك، وإن أكثرتَ منه قتلك.

وقال أعرابي: هو أنيسُ النفس، ومحادث العقل، تُجِنُّه الضمائر، وتخدمه الجوارح. وقال عبدالله بن طاهر أمير خراسان لولده: اعشقوا تَظْرُفُوا، وعفُّوا تشرُفُوا. وقال قدامة: وصفه بعض البلغاء فقال: يشجع الجبان، ويُسخّي البخيل، ويُصفي ذهن البليد، ويفصح لسان العيِّ، ويبعث حزم العاجز، ويذل له عزُّ الملوك، وتصدع له صولة[1] الشجاع، وهو داعية الأدب، وأول باب تفتق به الأذهان والفطن، وتستخرج به دقائقُ المكايد والحيل، وإليه تستروح الهمم، وتسكن نوافر الأخلاق والشيم، يُمتع جليسه، ويؤنس أليفه، وله سرور يجول في النفوس، وفرح يسكن في القلوب.

---

(١) الصولة: السطوة في الحرب ونحوها، ويقال: هو ذو صولة: مقدام.

وقال العباس بن الأحنف:

وما الناسُ إلا العاشقون ذوو الهوى
ولا خيرَ فيمن لا يُحب ويَعْشقُ

وقال آخر:

وما طابت الدنيا بغير محبة
أيُّ نعيم لِامرئٌ غيرِ عاشق

وقال آخر:

إذا أنت لم تعشق ولم تَدْرِ ما الهوى
فأنتَ وعَيْرٌ في الفلاةِ سواء

وقال آخر:

إذا أنت لم تعشق ولم تَدْرِ ما الهوى
فكن حَجَراً من يابس الصخر جَلْمدا

وقال الأقرع بن معاذ:

ولا خيرَ في الدنيا إذا أنت لم تَزُر
حبيباً ولا وَافَى إليك حبيبُ

وقال علي بن عبدة: لا يخلو أحد من صبوة إلا أن يكون جافيَ الخِلْقة، ناقصاً أو منقوصَ الهمّة، أو على خلاف تركيب الاعتدال.

قالوا: ولا يكمُل أحدٌ قط إلا من عِشْقه لأهل الكمال وتشَّبهَ بهم. فالعالم يبلغ في العلم بحسب عشقه له، وكذلك صاحبُ كل صناعة وحرفة. ويكفي أن العاشق يرتاح لكريم الأخلاق والأفعال والشيم، لتحمد شمائله عند معشوقه كما قال:

ويرتاح للمعروف في طلب العُلى

لتُحْمَدَ يوماً عند ليلى شمائلُه[1]

قالت هذه الفرقة، وغايةُ ما يُقدَّر في أمر العشق أنه يقتل صاحبه كما هو معروف عند جماعة من العشاق. وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ أنه قال: «من عشق فكتم وعف وصبر فمات، فهو شهيد»[2].

قلت: وهذا حديثٌ باطل على رسول الله ﷺ قطعاً، لا يُشْبه كلامه، وقد صح أنه عدَّ الشهداء ستاً[3] فلم يذكر فيهم قتيل العشق شهيداً، ولا يمكن أنْ يكون كلُّ قتيل بالعشق شهيداً، فإنه قد يعشق عشقاً يستحق عليه العقوبة.

وقد أنكر حفاظ الإسلام هذا الحديث على سويد[4] وقد تكلم الناس فيه.

---

(١) الشمائل جمع شمال: وهي الأخلاق والطباع.

(٢) ضعيف جداً، رواه الخطيب في تاريخه (٥/ ١٥٦، ٢٦٢) (٦/ ٥١) (١١/ ٢٩٧) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

وفيه ضعيفان: أبو يحيى القتات، وسويد بن سعيد. وانظر الضعيفة (٤٠٩).

(٣) كذا.. ولعله: ستة.

(٤) أحد رواة الحديث كما سبق.

الباب الخامس عشر
فيمن ذمَّ العشق وتَبرَّم به
وما احتجَّ به كلُّ فريق على صحة مذهبه

قال الله تعالى إخباراً عن المؤمنين: ﴿ رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا ﴾[1].

وقد أثنى الله عليهم سبحانه بهذا الدعاء الذي سألوه فيه أن لا يحمّلهم ما لا طاقة لهم به، وقد فسر ذلك بالعشق، وليس المراد اختصاصه به، بل المراد أنَّ العشقَ مما لا طاقة للعبد به.

وقال مكحول: هو شدة الغُلْمة[2].

وقال النبي ﷺ: «لا ينبغي للمرء أن يُذَّل نفسه»[3].

قال الإمام أحمد: تفسيره أن يتعرض من البلاء لما لا يطيق، وهذا مطابق لحال العاشق، فإنه أذل الناس لمعشوقه ولما يحصل به رضاه، والحب مبناه على الذل والخضوع للمحبوب كما قيل:

---

(١) آخر سورة البقرة. والإصر: التكاليف الشاقة، سميت إصراً لأنها تمنع المكلف وتعوقه عن القيام بما كلفه.

(٢) الغلمة: غلبة الشهوة وشدتها.

(٣) صحيح، رواه الإمام أحمد (٥/ ٤٠٥) والترمذي (٢٢٥٤) وابن ماجة (٤٠١٦) وغيرهم من حديث حذيفة رضي الله عنه. وفيه: علي بن جدعان ضعيف، وعنعنة الحسن.
لكن للحديث شاهد من حديث ابن عمر رضي الله عنهما رواه الطبراني في الكبير (١٣٥٠٧) وفي الأوسط (٥٣٥٧) والبزار (٣٣٢٣ ـ زوائد). وانظر الصحيحة (٦١٣).

إخْضَعْ وَذِلّ لمن تحب فليس في
شرع الهوى أنفٌ يُشال ويُعْقَد(١)

وقال آخر :

مساكينُ أهلُ العشق حتى قبورهم
عليها ترابُ الذلّ بين المقابر

وقال آخر :

قالوا عهدناك ذا عزٍّ فقلت لهم
لا يُعجب الناسُ من ذل المحبينا
لا تنكروا ذلة العُشّاق إنهم
مستعبدون برِقِّ الحب راضونا

قالوا : وإذا اقتحم العبد بحر العشق، ولعبت به أمواجه، فهو إلى الهلاك أدنى منه إلى السلامة .

قالوا : وكيف يمدح أمرٌ يمنع القرار، ويسلب المنام، ويُولِّه العقل، ويحدث الجنون، بل هو نفسه جنون، كما قال بعض الحكماء : الجنون فنون، والعشق فن من فنونه، كما قال بعض العشاق :

قالوا جُننتَ بمن تهوى فقلتُ لهم
العشق أعظمُ مما بالمجانين

---

(١) يشال : يرفع .

العشقُ لا يستفيق الدهرَ صاحبُه

وإنما يصرع المجنونُ في الحين

قالوا: وكم من عاشق أتلف في معشوقه ماله وعِرْضَه ونفسه، وضيَّع أهلَه ومصالح دينه ودنياه.

قالوا: والعشق هو الداء الدوي[1] الي تذوب معه الأرواح، ولا يقع معه الارتياح، بل هو بحر من ركبه غرق، فإنه لا ساحل له ولا نجاة منه، وهو الذي قال فيه القائل:

وما أحدٌ في الناس يُحْمَدُ أمرُه

فيوجد إلا وهو في الحب أحمق

وما أحدٌ ما ذاق بؤسَ معيشةٍ

فيعشق إلا ذاقها حين يعشق

وقال العباس بن الأحنف:

ويحَ المحبين ما أشقى نفوسَهم

إن كان مثلُ الذي بي بالمحبينا

يَشْقَون في هذه الدنيا بعشقهم

لا يرزقون به دنيا ولا دينا

(١) الدوي: الشديد المهلك.

وقال آخر :

العشق مشغلةٌ عن كل صالحةٍ

وَسكرةُ العشقِ تنفي لذّةَ الوَسَن[1]

وقال ابن المعتز :

الحب داءٌ عضالٌ لا دواء له

يحار فيه الأطباء النَّحَاريرُ[2]

قد كنت أحسب أن العاشقين غلوا

في وصفه فإذا بالقوم تقصيرُ

وقال أعرابي :

ألا ما الهوى والحب بالشيء هكذا

يذل به طوع اللسان فيوصفُ

ولكنه شيء قَضَى الله أنه

هو الموتُ أو شيءٌ من الموت أَعنفُ

فأوله سقمٌ وآخره ضَنَى

وأوسطه شوقٌ يَشُفُّ[3] ويُتْلف

(١) الوسن : النعاس .

(٢) عضال : شديد أعيا الأطباء . والنحارير جمع نحرير : العالم المتقن .

(٣) يشف : يسقم ويضني .

وَروْعٌ وتسهيدٌ وهم وحسرة

ووجْدٌ على وجدٍ يزيد ويَضعُفُ

قالوا: والعشق يترك الملك مملوكاً، والسلطان عبداً.

وقال بعض الملوك في جارية له عشقها، وكانت كثيرة التجني عليه:

أما يكفيك أنك تَمْلكيني

وأن الناس كلهم عبيدي

وأنكِ لو جَهِدتِ على تلافي

لقلتُ من الرضا أحسنتِ زيدي

قالوا: وكم ممن هرب من الحب إلى مظان التلف، ليتخلص من التلف بالتلف. قال دعبل الشاعر: كنت بالثغر فنودي بالنفير، فخرجت مع الناس فإذا بفتى يجر رمحه بين يدي فالتفت فنظر إلي فقال: أنت دعبل؟ قلت: نعم، قال: اسمع مني، ثم أنشدني فقال:

أنا في أمري رشاد

بين غزوٍ وجهاد

بدني يغزو عدوّي

والهوى يغزو فؤادي

ثم قال: كيف ترى؟ قلت: جيد والله، قال: فوالله ما خرجت إلا هارباً من الحب، ثم قاتل حتى قُتل.

قالوا: ورأينا الداخل فيه يتمنى منه الخلاص، ولاتَ حين مناص.

قال الخرائطي: أنشدني أبو جعفر العبدي:

إنِ الله نَّجاني من الحب لم أَعد
إليه ولم أقبل مقالةَ عاذلي

ومن لي بمنجاة من الحب بعد ما
رمتني دواعي الحب بين الحبائل

وقال أبو عبيدة: الحبائل الموت.

قالوا: وكم أكبَّتْ فتنة العشق رؤوساً على مناخرها في الجحيم، وأسلمتهم إلى مقاساة العذاب الأليم، وجرعتهم بين أطباق النار كؤوس الحميم، وكم أخرجت من شاء الله من العلم والدين، كخروج الشعرة من العجين، وكم أزالت من نعمة، وأحلَّت من نِقْمة، وكم أنزلت من معقلٍ عزّه عزيزاً فإذا هو من الأذلين، ووضعت من شريفٍ رفيع القدر والمنصب فإذا هو في أسفل السافلين، وكم كشفت من عورة، وأحدثت من رَوْعة، وأعقبت من ألم، وأحلَّت من ندم، وكم أضرمت من نار حسرات أحرقت فيها الأكباد، وأذهبت قدراً كان للعبد عند الله وفي قلوب العباد، وكم جلبت من جَهْد البلاء، ودَرْك الشقاء، وسوء القضاء، وشماتة الأعداء، فقلَّ أن يفارقها زوال نعمة، أو فجاءة نقمة، أو تحويل عافية، أو طروق بلية، أوْ حدوث رزية، فلو سألت النعم: ما الذي أزالك؟ والنقم ما الذي أدالكِ[1]؟ والهموم والأحزان ما الذي جلبك؟ والعافية ما الذي أبعدك وجنبك؟ والستر ما الذي كشفك؟

---

(١) أدالك: جعل لك الغلبة.

والوجه ما الذي أذهب نورك وكَسَفك؟ والحياة ما الذي كدرك؟ وشمس الإيمان ما الذي كوَّرك[1]؟ وعزة النفس ما الذي أذلك؟ وبالهوان بعد الإكرام بدَّلك؟ لأجابتك بلسان الحال اعتباراً، إن لم تُجب بالمقال حواراً.

هذه والله بعض جنايات العشق على أصحابه، لو كانوا يعقلون، ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝﴾[2] .

ويكفي اللبيب موعظةً واستبصاراً، ما قصَّه الله سبحانه وتعالى في سورة الأعراف في شأن أصحاب الهوى المذموم تحذيراً واعتباراً، فبدأ سبحانه وتعالى بهوى إبليس الحامل له على التكبر عن طاعة الله عز وجل في أمره بالسجود لآدم، فحمله هوى النفس، وإعجابُه بها على أن عصى أمره، وتكبَّر على طاعته، فكان من أمره ما كان، ثم ذكر سبحانه هوى آدم حين رغب في الخلود في الجنة، وحمله هواه على أن أكل من الشجرة التي نُهي عنها، وكان الحامل له على ذلك هوى النفس ومحبتها للخلود، فكان عاقبةُ ذلك الهوى والشهوة إخراجه منها إلى دار التعب والنصب.

وقيل: إنه إنما أكل منها طاعة لحواء، فحمله حبُّه لها، أن أطاعها ودخل في هواها، وإنما توصَّل إليه عدوه من طريقها؟ ودخل عليه من بابها. فأول فتنةٍ كانت في هذا العالم بسبب النساء.

ثم ذكر سبحانه فتنة الكفار الذين أشركوا به ما لم ينزِّل به سلطاناً، وابتدعوا في دينه مالم يَشْرعه، وحرموا زينته التي أخرج لعباده والطيبات من

---

(١) الشمس كورت: أفلت واضمحلت. قال تعالى في مطلع سورة التكوير: ﴿إذا الشمس كورت﴾.

(٢) الآية (٥٢) سورة النمل.

الرزق، وتعبدوا له بالفواحش، وزعموا أنه أمرهم بها، واتخذوا الشياطين أولياء من دونه، والحامل لهم على ذلك كله الهوى والحبُّ الفاسد، وعليه حاربوا رسله، وكذّبوا كتبه، وبذلوا أنفسهم وأموالهم وأهليهم دونه، حتى خسروا الدنيا والآخرة. ثم ذكر سبحانه وتعالى قصة قوم نوح، وما أصارهم إليه الهوى من الغرق في الدنيا، ودخول النار في الآخرة.

ثم ذكر قصة عاد وما أفضى إليه بهم الهوى، من الهلاك الفظيع، والعقوبة المستمرة. ثم قصة قوم صالح كذلك.

ثم قصة العشَّاق، أئمة الفُسَّاق، وناكحي الذكران، وتاركي النسوان، وكيف أخذهم وهم في خوضهم يلعبون[1] وقطع دابرهم وهم في سُكْر عشقهم يعمهون، وكيف جمع عليهم من العقوبات ما لم يجمعه على أمة من الأمم أجمعين، وجعلهم سَلَفاً لإخوانهم اللوطية من المتقدمين والمتأخرين، ولما تجرأوا على هذه المعصية ومَرَدُوا[2]، ونهجوا لإخوانهم طريقاً وقاموا بأمرها وقعدوا، ضجَّت الملائكة إلى الله من ذلك ضجيجاً، وعجَّت الأرض إلى ربها من هذا الأمر عجيجاً، وهربت الملائكة إلى أقطار السموات، وشكتهم إلى الله جميع المخلوقات، وهو سبحانه وتعالى قد حكم أنه لا يأخذ الظالمين إلا بعد إقامة الحجة عليهم، والتقدم بالوعد والوعيد إليهم، فأرسل إليهم رسوله الكريم يحذرهم من سوء صنيعهم، وينذرهم عذابه الأليم، فأذن

(١) خاضوا في الحديث: تفاوضوا فيه، ومن المجاز: فلان يخوض في الكلام إذا تكلم فيه على غير هدى. وفي سورة الأنعام ﴿ثم ذرهم في خوضهم يلعبون﴾ أي: في باطلهم يتشاغلون.

(٢) مرد على الشيء يمرد: مرن عليه وتدرب ومهر فيه، وأكثر ما يستعمل في الشر. ومرد الإنسان والشيطان، فهو مارد: عتا وازداد في الشر، وتجرأ في الآثام، وفي سورة التوبة ﴿ومن أهل المدينة مردوا على النفاق﴾.

رسول الله ﷺ بالدعوة على رؤوس الملإ منهم والأشهاد، وصاح بها بين أظهرهم في كل حاضر وباد، وقال فكان في قوله لهم من أعظم الناصحين: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ۝٨٠﴾[1] ثم أعاد لهم القول نصحاً وتحذيراً، وهم في سكرة عشقهم لا يعقلون، ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ۝٨١﴾[2] فأجاب العشاق، جواب من أُرْكِس في هواه وغيِّه، فقلبه بعشقه مفتون، و﴿قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ۝٥٦﴾[3] فلما أن حان الوقت المعلوم، وجاء ميقاتُ نفوذ القدر المحتوم، أرسل الرحمن تبارك وتعالى لتمام الإنعام والامتحان، إلى بيت لوط ملائكة في صورة البشر، وأجمل ما يكون من الصور، وجاءوه في صورة الأضياف النزول بذي الصدر الرحيب، ﴿سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ۝٧٧﴾[4] وجاء الصريخ إلى اللوطية، أن لوطاً قد نزل به شبابٌ لم يَنْظر إلى مثل حسنهم وجمالهم الناظرون، ولا رأى مثلهم الراؤون، فنادى اللوطيةُ بعضهم بعضاً، أن هلمُّوا إلى منزل لوط، ففيه قضاءُ الشهوات، ونيل أكبر اللذات ﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾[5]. فلما دخلوا إليه، وهجموا عليه، قال لهم وهو كظيم من الهم والغم، وقلبه بالحزم عَميد: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ۝٧٨﴾[6] فلما سمع اللوطية مقالَه، أجابوه جواب الفاجر المجاهر العنيد: ﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ۝٧٩﴾[7]. فقال لهم لوط، مقالة المضطهَدِ الوحيد: ﴿لَوْ أَنَّ

(١، ٢) الآيتان ٨٠ و ٨١ سورة الأعراف.

(٣) الآية (٥٦) سورة النمل.

(٤و٥و٦و٧) الآيات (٧٧ و٧٨ و٧٩ و٨٠ و٨١) سورة هود.

لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ (٨٠)﴾[١] فلما رأت رسل الله، ما يقاسي نبيُّه من اللوطية، كشفوا له عن حقيقة الحال، وقالوا: هون عليك، ﴿يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾[٢] فسُر نبي الله، سرور المحب وافاه الفرج بغتة على يد الحبيب، وقيل له: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ (٨١)﴾[٣].

ولما أَبَوا إلا مراودته عن أضيافه، ولم يرعوا حق الجار، ضرب جبريل بجناحه على وجوههم، فطمس منهم الأعين وأعمى الأبصار، فخرجوا من عنده عمياناً يتحسسون، ويقولون: ستعلم غداً ما يحل بك أيها المجنون.

فلما انشق عمود الصبح، جاء النداء من عند رب الأرباب، أن اخسف بالأمة اللوطية وأذقهم أليم العذاب، فاقتلع القوي الأمين جبريل مدائنهم على ريشةٍ من جناحه، ورفعها في الجو حتى سمعت الملائكة نبيح كلابهم، وصياح ديكتهم، ثم قلبها فجعل عاليها سافلها، وأتبعوا الحجارة من سجِّيل، وهو الطين المستحجر الشديد، وخَوَّف سبحانه إخوانهم على لسان رسوله من هذا الوعيد، فقال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ (٨٢) مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ (٨٣)﴾[٤] فهذه عاقبة اللوطية عشاق الصور، وهم السلف وإخوانهم بعدهم على الأثر.

وإن لم يكونوا قومَ لوطٍ بعينهم
فما قومُ لوطٍ منهم ببعيد

(١و٢و٣) الآيات (٧٧ و٧٨ و٧٩ و٨٠ و٨١) سورة هود.

(٤) الآيتان (٨٢، ٨٣). سورة هود. ومسومة: معلمة بعلامة.

وإنهم في الخْسف ينتظرونهم

على موردٍ من مهلةٍ وصيد

يقولون لا أهلاً ولا مرحباً بكم

ألم يتقدَّم ربُّكم بوعيد

فقالوا بلى لكنكم قد سَنَنْتُمُ

صراطاً لنا في العشقِ غيرَ حميد

أتينا به الذُّكْرانَ من عشقنا لهم

فأوردنا ذا العشق شرَّ ورود

فأنتم بتضعيف العذاب أحقُّ مِنْ

مُتَابِعكم في ذاك غير رشيد

فقالوا وأنتم رُسُلكم أنذرتكم

بما قد لَقيناه بصدق وعيد

فما لكم فضلٌ علينا فكلنا

نذوق عذاب الهُون[1] جدَّ شديد

كما كلُّنا قد ذاق لذةَ وصلهم

ومجمعنا في النار غيرُ بعيد

---

(١) الهون : الخزي . قال تعالى : ﴿فأخذتهم صاعقة العذاب الهون﴾ أي : ذي الخزي .

وكذلك قومُ شعيب إنما حملهم على بخس المكيال والميزان، فرط محبتهم للمال، وغلبهم الهوىٰ علىٰ طاعة نبيهم، حتىٰ أصابهم العذاب.

وكذلك قوم فرعون حملهم الهوىٰ والشهوةُ، وعشق الرئاسة علىٰ تكذيب موسىٰ، حتىٰ آل الأمر إلىٰ ما آل. وكذلك أهل السبت الذين مُسِخوا قردة، إنما أُتُوا من جهة محبة الحيتان، وشهوة أكلها والحرص عليها.

وكذلك الذي آتاه الرب تبارك وتعالىٰ آياته: ﴿**فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ**﴾[1] وقال تعالىٰ: ﴿**وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث**﴾[2] وتأمل قوله تعالىٰ: ﴿**آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا**﴾ فأخبر أن ذلك إنما حصل له بإيتاء الرب له، لا بتحصيله هو. ثم قال: ﴿**فَانسَلَخَ مِنْهَا**﴾ ولم يقل: فسلخناه، بل أضاف الإنسلاخ إليه، وعبر عن براءته منها بلفظة الانسلاخ، الدالة علىٰ تخليه عنها بالكلية، وهذا شأن الكافر. وأما المؤمن ولو عصىٰ الله تبارك وتعالىٰ ما عصاه، فإنه لا ينسلخ من الإيمان بالكلية.

ثم قال: ﴿**فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ**﴾ ولم يقل: فتبعه، فإن في «أتبعه» إعلاماً بأنه أدركه ولحقه، كما قال الله تعالىٰ: ﴿**فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ** (٦٠)﴾[3] أي: لحقوهم ووصلوا إليهم، ثم قال: ﴿**وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا**﴾ ففي ذلك دليل علىٰ أن مجرد العلم لا يرفع صاحبه، فهذا قد أخبر الله سبحانه أنه آتاه آياته ولم يرفعه بها، فالرفعة بالعلم قدر زائد علىٰ مجرد تعلمه، ثم أخبر الله عز وجل عن السبب الذي منعه أن يرفع بها، فقال: ﴿**وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ**﴾.

(١ و٢) الآيتان (١٧٤ و١٧٥) سورة الأعراف.

(٣) الآية (٦٠): سورة الشعراء.

وقوله: ﴿أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ﴾. أي: سكن إليها ونزل بطبعه إليها، فكانت نفسه أرضية سفلية، لاسماوية علوية، وبحسب ما يخلد العبد إلى الأرض يهبط من السماء.

ثم ذكر سبحانه مَثَلَ المتبع لهواه كمثل الكلب، الذي لا يفارقه اللَّهْث في حالتي تركه والحمل عليه، فهكذا هذا، لا يفارقه اللهث على الدنيا راغباً وراهباً.

والمقصود أن هذه السورة من أولها إلى آخرها، في ذكر حال أهل الهوى والشهوات، وما آل إليه أمرهم، فالعشق والهوى أصلُ كلِّ بلية.

قال عديُّ بن ثابت: كان في زمن بني إسرائيل راهب يعبد الله حتى كان يؤتى بالمجانين يُعَوِّذهم[1] فيبرأون على يديه، وإنه أُتي بامرأة ذات شرف من قومها قد جُنَّت، وكان لها إخوة فأتوه بها، فلم يزل الشيطان يزين له حتى وقع عليها فحملت، فلما استبان حملها لم يزل يخوفه ويزين له قتلها حتى قتلها ودفنها، فذهب الشيطان في صورة رجل حتى أتى بعض إخوتها فأخبره بالذي فعل الراهب، ثم أتى بقية إخوتها رجلاً رجلاً، فجعل الرجل يلقى أخاه فيقول: والله لقد أتاني آت فذكر لي شيئاً كُبر علي ذكره، فذكر ذلك بعضهم لبعض، حتى رفعوا ذلك إلى ملكهم، فسار الناس إليه حتى استنزلوه من صومعته، فأقر لهم بالذي فعل، فأمر به فصلب، فلما رفع على الخشبة تمثل له الشيطان فقال: أنا الذي زَيَّنتُ لك هذا وألقيتك فيه، فهل أنت مطيعي فيما أقول لك وأُخلِّصك؟ قال: نعم، قال: تسجد لي سجدة واحدة، فسجد له وقتل الرجل، فهو قول الله تعالى: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ

(١) يعوذهم: يرقيهم، وعوذه تعويذاً وأعاذة إعاذة: دعا له بالحفظ ورقاه. والعوذة: الرقية يرقي بها الإنسان من فزع أو جنون لأنه يعاذ بها.

لِلإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (16)﴾[1] .

وقال واصل مولىٰ أبي عيينة : دخلت علىٰ محمد بن سيرين فقال لي : هل تزوجت؟ فقلت : لا ، قال : وما يمنعك؟ قلت : قلة الشيء ، قال : تزوج عبدالله ابن محمد بن سيرين ولا شيء له ، فرزقه الله .

وعن أسامة بن زيد رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : «ما تَركتُ علىٰ أمتي بعدي أَضرَّ علىٰ الرجال من النساء»[2] .

وعن سعيد بن المسيب قال : «ما أَيس الشيطان من أحدٍ قط ، إلا أتاه من قبل النساء» .

رویٰ سفيان بن حسين : عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : «قيل لآدم ما حملك علىٰ أكل الشجرة؟ قال : يا رب زينت لي حواء ، قال : فإني قد عاقبتها لا تحمل إلا كرهاً ، ولا تضع إلا كرهاً ، وأدميتها في الشهر مرتين»[3] .

وقال ابن عباس رضي الله عنهما ـ أو غيره ـ : «أول فتنة بني إسرائيل كانت من قِبل النساء» .

قالوا : ويكفي من مضرة العشق ما اشتهر من مصارع العشاق ، وذلك موجود في كل زمان .

فهذا بعض ما احتجت به هذه الفرقة لقولها . ونحن نعقد للحكم بين الطائفتين باباً مستقلاً بعون الله تعالىٰ .

---

(١) الآية (١٦) سورة الحشر .

(٢) تقدم تخريجه .

(٣) رجاله ثقات ، ورواه ابن جرير (٨/ ١٠٧) والحاكم (٢/ ٣٨١) وأبو الشيخ في العظمة (١٠٤٩) وقال الحاكم : صحيح الإسناد ، ووافقه الذهبي ، وعزاه السيوطي في الدر (١/ ١٣٢) إلى ابن منيع وابن أبي الدنيا وابن المنذر .

الباب السادس عشر

في الحُكْم بين الفريقين، وفصل النِّزاع بين الطائفتين

فنقول: العشق لا يُحْمد مطلقاً ولا يذم مطلقاً، وإنما يحمد ويذم باعتبار متعلَّقه، فإن الإرادة تابعة لمرادها، والحب تابع للمحبوب، فمتىٰ كان المحبوب مما يُحَبُّ لذاته أو وسيلة توصله إلىٰ ما يحب لذاته، لم تذم المبالغة في محبته بل تحمد. وصلاحُ حال المحب كذلك بحسب قوة محبته.

ولهذا كان أعظم صلاح العبد أن يَصرف قوىٰ حبه كلَّها لله تعالىٰ وحده، بحيث يحب الله بكل قلبه وروحه وجوارحه، فيوحِّد محبوبه ويوحد حبه، وسيأتي إن شاء الله تعالىٰ في باب توحيد المحبوب: أن المحبة لا تصح إلا بذلك، فتوحيد المحبوب أن لا يتعدد محبوبه[1]، وتوحيد الحب أن لا يبقىٰ في قلبه بقية حب حتىٰ يبذلها له، فهذا الحب وإنْ سُمّي عشقاً فهو غايةُ صلاح العبد ونعيمه وقرة عينه، وليس لقلبه صلاحٌ ولا نعيم إلا بأن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن تكون محبتُه لغير الله تابعة لمحبة الله، فلا يحب إلا لله، كما في الحديث الصحيح: «ثلاثُ مَن كُنَّ فيه، وَجَدَ بهن حلاوة الإيمان: من كان اللهُ ورسولُه أحبَّ إليه مما سواهما، ومن كان يُحب المرءَ لا يُحبُّه إلا لله، ومن كان يَكرهُ أن يَرجعَ في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه، كما يكره أن يُلْقىٰ في النار»[2].

فأخبر أن العبد لا يجد حلاوة الإيمان، إلا بأن يكون الله أحبَّ إليه مما

---

(١) الضمير هنا عائد على محذوف وهو المحب.

(٢) رواه البخاري في الإيمان (١/ ٦٠) وفي الإكراه (١٢/ ٣١٥) ومسلم في الإيمان (١/ ٦٦) من حديث أبي قلابة عن أنس رضي الله عنه مرفوعاً.

سواه، ومحبة ورسوله هي من محبته، ومحبة المرء إن كانت لله فهي من محبة الله، وإن كانت لغير الله فهي مُنْقصة لمحبة الله مُضْعِفة لها، وتَصْدُق هذه المحبة بأن يكون كراهته لأبغض الأشياء إلىٰ محبوبه ـ وهو الكفر ـ بمنزلة كراهته لإلقائه في النار أو أشد. ولا ريب أن هذا من أعظم المحبة، فإن الإنسان لا يُقدِّم علىٰ محبة نفسه وحياته شيئاً، فإذا قدم محبة الإيمان بالله علىٰ نفسه، بحيث لو خُيِّر بين الكفر وإلقائه في النار، لاختار أن يُلقىٰ في النار ولا يكفر، كان الله أحبَّ إليه من نفسه، وهذه المحبة هي فوق ما يجده سائر العشاق والمحبين من محبة محبوبهم، بل لا نظير لهذه المحبةُ، كما لا مِثْل لمن تعلقت به، وهي محبةٌ تقتضي تقديمَ المحبوب فيها علىٰ النفس والمال والولد، وتقتضي كمال الذل والخضوع، والتعظيم والإجلال، والطاعة والانقياد، ظاهراً وباطناً، وهذا لا نظير له في محبة مخلوق، ولو كان المخلوقُ مَن كان.

ولهذا من أشرك بين الله وبين غيره في هذه المحبة الخاصة، كان مشركاً شركاً لا يغفره الله، كما قال الله تعالىٰ: ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ**﴾(١). والصحيح أن معنىٰ الآية: والذين آمنوا أشد حباً لله من أهل الأنداد لأندادهم، كما تقدم بيانُه أن محبة المؤمنين لربهم لا يماثلها محبةُ مخلوق أصلاً، كما لا يماثل محبوبهم غيره. وكل أذىٰ في محبة غيره فهو نعيمٌ في محبته، وكل مكروه في محبة غيره فهو قرة عين في محبته.

ومن ضرب لمحبته الأمثالَ التي هذ في محبة المخلوق للمخلوق، كالوصل والهجر والتَّجني بلا سبب من المحب، وأمثالِ ذلك مما يتعالىٰ الله

---

(١) الآية (١٦٥) سورة البقرة.

عنه علواً كبيراً، فهو مخطئ أقبح الخطأ وأفحشه، وهو حقيق بالإبعاد والمقت. والآفة إنما هي من نفسه وقلة أدبه مع محبوبه، والله تعالىٰ نهىٰ أن يضرب عباده له الأمثال فهو لا يقاس بخلقه. وما ابتدع من ابتدع إلا من ضرب الأمثال له سبحانه. فأصحابُ الكلام المُحْدثَ المبتدع ضربوا له الأمثال الباطلة في الخبر عنه وما يوصف به، وأصحاب الإرادة المنحرفة ضربوا له الأمثال في الإرادة والطلب. وكلاهما علىٰ بدعة وخطأ.

والعشق إذا تعلق بما يحبه اللهُ ورسوله كان عشقاً ممدوحاً مثاباً عليه. وذلك أنواع: أحدُها محبةُ القرآن بحيث يَغْنىٰ بسماعه عن سماع غيره، ويَهيم قلبه في معانيه ومراد المتكلم سبحانه منه، وعلىٰ قدر محبة الله تكون محبة كلامه، فمن أحبَّ محبوباً أحب حديثه والحديث عنه، كما قيل:

إن كنت تزعُمُ حُبِّي
فلم هجرتَ كتابي
أما تأمَّلت ما فيه
من لذيذ خطابي

وكذلك محبة ذكره سبحانه وتعالىٰ من علامة محبته، فإن المحب لا يشبع من ذكر محبوبه، بل لا ينساه فيحتاج إلىٰ من يذكره به. وكذلك يحب سماع أوصافه وأفعاله وأحكامه، فعشق هذا كله من أنفع العشق، وهو غاية سعادة العاشق، وكذلك عشق العلم النافع، وعشقُ أوصاف الكمال من الكرم والجود والعفة والشجاعة والصبر ومكارم الأخلاق، فإن هذه الصفات لو صورت صوراً لكانت من أجمل الصُّوَر وأبهاها، ولو صُوِّر العلم صورةً

لكانت أجملَ من صورة الشمس والقمر، ولكن عشق هذه الصفات إنما يناسب الأنفس الشريفة الزكية، لا الأرواح الأرضية الدَّنية، فإذا أردت أن تعرف قيمةَ العبد وقدره فانظر إلىٰ محبوبه ومراده. واعلم أن العشق المحمود لا يعرض فيه شيء من الآفات المذكورة.

بقي هاهنا قسم آخر، وهو عشقٌ محمود يترتب عليه مفارقة المعشوق، كمن يعشق امرأتَه أو أمته فيفارقها بموت أو غيره فيذهب المعشوق ويبقىٰ العشق كما هو، فهذا نوع من الابتلاء، إن صبر صاحبه واحتسب، نال ثواب الصابرين، وإن سَخِط وجزع فاته معشوقُه وثوابه، وإن قابل هذه البلوىٰ بالرضا والتسليم فدرجُته فوق درجة الصبر. وأعلىٰ من ذلك: أن يقابلها بالشكر، نظراً إلىٰ حسن اختيار لله له، فإنه ما يقضي الله للمؤمن قضاء إلا كان خيراً له، فإذا علم أن هذا القضاء خيرٌ له اقتضىٰ ذلك شكره لله علىٰ ذلك الخير الذي قضاه له، وإن لم يعلم كونه خيراً له فليسلم للصادق المصدوق في خبره المؤكد باليمين، حيث يقول: «والذي نفسي بيده لا يَقْضي الله للمؤمن من قضاءٍ إلا كان خيراً له، إنْ أصابته سَرَّاء شَكَر فكان خيراً له، وإن أصابته ضَرَّاء صَبَر فكان خيراً له، وليس ذلك إلا للمؤمن»(١).

وإيمان العبد يأمره بأن يعتقد بأن ذلك القضاء خير له، وذلك يقتضي شكر من قضاه وقدره وبالله التوفيق.

---

(١) رواه مسلم في الزهد (٤/ ٢٢٩٥) من حديث صهيب رضي الله عنه. دون القسم.
وفي الباب عن: أنس وسعد بن أبي وقاص وغيرهما.

الباب السابع عشر
في استحباب تخير الصور الجميلة
للوصال الذي يحبه الله ورسوله

قال الله تعالىٰ عقيب ذكره ما أحلَّ لعباده من الزوجات والإماء وما حرَّم عليهم: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفاً ﴿٢٨﴾﴾[1] أي: لا يصبر عن النساء، كما ذكر الثوري عن ابن طاوس عن أبيه ﴿وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفاً ﴿٢٨﴾﴾. قال: إذا نظر إلىٰ النساء لم يصبر، وكذلك قال غير واحد من السلف.

ولما كانت الشهوةُ في هذا الباب غالبة لابد أن توجب ما يوجب التوبة، كرَّر سبحانه وتعالىٰ ذكر التوبة مرتين، فأخبر أن مُتَّبِعي الشهوات يريدون من عباده أن يميلوا ميلاً عظيماً، وأخبر سبحانه وتعالىٰ أنه يريد التخفيف عنا لضعفنا، فأباح لنا أن ننكح ما طاب لنا من أطايب النساء أربعاً، وأن نتسَّرىٰ من الإماء بما شئنا.

ولما كان العبد له في هذا الباب ثلاثة أحوال: حالةُ جهلٍ بما يَحِلُّ له ويحرم عليه، وحالة تقصير وتفريط، وحالة ضعف وقلة صبر، قابل سبحانه جهل عبده بالبيان والهدىٰ، وتقصيرَه وتفريطه بالتوبة، وضعفه وقلة صبره بالتخفيف.

---

(١) الآيات (٢٥ و٢٦ و٢٧) سورة النساء.

وروىٰ عبدالله بن أحمد في كتاب الزهد لأبيه: عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «جُعِلتْ قُرَّةُ عيني في الصلاة، وحُبِّبَ إلي النساءُ والطيب...» وأصله في صحيح مسلم[١].

وفي صحيح مسلم:[٢] من حديث عروة عن عائشة رضي الله عنها قالت: «لما أصاب رسول الله ﷺ سبايا بني المُصْطَلق وقعت جُويرية بنت الحارث بن أبي ضرار في السهم لثابت بن قيس بن الشمَّاس أو لابن عم له، فكاتبت علىٰ نفسها، وكانت امرأة جميلة حلوة، لا يراها أحدٌ إلا أَخذتْ بنفسه، فأتت رسول الله ﷺ تستعينه علىٰ كتابتها[٣]. قالت: فوالله ما هو إلا أن رأيتها علىٰ باب الحجرة فكرهتها، وعلمتُ أن رسول الله ﷺ يرىٰ منها ما رأيت، فقالت: يا رسول الله، أنا جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار سيد قومه، وقد أصابني من البلاء مالم يَخْفَ عليك، فوقعتُ في السهم لثابت بن قيس بن الشماس أو لابن عم له، فجئت رسول الله ﷺ أستعينه. قال: «فهل لكِ في غير ذلك؟» قالت: وما هو؟ قال: «أقضي كتابتك وأتزوجك» قالت: نعم يا رسول الله، قد فعلت. وخرج الخبرُ إلىٰ الناس أن رسول الله ﷺ تزوج جويرية بنت الحارث، فقال الناس: أصهارُ رسول الله ﷺ، فأرسلوا ما بأيديهم. قالت: فلقد أُعتق بتزويجه إياها مائة أهل بيت من بني المصطلق، فما أعلم امرأة كانت أعظم بركةً علىٰ قومها منها».

---

(١) صحيح، رواه أحمد في مسنده (٣/ ١٢٨، ١٩٩، ٢٨٥) والنسائي (٧/ ٦١، ٦٢) والحاكم (٢/ ١٦٠) وغيرهم. ولم يخرج منه مسلم شيئاً!

(٢) كذا قال! ولم يخرجه مسلم! إنما أخرجه الإمام أحمد (٦/ ٢٧٧) وأبو داود (٣٩٣١) من حديث ابن اسحاق حدثني محمد بن جعفر بن الزبير عن عمه عروة به. وإسناده حسن.

(٣) كاتب العبد: كتب على نفسه بثمنه، فإذا سعى وأداه عتق.

وقال عبدالله بن عمر رضي الله عنهما : خرج سهمي يوم جَلولاء جارية كأن عنقها إبريق فضة ، فما ملكت نفسي أن قمت إليها فقبلتها .

وفي الصحيحين[1] : من حديث أنس رضي الله عنه قال : «قدم رسول الله ﷺ خيبَر فلما فتح الله عليه الحِصْن ، ذُكر له جمالُ صفيةَ بنتِ حيي وقد قتل زوجها وكانت عروساً ، فاصطفاها رسول الله ﷺ لنفسه ، فخرج بها حتىٰ بلغا سدَّ الروحاء[3] [حلّت][2] فبنىٰ بها[4] ثم صنع حَيْساً[5] في نِطْع[6] صغير ، ثم قال رسول الله ﷺ : «آذِنْ مَن حولَك» فكانت تلك وليمة رسول الله ﷺ علىٰ صفية ، ثم خرجنا إلىٰ المدينة فرأيت رسول الله ﷺ يُحَوِّي[7] لها وراءه بعباءة ، ثم يجلس عند بعيره فيضع ركبته فتضع صفية رجلها علىٰ ركبته حتىٰ تركب» .

وعند أبي داود في هذه القصة قال : وقع في سهم دحية جارية جميلة ، فاشتراها رسول الله ﷺ بسبعة أَرْؤُس ، ثم دفعها إلىٰ أم سليم تُصَنِّعُها وتهيئها وتعتد في بيتها ، وهي صفية بنت حُيي[8] .

(١) رواه البخاري بهذا اللفظ في البيوع (٤/ ٤٢٣) وفي الجهاد (٦/ ٨٦) وفي المغازي (٧/ ٤٧٩) ومواضع آخر ، ومسلم بنحوه في النكاح (٢/ ١٠٤٥ ـ ١٠٤٦) .

(٢) سقطت من الأصل وهي عند البخاري .

(٣) كذا ! وعند البخاري : سد الصهباء .

(٤) بنى بها وعليها : دخل بها .

(٥) الحيس : تمر وأقط وسمن ، تخلط وتعجن وتسوى كالثريد ، وقد يجعل عوض الأقط : الدقيق والفتيت .

(٦) النطع وفيه أربع لغات : بساط من أدم .

(٧) يحوي لها : أي يجعل لها حوية ، وهي كساء محشو ، يُدار حوال سنام البعير تركبه المرأة .

(٨) سنن أبي داود : كتاب الخراج (٢٩٩٧) ، وهو في صحيح مسلم أيضاً ! في النكاح (١٠٤٦) .

وعن سعيد بن جبير قال: كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا أمسىٰ أخذ دِرَّته ثم طاف بالمدينة، فإذا رأىٰ شيئاً ينكره أنكره، فبينما هو ذات ليلةَ يَعُس، إذ مرّ بامرأة علىٰ سطح وهي تقول:

تطاول هذا الليلُ وأخْضَلَ[1] جانبه
وأرَّقني أن لا خليلَ ألاعبُهْ

فوالله لولا اللهُ لا ربَّ غيرُه
لحُرِّك من هذا السرير جوانبُهْ

مخافةُ ربي والحياءُ يَصدُّني
وأُكرم بعلي أن تُنال مراكبُه

ثم تنفَّست الصُّعداء وقالت: لهان علىٰ عمر بن الخطاب ما لقيت الليلة، فضرب باب الدار فقالت: من هذا الذي يأتي إلىٰ امرأة مُغِيبة[2] هذه الساعة؟ فقال: افتحي، فأبت، فلما أكثر عليها قالت: أما والله لو بلغ أمير المؤمنين لعاقبك، فلما رأىٰ عفافها قال: افتحي فأنا أمير المؤمنين، قالت: كذبتَ ما أنت أمير المؤمنين، فرفع بها صوته وجهر لها فعرفت أنه هو، ففتحت له فقال: هيه كيف قلت؟ فأعادت عليه ما قالت، فقال: أين زوجك؟ قالت: في بعث كذا وكذا، فبعث إلىٰ عامل ذلك الجند أن سرِّح فلان بن فلان، فلما قدم عليه قال: اذهب إلىٰ أهلك. ثم دخل علىٰ حفصة ابنته فقال: أي بُنَيَّة،

(١) اخضل الليل: أظلم.

(٢) إمرأة مغيبة: التي غاب زوجها.

كم تصبر المرأة عن زوجها؟ قالت: شهراً واثنين وثلاثة، وفي الرابع ينفد الصبر، فجعل ذلك أجلاً للبعث[1].

وهذا مطابقٌ لجعلِ الله سبحانه وتعالىٰ مدةَ الإيلاء[2] أربعة أشهر، فإنه سبحانه وتعالىٰ عَلم أن صبر المرأة يضعف بعد الأربعة، ولا تحتمل قوةُ صبرها أكثر من هذه المدة، فجعلها أجلاً للمُولي، وخيَّرها بعد الأربعة إن شاءت أقامت معه، وإن شاءت فسخت نكاحه. فإذا مضت الأربعة أشهر عِيلَ صبرها.

(١) أثر صحيح لطرقه، وأخرجه من طريق آخر سعيد بن منصور (٢٤٦٣ ـ السلفية) وأخرجه مختصرا البيهقي في السنن (٩/ ٢٩) بإسناد صحيح.

(٢) الإيلاء في اصطلاح الشرع: أن يحلف الزوج على ألا يقرب زوجه أربعة أشهر فأكثر، ويقال: آلى من زوجه يؤلى إيلاء، قال تعالى: ﴿للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر﴾ (البقرة: ٢٢٦) أي: يقسمون ألا يقربوا نساءهم.

الباب الثامن عشر

في أنَّ دواءَ المحبِّين

في كمالِ الوِصَال الذي أبَاحه ربُّ العالمين

قد جعل الله سبحانه وتعالى لكل داء دواء، ويسر الوصال إلى ذلك الدواء شرعاً وقدراً، فمن أراد التداويَ بما شرعه الله له، واستعان عليه بالقدَرَ، وأتى الأمر من بابه صادف الشفاء، ومن طلب الدواء بما منعه منه شرعاً، وإنْ امتحنه به قَدَراً، فقد أخطأ طريقَ المداواة، وكان كالمتداوي من داء بداءٍ أعظمَ منه، وقد تقدم حديث طاوس عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ أنه قال: «لمْ يَر للمُتحابَّيْنِ مثلُ النكاح»(١).

وقد اتفق رأي العقلاء من الأطباء وغيرهم، في مواضع الأدوية، أن شفاء هذا الداء في التقاء الرُّوحين، والتصاق البدنين.

وقد روى مسلم في صحيحه: من حديث أبي الزبير عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ رأى امرأة فأتى زينب فقضى حاجته منها(٢) وقال: «إن المرأة تَقْبل في صورة شيطان، وتُدبر في صورة شيطان، فإذا رأى أحُدكم امرأةً فأعجبته فليأت أهله، فإن ذلك يَرُدُّ ما في نفسه».

---

(١) تقدم ذكره في صفحة . . . بلفظ «التزويج».

(٢) رواه مسلم في النكاح (٢/ ١٠٢١).

تقبل في صورة شيطان: معناه الإشارة إلى الفتنة بها، لما جعله الله تعالى في نفوس الرجال من الميل إلى النساء، والالتذاذ بالنظر إليهن، فهي شبيهة بالشيطان في دعائه إلى الشر بوسوسته وتزيينه.

وعن أبي مسلم الخولاني رحمه الله أنه كان يقول : يا معشر خَوْلان ، زوجوا شبابكم وإماءكم ، فإن الغُلْمة أمرٌ عارم[1] فأعدوا عدتها ، واعلموا أنه ليس لمنعظٍ إذن . يريد أنه إذا استأذن عليه فلا إذن له .

وفي الصحيح : أن سليمان بن داود عليهما السلام طاف في ليلة واحدة على تسعين امرأة[2] .

وفي الصحيحين : أن رسول الله ﷺ كان يَطُوف على نسائه في الليلة الواحدة وهن تسع نسوة ، وربما كان يطوف عليهن بغُسلٍ واحد ، وربما كان يغتسل عند كل واحدة منهن[3] .

وقال المرُّوذيُّ : قال أبو عبدالله ـ يعني أحمدَ بن حنبل ـ ليس العزوبة من أمر الإسلام في شيء ، النبي ﷺ تزوج أربع عشرة ومات عن تسع ، ولو تزوج بشر بن الحارث لتمَّ أمره ، ولو ترك الناس النكاح لم يكن غزوٌ ولا حج ولا كذا ولا كذا ، وقد كان النبي ﷺ يصبح وما عندهم شيء ، ومات عن تسع ،

---

(١) عارم : شديد ، قاس ، لا يطاق . .

(٢) رواه البخاري في الأنبياء (١/ ٤٥٨) وفي النكاح (٩/ ٣٣٩) ومسلم في الأيمان (٣/ ١٢٧٥ ، ١٢٧٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

وفي بعض طرقه : ستين امرأة ، وبعضها : سبعين امرأة ، وبعضها : مئة . راجع كلام الحافظ في الفتح (٦/ ٤٦٠) إذ قال : والجمع بينها : أن الستين كن حرائر ، وما زاد عليهن كن سراري أو بالعكس . .

(٣) رواه البخاري في الغسل (١/ ٣٧٧ ، ٣٩١) وفي النكاح (٩/ ١١٢ ، ٣١٦) من حديث أنس رضي الله عنه .

وروى البخاري من حديث عائشة رضي الله عنها بلفظ : كنت أطيب رسول الله ﷺ فيطوف على نسائه ثم يصبح محرماً يَنْضح طيباً . في الغسل (١/ ٣٧٦ ، ٣٨١) ومسلم في الحج (٢/ ٨٤٩ـ ٨٥٠) .

وكان يختار النكاح ويحث عليه، ونهى عن التَّبَتل[1]، فمن رغب عن سنة النبي ﷺ فهو على غير الحق، ويعقوب في حزنه قد تزوج ووُلد له، والنبي ﷺ قال: «حُبِّبَ إلي النساء». قلت له: فإن إبراهيم بن أدهم يُحكى عنه أنه قال: لروعة صاحب العيال. . . فما قدرت أن أتم الحديث[2] حتى صاح بي، وقال: وقعت في بنيَّات[3] الطريق، أنظر ما كان عليه محمد ﷺ وأصحابه، ثم قال: بكاء الصبي بين يدي أبيه يطلب منه الخبز، أفضل من كذا وكذا. أين يلحق المتعبدُ العزَب؟ انتهى كلامه.

وقد اختلف الفقهاء هل يجب على الزوج مجامعة امرأته؟ فقالت طائفة: لا يجب عليه ذلك، فإنه حق له فإن شاء استوفاه، وإن شاء تركه: بمنزلة من استأجر داراً إن شاء سكنها، وإن شاء تركها!

وهذا من أضعف الأقوال، والقرآن والسنة والعرف والقياس يرده. أما القرآن فإن الله سبحانه وتعالى قال: ﴿**وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ**﴾[4] فأخبر أن للمرأة من الحق مثلَ الذي عليها، فإذا كان الجماع حقاً للزوج عليها، فهو حق على الزوج بنص القرآن، وأيضاً فإنه سبحانه وتعالى أمر الأزواج أن يعاشروا الزوجات بالمعروف، ومن ضد المعروف أن يكون عنده شابةٌ شهوتُها تَعْدِلُ شهوةَ الرجل أو تزيد عليها بأضعاف مضاعفة، ولا يذيقها لذة الوطء مرة واحدة! ومن زعم أن هذا من المعروف كفاه طبعه رداً

---

(١) التبتل: الانقطاع عن الدنيا إلى الله، والتفرغ للعبادة، وترك النكاح. ومنه قوله تعالى «وتبتل إليه تبتيلاً».

(٢) تتمته كما في الإحياء: أفضل من جميع ما أنا فيه.

(٣) بنية الطريق: طريق صغير يتشعب من الجادة.

(٤) الآية (٢٢٨) سورة البقرة.

عليه. والله سبحانه وتعالىٰ إنما أباح للأزواج إمساك نسائهم علىٰ هذا الوجه، لا علىٰ غيره، فقال تعالىٰ: ﴿فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾[1].

وقالت طائفة: يجب عليه وَطْؤُها في العمر مرة واحدة، ليستقرَّ لها بذلك الصداق! وهذا من جنس القول الأول، وهذا باطل من وجه آخر، فإن المقصود إنما هو المعاشرة بالمعروف، والصداق دخل في العقد تعظيماً لحرمته، وفرقاً بينه وبين السفاح[2]. فوجوب المقصود بالنكاح، أقوىٰ من وجوب الصداق.

وقالت طائفة ثالثة: يجب عليه أن يطأها في كل أربعة أشهر مرة، واحتجوا علىٰ ذلك بأن الله سبحانه وتعالىٰ أباح للمُولي تربُّصُ أربعة أشهر، وخيَّر المرأة بعد ذلك، إن شاءت أن تقيم عنده، وإن شاءت أن تفارقه. فلو كان لها حق في الوطء أكثر من ذلك، لم يجعل للزوج تركَه في تلك المدة.

وهذا القول وإنْ كان أقرب من القولين اللذين قبله، فليس أيضاً بصحيح، فإنه غير المعروف الذي لها وعليها. وأما جعلُ مدة الإيلاء أربعة أشهر، فنظراً منه سبحانه للأزواج، فإن الرجل قد يحتاج إلىٰ ترك وطء امرأته مدةً لعارض من سفر، أو تأديب، أو راحة نفس أو اشتغال بمهم، فجعل الله سبحانه وتعالىٰ له أجلاً أربعة أشهر. ولا يلزم من ذلك أن يكون الوطء مؤقتاً في كل أربعة أشهر مرة.

وقالت طائفة أخرىٰ: بل يجب عليه أن يَطَأَها بالمعروف، كما ينفق عليها ويكسوها ويعاشرها بالمعروف، بل هذا عمدة المعاشرة ومقصودها، وقد أمر

---

(١) الآية (٢٢٩) سورة البقرة.

(٢) السفاح: الفجور. وقيل: (تزوج المرأة سفاحاً) أي: بغير سنة ولا كتاب.

الله سبحانه وتعالىٰ أن يعاشرها بالمعروف. فالوطء داخلٌ في هذه المعاشرة ولابد، قالوا: وعليه أن يُشبعها وَطئاً إذا أمكنه ذلك كما عليه أن يشبعها قوتاً. وكان شيخنا رحمه الله تعالىٰ يرجح هذا القول ويختاره.

وقد حضَّ النبي ﷺ علىٰ استعمال هذا الدواء ورغَّب فيه، وعلق عليه الأجر، وجعله صدقةً لفاعله فقال: «وفي بُضْع أحدِكم صَدَقة»[1].

ومن تراجم النسائي علىٰ هذا: الترغيب في المباضعة، ثم ذكر هذا الحديث، ففي هذا كمال اللذة، وكمال الإحسان إلىٰ الحبيبة، وحصول الأجر، وثواب الصدقة، وفرج النفس، وذهابُ أفكارها الرديئة عنها، وخفةُ الروح، وذهاب كثافتها وغلظها، وخفة الجسم، واعتدالُ المزاج، وجلب الصحة ودفع المواد الرديئة، فإنْ صادف ذلك وجهاً حسناً، وخلقاً دَمِثاً[2]، وعشقاً وافراً، ورغبة تامة، واحتساباً للثواب، فذلك اللذة التي لا يعادلها شيء، ولاسيما إذا وافقتْ كمالها، فإنها لا تكمل حتىٰ يأخذ كلُّ جزءٍ من البدن بقسطه من اللذة، فتلتذ العينُ بالنظر إلىٰ المحبوب، والأذنُ بسماع كلامه، والأنف بشم رائحته، والفم بتقبيله، واليد بلمسه. وتعتكف كل جارحة علىٰ ما تطلبه من لذتها، وتقابله من المحبوب، فإنْ فُقِد من ذلك شيء لم تزل النفس متطلعة إليه، متقاضيةً له، فلا تسكُن كل السكون.

ولذلك تُسمىٰ المرأة سكناً لسكون النفس إليها، قال الله تعالىٰ: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾[3]. ولذلك فُضِّل جماع

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) دَمِث دمثاً: لانَ وسهل، ودمثت المرأة دماثة: سهل خلقها.

(٣) الآية (٢١) سورة الروم.

النهار على جماع الليل، ولسبب آخر طبيعي، وهو أن الليل وقت تبرد فيه الحواس، وتطلب حظها من السكون، والنهار محل انتشار الحركات، كما قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا (٤٧)﴾[١] وقال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾[٢].

وتمام النعمة في ذلك فرحةُ المحب برضاء ربه تعالى بذلك، واحتسابُ هذه اللذ عنده، ورجاء تثقيل ميزانه، ولذلك كان أحب شيءٍ إلى الشيطان أن يفرق بين الرجل وبين حبيبه، ليتوصل إلى تعويض كل منهما عن صاحبه بالحرام، كما في السنن: عنه ﷺ: «أَبغضُ الحَلالِ إلى الله تعالى الطَّلاقُ»[٣].

وفي صحيح مسلم: من حديث جابر رضي الله عنه، عن النبي ﷺ: «إن إبليس يَنْصِبُ عرشَه على الماء ثم يَبُثُّ سَرَاياه[٤] في الناس فأَقربُهُم منه منزلة أعظمهم فتنةً، فيقول أحدُهم: ما زلتُ به حتى زنى، فيقول: يتوب، فيقول الآخر: ما زلت به حتى فَرَّقتُ بينه وبين أهله، فَيُدْنيه ويَلتزمه ويقول: نِعْمَ أنتَ. نعم أنت».

فهذا الوصال لما كان أحب شيء إلى الله ورسوله، كان أبغض شيء إلى

---

(١) الآية (٤٧) سورة الفرقان. والنوم سباتاً: أي راحة وسكوناً، أو جعلناه كالموت. وجعل النهار نشوراً: أي زمن اليقظة التي تشبه الانبعاث بعد الموت.

(٢) الآية (٦٧) سورة يونس.

(٣) رواه أبو داود (٢١٧٨) وابن ماجه (٢٠١٨)، ورجح بعضهم إرساله، انظر التلخيص للحافظ ابن حجر (٣/ ٢٠٥) والارواء (٢٠٤٠).

(٤) سراياه: جنوده وجيوشه، والسرية قطعة من الجيش.

عدو الله، فهو يسعىٰ في التفريق بين المتحابين في الله المحبة التي يحبها الله، ويؤلف بين الاثنين في المحبة التي يبغضها الله ويسخطها.

وأكثرُ العشاق من جنده وعسكره، ويرتقي بهم الحال حتىٰ يصير هو من جندهم وعسكرهم، يقود لهم، ويزين لهم الفواحش، ويؤلْف بينهم عليها كما قيل:

عـــجـــبت من إبليس في نَخْوتِهْ
وقـــبحِ مـــا أظهـــر من ســيـــرتهْ
تــاه عــلى آدم في ســـجـــدةٍ
وصـــار قَـــوّاداً لـذريتـــه[(١)]

وقد أرشد النبي ﷺ الشبابَ - الذين هم مَظِنَّة العشق - إلىٰ أنفع أدويتهم، ففي الصحيحين: من حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يا معشرَ الشَّبابِ، من استطاع منكم البَاءَة فليتزوج، فإنه أَغَضُّ للبصر، وأَحصَنُ للفَرْج».

وفي لفظ آخر ذكره أبو عبيد:

عن عبدالله رضي الله عنه، عن النبي ﷺ: «عليكم بالباءة». وذكر الحديث.

وبين اللفظين فرقٌ، فإن الأول: يقتضي أمر العَزَب بالتزويج، والثاني: يقتضي أمر المتزوج بالباءة، والباءة: اسم من أسماء الوطء. وقوله: «من

(١) البيتان لأبي نواس.

استطاع منكم الباءة فليتزوج» فسرت الباءة بالوطء، وفُسِّرت الباءة بالوطء، وفسرت بمؤن النكاح، ولا ينافي التفسير الأول، إذ المعنىٰ علىٰ هذا مُؤَنُ الباءة، ثم قال: «ومَن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وِجَاءٌ» فأرشدهم إلىٰ الدواء الشافي الذي وُضع لهذا الأمر، ثم نقلهم عنه عند العجز إلىٰ البدل، وهو الصوم فإنه يكسر شهوة النفس، ويضيق عليها مجاري الشهوة، فإن هذه الشهوة تقوىٰ بكثرة الغذاء وكيفيته، فكمية الغذاء وكيفيته يزيدان في توليدها، والصوم يضيق عليها ذلك، فيصير بمنزلة وِجاء الفَحْل[1]، وقلَّ من أَدْمَن الصوم إلا وماتت شهوته أو ضعفت جداً، والصوم المشروع يعدلها، واعتدالها حسنة بين سيئتين، ووسط بين طرفين مذمومين، وهما العُنَّة[2] والغُلْمَة الشديدة المفرطة.

وكلاهما خارجٌ عن الاعتدال وكلا طرفي قصد الأمور ذميم، وخير الأمور أوساطها، والأخلاق الفاضلة كلها وسط بين طرفي إفراط وتفريط، وكذلك الدين المستقيم وَسَطٌ بين انحرافين، وكذلك السنة وسط بين بدعتين، وكذلك الصواب في مسائل النزاع إذا شئت أن تحظىٰ به فهو القول الوسط بين الطرفين المتباعدَين، وليس هذا موضع تفصيل هذه الجملة، فإنا لم نقصد له، وبالله التوفيق.

---

(١) وَجَا الفحل: دقَّ عروق خصيتيه بين حجرين ولم يخرجهما، أو رضَّهما حتى تنفضخا، فيكون شبيهاً بالخصاء.

(٢) العُنَّة: عدم القدرة على إتيان النساء. والغلمة غلبة الشهوة.

الباب التاسع عشر
في ذكر فضيلة الجمال
وميل النفوس إليه على كل حال

إعلم أن الجمال ينقسم قسمين: ظاهر وباطن، فالجمال الباطن هو المحبوب لذاته، وهو جمال العلم والعقل والجود والعفة والشجاعة، وهذا الجمالُ الباطن هو محلّ نظر الله من عبده وموضع محبته، كما في الحديث الصحيح: «إنَّ اللهَ لا يَنظر إلىٰ صُوركم وأموالكم، ولكن يَنظر إلىٰ قلوبكم وأعمالكم»(١).

وهذا الجمال الباطن يزين الصورة الظاهرة، وإن لم تكن ذات جمال، فتكسو صاحبها من الجمال والمهابة والحلاوة بحسب إيمانه، فمن رآه هابه، ومن خالطه أحبه. وهذا أمر مشهود بالعيان، فإنك ترىٰ الرجلَ الصالح المحسن ذا الأخلاق الجميلة من أحلىٰ الناس صورةً، وإن كان أسودَ أو غيرَ جميل، ولاسيما إذا رزق حظا من صلاة الليل فإنها تنور الوجه وتحسنه.

وقد كان بعضُ النساء تُكثر صلاة الليل، فقيل لها في ذلك، فقالت: إنها تُحسِّن الوجه وأنا أحب أن يحسنَ وجهي.

ومما يدلُّ علىٰ أن الجمال الباطن أحسن من الظاهر، أن القلوب لا تنفك عن تعظيم صاحبه، ومحبته والميل إليه.

---

(١) في صحيح مسلم في البر والصلة (٤/ ١٩٨٧) من حيدث أبي هريرة رضي الله عنه .

فصل

وأما الجمال الظاهر فزينةٌ خصَّ الله بها بعضَ الصور عن بعض، وهي من زيادة الخَلق التي قال الله تعالىٰ فيها: ﴿**يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ**﴾(١) قالوا: هو الصوت الحسن والصورة الحسنة. والقلوب كالمطبوعة علىٰ محبته، كما هي مفطورةٌ علىٰ استحسانه.

وقد ثبت في الصحيح: عنه ﷺ أنه قال: «لا يَدخلُ الجنة من كان في قلبه مثقالُ ذرةٍ من كِبْر» قالوا: يا رسول الله، الرجل يحب أن تكون نعله حسنةً، وثوبه حسناً، أفذلك من الكبر؟ فقال: «لا، إنَّ الله جميلٌ يحب الجمال. الكبر بَطَرُ الحقِّ، وغَمْطُ الناس»(٢).

فبطر الحق جحدُه ودفعه بعد معرفته، وغمط الناس النظر إليهم بعين الازدراء والاحتقار والاستصغار لهم. ولا بأس بهذا إذا كان لله. وعلامته أن يكون لنفسه أشدَّ ازدراءً واستصغاراً منه لهم. فأما إن احتقرهم لعظمة نفسه عنده، فهو الذي لا يدخل صاحبه الجنة.

فصل

وكما أن الجمال الباطن من أعظم نعم الله تعالىٰ علىٰ عبده، فالجمال الظاهر نعمة منه أيضاً علىٰ عبده يوجب شكراً، فإن شكره بتقواه وصيانته، ازداد جمالاً علىٰ جماله، وإن استعمل جماله في معاصيه سبحانه، قَلَبَه له شيناً ظاهراً في الدنيا قبل الآخرة، فتعود تلك المحاسن وَحْشة وقُبحاً وشيناً،

---

(١) أول سورة فاطر.

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان (١/ ٩٣) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

وينفُرُ عنه من رآه، فكل من لم يتَّق الله عز وجل في حُسنه وجماله، انقلب قبحاً وشيناً يَشِينه به بين الناس، فحُسنُ الباطن يعلو قبح الظاهر ويستره، وقبحُ الباطن يعلو جمال الظاهر ويستره.

يا حَسَنَ الوجه تَوَق الخَنا[1]

لا تُبْدِلَن الزَّينَ بالشَّين

ويا قبيح الوجه كُن مُحسناً

لا تجمعن بين قبيحين

وكان النبي ﷺ يدعو الناس إلىٰ جمال الباطن بجمال الظاهر.[2]

وقال بعض الحكماء: ينبغي للعبد أن ينظر كل يوم في المرآة، فإن رأىٰ صورته حسنة لم يشنها بقبيح فعله، وإن رآها قبيحة لم يجمع بين قبح الصورة وقبح الفعل.

ولما كان الجمال من حيث هو محبوباً للنفوس، معظماً في القلوب، لم يبعث الله نبياً إلا جميل الصورة، حسن الوجه، كريم الحسب، حسن الصوت، كذا قال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه.

وكان النبي ﷺ أجمل خلق الله، وأحسنهم وجهاً، كما قال البراء بن عازب رضي الله عنه وقد سئل: أكان وجه رسول الله ﷺ مثل السيف؟ قال: لا بل مثل القمر[3].

---

(١) الخنا: الفحش.

(٢) كما جاء في الحديث الصحيح: «اللهم أحسنت خَلْقي، فأحسن خُلقي» رواه أحمد (٦/ ٦٨، ١٥٥) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (٦/ ٥٦٥)، ورواه مسلم عن جابر بن سمرة.

وفي صفته ﷺ: كأن الشمس تجري في وجهه، يقول واصفه: لم أر قبله ولا بعده مثله.[١]

وفي الصحيح: عنه ﷺ أنه رأىٰ يوسف ليلة الإسراء، وقد أُعطي شطر الحسن[٢].

وكان رسول الله ﷺ يستحب أن يكون الرسول الذي يرسل إليه حسن الوجه، حسن الاسم، وكان يقول: «إذا أَبْرَدْتُم إلي بَريداً، فليكن حَسَنَ الوجهِ، حَسَنَ الاسم»[٣].

وقال وهب: قال داود: يارب أي عبادك أحب إليك؟ قال: مؤمنٌ حسن الصورة، قال: فأي عبادك أبغض إليك؟ قال كافر قبيح الصورة.

وقال يحيىٰ بن أبي كثير: دخل رجل علىٰ معاوية غمصاً، يعني رمص[٤] العينين، فحط من عطائه فقال: ما يمنع أحدكم إذا خرج من منزله أن يتعاهد أديم وجهه؟ وكانت عائشة بنت طلحة من أجمل أهل زمانها، أو أجملهم، فقال أنس بن مالك: والله ما رأيت أحسن منك إلا معاوية علىٰ منبر رسول الله ﷺ، فقال: والله لأنا أحسنُ من النار في عين المقرور في الليلة القارَّة.

---

(١) صحيح، أخرجه أحمد (٢/ ٣٨٠) والترمذي (٣٦٤٨) وفي الشمائل (١١٥) وابن حبان (٦٣٠٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه وأوله: ما رأيت شيئاً أحسن من رسول الله ﷺ كأنما الشمس تجري . . . وله طريق آخر عند أحمد (٢/ ٣٥٠).

(٢) رواه مسلم في الإيمان (١/ ١٤٦) من حديث أنس رضي اله عنه.

(٣) رواه البزار (١٩٨٥ ـ زوائد) وإسناده حسن.

(٤) الغمص: ما يسيل من العين من الرمص. والرمص: وسخ أبيض جامد يجتمع في موق العين بعد النوم.

فصل

وهذا فصل في ذكر حقيقة الحُسْن والجمال ما هي؟ وهذا أمر لا يدرك إلا بالوصف، وقد قيل: إنه تناسبُ الخِلْقة واعتدالها واستواؤها. ورب صورةٍ متناسبة الخلقة، وليست في الحسن هناك. وقد قيل: الحسن في الوجه، والملاحةُ في العينين. وقيل: الحُسن أمرٌ مركب من أشياء: وَضَاءة وصباحة، وحسن تشكيل وتخطيط، ودموية في البشرة. وقيل: الحُسْن معنىً لا تناله العبارة، ولا يحيط به الوصف، وإنما للناس منه أوصافٌ أمكن التعبير عنها.

وقد كان رسول الله ﷺ في الذروة العليا منه.

وكَمَّل الله سبحانه له مراتبَ الجمال ظاهراً وباطناً. وكان أحسنَ خلق الله خَلقاً وخُلقاً، وأجملهم صورة ومعنىً.

وهكذا كان يوسف الصديق ﷺ. ولهذا قالت امرأة العزيز للنسوة لما أرتهن إياه ليعذرنها في محبته: ﴿قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ﴾[1] أي: هذا هو الذي فُتنتُ به وشغفت بحبه، فمن يلومنى على محبته وهذا حسن منظره؟ ثم قالت: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾[2]، أي: فمنع هذا الجمال، فباطنه أحسنُ من ظاهره، فإنه في غاية العفة والنزاهة والبعد عن الخنا، والمحب وإن غيب محبوبه فلا يجري لسانه إلا بمحاسنه ومدحه.

ويتعلق بهذا قوله تعالىٰ في صفة أهل الجنة: ﴿وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا (١١)﴾[3] فجمَّل ظواهر هم بالنَّضْرة وبواطنهم بالسرور، ومثله قوله:

(١) الآية (٣٢) سورة يوسف.

(٢) الآية (٣٢) سورة يوسف.

(٣) الآية (١١) سورة الدهر.

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣)﴾(١) فإنه لا شيء أشهىٰ إليهم وأقر لعيونهم، وأنعم لبواطنهم من النظر إليه، فنضَّر وجوههم بالحسن، ونَعَّم قلوبهم بالنظر إليه. وقريب منه قوله تعالىٰ: ﴿وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾(٢) فهذا زينة الظاهر ثم قال: ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا (٢١)﴾(٣) أي مطهراً لبواطنهم من كل أذىٰ. فهذا زينة الباطن. ويشبهه قوله تعالىٰ: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا﴾(٤) فهذا زينة الظاهر، ثم قال: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ﴾(٥) فهذا زينة الباطن. وينظر إليه من طرف خفي قوله تعالىٰ: ﴿وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا﴾(٦) فزينَّ ظاهرَها بالمصابيح، وباطنها بحفظها من الشياطين.

وقريبٌ منه قوله تعالىٰ: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٧)﴾(٧) فذكر الزاد الظاهر، والزاد الباطن. وهذا من زينة القرآن الباطنة المضافة إلىٰ زينة ألفاظه وفصاحته وبلاغته الظاهرة. ومنه قوله تعالىٰ لآدم: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ (١١٨) وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ (١١٩)﴾(٨) فقابل بين الجوع والعُرْىٰ دون الجوع والظمأ، وبين الظمأ والضحىٰ دون الظمأ والجوع، فإن الجوع عُرْىٰ الباطن وذله، والعُرْىٰ جوع الظاهر وذله. فقابل بين نفي ذل باطنه وظاهره، وجوع باطنه وظاهره، والظمأُ حرُّ الباطن، والضَّحىٰ حرُّ الظاهر، فقابل بينهما.

---

(١) الآيتان (٢٢ و٢٣) سورة القيامة.

(٢) الآية (٢١) سورة الدهر.

(٣) الآية ٢١ سورة الدهر.

(٤) الآية ٢٥ سورة الأعراف.

(٥) الآية ٢٥ سورة الأعراف.

(٦) الآية (١٢) سورة فصلت.

(٧) الآية (١٩٧) سورة البقرة.

(٨) الآيتان (١١٨ و١١٩) سورة طه.

وطائفة تفضل السمان وتقول: السِّمَنُ نصفُ الحسن، وهو يستر كل عيب في المرأة ويبدي محاسنها. وخيار الأمور أوساطها.

ومما يستحسن في المرأة طولُ أربعة، وهن: أطرافها[1]، وقامتها، وشعرها، وعنقها. وقِصَر أربعةٍ: يدها، ورجلها، ولسانها، وعينها[2]، فلا تبذل ما في بيت زوجها، ولا تخرج من بيتها، ولا تستطيل بلسانها، ولا تَطْمَح بعينها. وبياض أربعةٍ: لونها، وفرقها، وثغرها، وبياض عينها. وسوادُ أربعة: أهدابها، وحاجبها، وعينها، وشعرها. وحمرةُ أربعة: لسانها، وخدها، وشفتها مع لَعَس[2]، وإشرابُ بياضها بحمرة. ودقة أربعة: أنفها، وبنانها، وخصرها، وحاجبها. وغلَظُ أربعة: ساقها، ومِعْصَمُها، وعَجِيزتها، وذاك منها. وسَعَة أربعة: جبينها، ووجهها، وعينها، وصدرها. وضيق أربعة: فمها، ومنخرها، وخَرْق أذنها، وذاك منها. فهذه أحق النساء بقول كثير:

لو أن عَــزَّةَ خــاصــمت شــمسَ الضــحى

في الحُــسْن عند مُــوَفَّقٍ لقــضى لهــا

وقيل: الحُسْن ما استنطق أفواه الناظرين بالتسبيح والتهليل، كما قيل:

ذي طلعــةٍ ســبــحــان فــالقِ صــبــحــه

ومــعــاطفٍ جلَّت يمينُ الغــارس

---

(١) الأطراف هنا: اليدان والرجلان.

(٢) لعله أراد بها المعاني لا الأعيان فلهذا أعقبها بتفسير وبيان.

(٣) اللعس: سواد مستحسن في باطن الشفه.

وقال آخر :

ذو صورةٍ بشريةٍ قَمَرية

تَستنطق الأفواه بالتسبيح

قال ابن شبرمة : كفاك من الحُسن أنه مشتق من الحَسَنة . وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : إذا تم بياض المرأة ، في حسن شعرها فقد تم حسنها . وقالت عائشة رضي الله عنها : البياض شَطْر الحُسن . وقال بعض السلف : جعل الله البهاء والهَوَج مع الطول ، والدهاء والدَّمامة مع القصر ، والخير فيما بين ذلك .

ومما يذم في النساء : المرأة القصيرة الغليظة .

ومما يُستحسن في المرأة : رقةُ أديمها[1] ، ونعومةُ مَلْمسة ، كما قال قيس بن ذريح :

يكاد مسيل الماءَ يخْدِشُ جلدَها

إذا اغتسلتْ بالماء من رقة الجِلْد

ولي من أبيات :

يُدمي الحرير أديمَها من مسّه

فأديمُها منه أرقُّ وأنعمُ

(١) أديمها : جلدها .

فصل

فيا أيها العاشق سمُعه قبل طَرْفه، فإن الأذن تعشق قبل العين أحياناً، وجيش المحبة قد يدخل المدينة من باب السمع، كما يدخلها من باب البصر. والمؤمنون يشتاقون إلىٰ الجنة وما رأوها، ولو رأوها لكانوا أشدَّ لها شوقاً، والصَّرُورة[1] يكاد قلبه يذوب شوقاً إلىٰ رؤية البيت الحرام. فإن شاقتك هذه الصفات، وأخذت بقلبك هذه المحاسن:

فاسْمُ بعينيك إلى نسوة ... مُهُورُهنَّ العملُ الصالح

وحدِّث النفسَ بعشق الأُلى ... في عشقهن المتجرُ الرابح

واعمل على الوصل فقد أمكنت ... أسبابُه ووقتها رائح

فصل

وقد وصف الله سبحانه حُورَ الجنة بأحسن الصفات، وحلاهن بأحسن الحِلىٰ، وشوّق الخُطَّاب إليهن حتىٰ كأنهم يرونهن رؤية العين.

وقد وصفهن الله عز وجل بأنهن كواعب، وهو جمع كاعب، وهي المرأة

(١) الصرورة: الذي لم يحج.

التي قد تَكعَّب ثديها واستدار، ولم يَتَدلَّ إلىٰ أسفل، وهذا من أحسن خلق النساء، وهو ملازمٌ لسنِّ الشباب. ووصفهن بالحور، وهو حسن ألوانهن وبياضه، قالت عائشة رضي الله عنها: البياض نصف الحسن.

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إذا تم بياض المرأة في حسن شعرها فقد تم حسنها. والعرب تمدح المرأة بالبياض.

والعين: جمع عيناء، وهي المرأة الواسعة العين مع شدة سوادها وصفاء بياضها، وطول أهدابها وسوادها. ووصفهن بأنهن خيرات حسان وهو جمع خيرة، وأصلها خيرة بالتشديد كطيبة ثم خفف الحرف، وهي التي قد جمعت المحاسن ظاهراً وباطناً، فكمل خَلقها وخُلقها، فهن خيرات الأخلاق، حسان الوجوه، ووصفهن بالطهارة فقال: ﴿ولهم فيها أزواج مطهرة﴾[1] طهرن من الحيض والبول والنجو[2]، وكل أذىٰ يكون في نساء الدنيا، وطهرت بواطنهن من الغيرة، وأذىٰ الأزواج، وتجنيهن عليهم، وإرادة غيرهم، ووصفهن بأنهن مقصورات في الخيام، أي: ممنوعات من التبرج والتبذل لغير أزواجهن، بل قد قصرن علىٰ أزواجهن، لا يخرجن من منازلهم، وقصرن عليهم فلا يردن سواهم، ووصفهن سبحانه بأنهن قاصرات الطرف، وهذه الصفة أكمل من الأولىٰ، ولهذا كن لأهل الجنتين الأوليين، فالمرأة منهن قد قصرت طرفها علىٰ زوجها، من محبتها له ورضاها به، فلا يتجاوز طرفها عنه إلىٰ غيره.

وكذلك حال المقصورات أيضاً، لكن أولئك مقصورات، وهؤلاء قاصرات.

---

(١) الآية (٢٥) سورة البقر. والآية (٥٦) بغير واو. سورة النساء.

(٢) النجو: ما يخرج من البطن من ريح وغائط.

ووصفهن سبحانه بقوله: ﴿فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا (٣٦) عُرُبًا أَتْرَابًا (٣٧)﴾[١] وذلك لفضل وطء البكر، وحلاوته ولذاذته، على وطء الثيب[٢].

قالت عائشة رضي الله عنها: يا رسول الله، لو مررت بشجرة قد رُعي منها، وشجرة لم يرع منها، ففي أيهما كنت تُرتع بعيرك؟ فقال: «في التي لم يُرع منها»[٣] تعني: أنه لم يتزوج بكراً غيرها.

وصح عنه: أنه قال لجابر لما تزوج امرأة ثيباً: «هلا بكراً تلاعبها وتلاعبك؟»[٤]

فإن قيل: فهذه الصفة تزول بأول وطء فتعود ثيباً، قيل: الجواب من وجهين: أحدهما أن المقصود من وطء البكر أنها لم تَذُق أحداً قبل وطئها فتزرع محبته في قلبها، وذلك أكمل لدوام العشرة، فهذه بالنسبة إليها، وأما بالنسبة إلى الواطئ: فإنه يرعى روضة أنفاً لم يرعها أحد قبله، وقد أشار تعالى إلى هذا المعنى بقوله: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ (٥٦)﴾[٥].

ثم بعد هذا تستمر له لذة الوطء حال زوال البكارة.

---

(١) الآيتان (٣٧، ٣٨) سورة الواقعة.

(٢) الثيب: تذكر وتؤنث. والرجل الثيب هو الذي دخل بامرأة، والمرأة الثيب هي التي دخل بها.

(٣) رواه البخاري في كتاب النكاح (٩/ ٥٠٧٧).
ورتعت البعير: أكلت ما شاءت.

(٤) جزء من حديث رواه البخاري في المغازي (٧/ ٣٥٧) وفي النكاح (٩/ ١٢١) وفي النفقات (٩/ ٥١٣) ومسلم في الرضاع (٢/ ١٠٨٧ـ١٠٨٨).

(٥) الآيتان (٥٦ و٧٤). سورة الرحمن.

والثاني: أنه قد روىٰ «أن أهل الجنة كلما وطئ أحدهم امرأة عادت بكراً كما كانت، فكلما أتاها وجدها بكراً»[١].

وأما العُرُبُ فجمع عروب، وهي التي جمعت إلىٰ حلاوة الصورة حسن التأني والتبعل والتحبب إلىٰ الزوج، بِدَلِّها وحديثها وحلاوة منطقها وحسن حركاتها، قال البخاري في صحيحه: وأما الأتراب فجمع تِربٍ يقال: فلان تربي، إذا كنتما في سن واحد، فهن مستويات في سن الشباب لم يقصر بهن الصغر، ولم يُزْرِ بهن الكبر، بل سنُّهن سن الشباب.

وشبههن تعالىٰ باللؤلؤ المكنون، وبالبيض المكنون، وبالياقوت والمرجان. فخذ من اللؤلؤ: صفاءَ لونه، وحسنَ بياضه، ونعومة ملمسه، وخذ من البيض المكنون، وهو المصون الذي لم تنله الأيدي: اعتدال بياضه، وشوبه بما يحسنه من قليل صفرة، بخلاف الأبيض الأمهق[٢] المتجاوز في البياض، وخذ من الياقوت والمرجان: حسن لونه في صفائه، وإشْرابه بيسير من الحمرة.

فصل

فاسمع الآن وصفهن عن الصادق المصدوق، فإن مالت النفس وحدثتك بالخِطبة، وإلا فالإيمان مدخول[٣]. فروىٰ مسلم: عن محمد بن سيرين قال:

---

(١) رواه الطبراني في معجمه الصغير (٢٤٩) والبزار (٣٥٢٧) من حديث أبي سعيد، وقال الهيثمي: وفيه معلى بن عبدالرحمن الواسطي وهو كذاب. وله طرق وألفاظ أخرى لا تصح أيضاً.

(٢) الأمهق: الأبيض الناصع البياض بغير حمرة، وهو معيب في لون الإنسان.

(٣) مدخول: داخله الفساد.

إما تفاخروا وإما تذاكروا، الرجالُ في الجنة أكثر أم النساء؟ فقال أبو هريرة رضي الله عنه: أو لم يقل أبو القاسم ﷺ: «إن أول زُمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر، والتي تليها على أضوء كوكب دُريٍّ في السماء إضاءة، لكل امرئ منهم زوجتان اثنتان يُرى مُخُّ سوقهما من وراء اللحم، وما في الجنة أعزب». (١)

وروى الطبراني في معجمه: عن عبدالله رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «أولُ زُمرة يدخلون الجنة كأن وجوههم صورة القمر ليلة البدر، والزمرة الثانية على أحسن كوكب دري في السماء، لكل واحد منهم زوجتان من الحور العين، على كل زوجة سبعون حُلَّة، يرى مخ سوقهما من وراء لحومهما وحللهما، كما يرى الشراب الأحمر في الزجاجة البيضاء». (٢)

قال الحافظ أبو عبدالله المقدسي: هذا عندي على شرط الصحيح.

وفي الصحيحين: من حديث همام بن منبه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أول زمرة تَلِج الجنة صُوَرهم على صورة القمر ليلة البدر، لا يبصقون فيها ولا يَمتخطون فيها ولا يتغوَّطون فيها، آنيتُهم وأمشاطهم الذهب والفضة، ومَجَامرهم الأَلُوَّة ورشحهم المسك، ولكل

---

(١) رواه مسلم في الجنة وصفة نعيمها (٤/ ٢١٧٨).

(٢) صحيح، رواه الطبراني في الكبير (١٠٣٢١) وفي الأوسط (٩١٥) والبزار (٣٥٣٦ ـ زوائد) وأبو نعيم في صفة الجنة (٢٥٤).

قال الهيثمي (١٠/ ٤١١): وإسناد ابن مسعود صحيح. وله شاهد عن أبي سعيد، رواه الترمذي (٢٥٢٢، ٢٥٣٥) وفيه: العوفي وهو مدلس ضعيف. ورواه أحمد (٣/ ١٦) من وجه آخر حسن دون قوله: «كما يرى الشراب...».

واحد منهم زوجتان يرىٰ مخ ساقهما من وراء اللحم من الحُسن، لا اختلاف بينهم ولا تباغض، قلوبُهم علىٰ قلب واحد، يسبِّحون الله بكرةً وعشية»(١).

وروىٰ الإمام أحمد بن حنبل في مسنده: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: قِيدُ سوط أحدكم في الجنة خيرٌ من الدنيا ومثلها معها، ولقابُ قوسِ أحدكم من الجنة خيرٌ من الدنيا ومثلها معها، ولَنَصِيفُ امرأةٍ من الجنة خير من الدنيا ومثلها معها» قال: قلت: يا أبا هريرة، وما النصيف؟ قال: الخمار.(٢)

فإذا كان هذا قدر الخمار فما قدر لابسه؟

وفي صحيح البخاري: من حديث أنس رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «لغدوة في سبيل الله أو روحة خيرٌ من الدنيا وما فيها، ولقابُ(٣) قوس أحدكم أو موضع قيده - يعني سوطه - خير من الدنيا وما فيها، ولو اطّلعت امرأةٌ من نساء الجنة إلىٰ الأرض لملأت ما بينهما ريحاً، وأضاءت ما بينهما، ولنصيفها علىٰ رأسها خير من الدنيا وما فيها»(٤).

---

(١) رواه البخاري في بدء الخلق (٦/ ٣١٨) ومسلم في الجنة (٤/ ٢١٨٠). ورواه البخاري أيضاً (٦/ ٣١٨ ـ ٣١٩) ومسلم (٤/ ٢١٧٩) من طرق عن أبي هريرة رضي الله عنه. الألوة: العود الهندي الذي يتبخر به.

(٢) حديث صحيح لغيره، رواه أحمد (٢/ ٤٨٣) ففي سنده: الخزرج بن عثمان فيه ضعف، وأبو أيوب مولى لعثمان بن عفان، حديثه حسن. ويشهد للحديث ما في الصحيح.

(٣) قاب القوس: ما بين مقبضه وطرفه.

(٤) رواه البخاري في الجهاد (٦/ ١٥) وغيره.

وفي المسند: عن أبي هريرة رضي الله عن النبي ﷺ: «للرجل من أهل الجنة زوجتان من الحور العين، على كل واحدة سبعون حُلة، يُرى مخَّ ساقها من وراء الثياب»(١).

فصل

فإن أردت سماع غنائهن، فاسمع خبره الآن. ففي معجم الطبراني: من حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: رسول الله ﷺ. «إن أزواجَ أهلِ الجنة ليغنين أزواجهن بأحسنِ أصواتٍ ما سمعها أحد قط. إن مما يغنين به: نحن الخيرات الحسان، أزواج قومٍ كرام، ينظرن بقُرّة أعيان. وإن مما يغنين به: نحن الخالداتُ فلا يَمُتْنه، نحن الآمنات فلا يَخفنه، نحن المقيمات فلا يَظْعنَّه»(٢).

وقد قيل في قوله تعالى: ﴿فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ (١٥)﴾(٣): إنه السماع الطيب، ولا ريب أنه من الحَبْرة.

فصل

فهذا وصفهن وحسنهن، فاسمع الآن لذة وصالهن وشأنه.

ففي صحيح مسلم: من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «إن للمؤمن في الجنة لخيمةً من لؤلؤة واحدة مُجوَّفة، طولها

(١) المسند (٢/ ٣٤٥) وسنده صحيح.

(٢) رواه الطبراني في الأوسط (٤٩١٧) والصغير (١/ ٢٥٩ ـ ٢٦٠) وعنه أبو نعيم في صفة الجنة (٤٣٠) وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٥٥٧).

(٣) الآية (١٥) سورة الروم.

ستون ميلاً، للمؤمن فيها أهلون، يَطُوف عليهم المؤمن، فلا يرىٰ بعضهم بعضاً»[1]. رواه البخاري وقال: ثلاثون ميلاً[2].

وفي جامع الترمذي: من حديث أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يُعطىٰ المؤمن في الجنة قوة كذا وكذا من النساء» قلت: يا رسول الله، ويطيق ذلك؟ قال: «يُعطىٰ قوة مائة». قال: هذا حديث صحيح غريب[3].

وفي معجم الطبراني: من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قيل: يا رسول الله، هل نصل إلىٰ نسائنا في الجنة؟ فقال: «إن الرجل ليصلُ في اليوم إلىٰ مائة عذراء» وفي لفظ: قلنا: يا رسول الله، نُفضي إلىٰ نسائنا في الجنة؟ فقال: «إي والذي نفسي بيده، إن الرجل لَيُفضي في الغداة الواحدة إلىٰ مائة عذراء».

قال الحافظ أبو عبدالله المقدسي: ورجال هذا الحديث عندي علىٰ شرط الصحيح[4].

---

(١) صحيح مسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها (٤/ ٢١٨٢).

(٢) صحيح البخاري: في بدء الخلق (٦/ ٣١٨) وفي التفسير (٨/ ٦٢٤).

(٣) حديث صحيح، رواه الترمذي (٢٥٣٦) من طريق الطيالسي (٢٠١٢) والطبراني في الأوسط (٢٥١٧) وصححه ابن حبان (٧٤٠٠) عن عمران القطان عن قتادة عن أنس رضي الله عنه.
وأخرجه البزار (٣٥٢٦) وأبو نعيم في صفة الجنة (٣٧٢) من وجهين عن أنس.
وله شاهد: من حديث زيد بن أرقم عند الدارمي (٢/ ٣٣٤) وأحمد (٤/ ٣٦٧) وابن حبان (٧٤٢٥) وغيرهم.

(٤) حديث صحيح، أخرجه الطبراني في الصغير (٢/ ١٢-١٣) والبزار (٣٥٢٥ - زوائد) وأبو نعيم في صفة الجنة) والخطيب في تاريخه (١/ ٣٧١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
قال الهيثمي: رواه البزار والطبراني، ورجال هذه الرواية رجال الصحيح، غير محمد بن ثواب، وهو ثقة (١٠/ ٤١٧).
=

من قصيدة للمؤلف في وصف الحور[1]

يا خاطِب الحور الحسان وطالباً
لوصالهن بجنة الحَيَوان

لو كنتَ تدري مَنْ خطبتَ ومن طلـ
ـبت بذلتَ ما تَحوي من الأثمان

أوْ كنتَ تعرفُ أين مسكنها جعلـ
ـتَ السعي منك لها على الأجفان

أسرع وحُثَّ السيرَ جُهدك إنما
مسراك هذا ساعةٌ لزمان

فاعشق وحدِّث بالوصال النفس وابـ
ـذل مهرها ما دمت ذا إمكان

واجعل صيامك دون لقياها ويو
مَ الوصل يوم الفطر من رمضان

= ورواه أبو يعلى في مسنده (٢٤٣٦) وأبو نعيم في صفة الجنة (٣٧٤) من حديث هشام بن حسان عن زيد الحواري عن ابن عباس مرفوعاً به . وهذا ضعيف منقطع ، الحواري ضعيف ولم يسمع من ابن عباس .

ويشهد للحديث : حديث أنس السابق .

(١) هي قطعة من قصيدة المؤلف في السنة سماها : «الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية» وتعرف أيضاً : بـ «نونية ابن القيم» وقد شرحها العلامة أحمد بن عيسى ، والشيخ محمد خليل الهراس رحمهما الله تعالى ، وكلاهما مطبوع .

واجعل نعوتَ جمالها الحادي وسِرْ

نحو الحبيب ولستَ بالمتواني

واسمعْ إذن أوصافها ووِصَالها

واجعلْ حديثك ربّةَ الإحسان

يا من يطوفُ بكعبةِ الحُسن التي

حُفَّت بذاك الحجر والأركان

ويظل يسعى دائماً حول الصفا

ومُحَسِّر مسعاه كلَّ أوان

ويرومُ قربان الوصال على مِنى

والخَيْفُ يحجبه عن القُربان

فلذا تراه محرماً أبداً ومو

ضعُ حلَّةٍ منه فليس بدان

يبغي التمتع مفرداً عن حبه

متجرِّداً يبغي شفيعَ قِران

ويظل بالجَمَرات يرمي قلبَه

هذي مناسكه بكلِّ زمانِ

والناس قد قَضَّوا مناسكهم وقد

حَثُّوا ركائبهم إلى الأوطان

وحَـــدَتْ بهم همٌّ لهم وعـــزائمٌ
نحـــو المنازل ربَّة الإحـــســـان

رُفـعتْ لهم في الســير أعـلام الوِصا
ل فشـمَّروا يا خـيبة الكسلان

ورأوا على بُعـدٍ خـيامـاً مشـرفـا
تٍ مشـرقـاتِ النور والبـرهانِ

فـتيـمموا تلك الخيام فآنسوا
فيهن أقـمـاراً بلا نُقـصـان

من قـاصـرات الطَّرْف لا تبـغي سـوى
محـبوبها من سـائر الشـبـان

قَـصَـرَت عليه طَرْفَـها من حسنه
والطرف منه مُطْلقٌ بأمـان

ويَحـار منه الطرفُ في الحسن الذي
قد أُعطيت فالطرفُ كالحيران

ويقـول لما أنْ يُشـاهدَ حُسنهـا
سـبحان مُعطي الحُسن والإحسان

والطَّرف يشـرب من كؤوس جمـالها
فـتـراه مـثل الشارب النشـوان

كَمُلت خلائقُها وأكمل حسنُها
كالبدر ليلَ الستِ بعد ثمان

***

والشمسُ تجري في محاسن وجهها
والليلُ تحت ذوائبِ الأغصان
فَيَظلُّ يعجب وهو موضعُ ذاك من
ليلٍ وشمس كيف يجتمعان
ويقول سبحان الذي ذا صنعُهُ
سبحان مُتْقن صنعة الإنسان
لا الليل يدرك شمسها فتغيب عنـ
ـد مجيئه حتى الصباح الثاني
والشمسُ لا تأتي بطرد الليل بل
يتصاحبان كلاهما أخوان
وكلاهما مرآةُ صاحبه إذا
ما شاء يُبصر وجهه يَرَيَان
فيرى محاسنَ وجهه في وجهها
وترى محاسنها به بعيان

حُـــــمـــــر الخــــدود ثـغـــــوُرهن لآلـئٌ

ســـودُ العـــيـــون فـــواتر الأجـــفـــان

والبـــرق يُبـــدو حينَ يبْـــسِمُ ثُغـــرُها

فـــيـــضيءُ ســـقف القـــصـــر بالجـــدران

رَيَّانة الأعطاف من مـــاء الشـــبـــا

ب فـــغـــصنُهـــا بالماء ذو جَـــرَيان

لما جَـــرَى مـــاءُ النعـــيم بغـــصنهـــا

حـــمل الثـــمـــارَ كـــثـــيـــرةَ الألوان

فـــالورد والتـــفـــاح والرمـــان في

غـــصنٍ تعـــالى غـــارسُ البـــســـتـــان

والقـــدُّ منهـــا كـــالقـــضـــيب اللَّدْن في

حـــسن القـــوام كـــأوسط القـــضـــبـــان

في مَـــغْـــرسٍ كـــالعـــاج تحـــسـب أنه

عـــالى النقـــا[1] أو واحـــدُ الكُثْـــبـــان

لا الظـهـــر يلحـــقـــه وليسُ ثديُهـــا

بـلـــواحـــقٍ لـلـــبـــطـــن أو بـــدَوَان

(١) النقا : الكثيب من الرمل .

لـكـنـهـن كـواعـبٌ ونـواهـد
فـشُـدِيهُن كـأحـسـن الرُّمـان

والجـيـد ذو طـول وحـسـن في بيـا
ضٍ واعـتـدالٍ لـيـس ذا نـكـران

يـشـكـو الحُلِىُّ بـعـاده فـلـه مـدى الـ
أيـام وسـواسٌ مـن الـهـجـران

والمعـصـمـان فـإن تشـأْ شـبِّـهْـهـمـا
بـسـبـيكتين علـيـهـمـا كـفَّـان

كـالـزبـد لـيـنـاً في نـعـومـة مَلْمسٍ
أصـداف درٍّ دُورت بـوزان

والـصـدر مـتـسـعٌ علـى بـطـنٍ لـهـا
والخـصـرُ منهـمـا مـغـرمٌ بـشـمـان

وعـلـيـه أحـسـن سـرة هي زيـنـةٌ
لـلـبـطـن قـد غَـارت من الأَعـكـان(١)

حُقٌّ من الـعـاج اسـتـدار وحـشـوُه
حـبْـات مـسـكِ جَّل ذو الإتـقـان

---

(١) جمع عكنة : الطي الذي في البطن من السمن .

وإذا نـزلـتَ رأيـتَ أمـــــــــــــراً هـائـلاً

مــــا للصـــفــــات عليـــــه من سلطان

لا الحـــــــيضُ يغــــشـــــاه ولا بـولٌ ولا

شـيءٌ مـن الآفــــات فـي الـنـســــــوان

فـــخـــذان قـــد حُـــفَّــا به حَـرَسـاً له

فــــجنابُـه في عـــــزَّة وصِــــيــــان

قـــامـــا بخـــدمـــتـــه هو السلطان بين

هـمــــــــاوحق طـاعـــــــة الـسـلـطـان

وهو المطاع فــهــو الشِّــفــاء لصــبــهــا

فـــالـصبُّ منه ليس بالضَّــجْــران

وإذا أتاها عــــــادت الحــــسـنـاء بكـراً

مـــثل مــــا كـــانـت مـــدى الأزمـــان

وهــو الـشـــــــــــهـي ألـذُّ شـيءٍ هـكـذا

قـــــال الـرســـــــولُ لمـن لـه أذنـان

يارب غـــــفـــــراً قـــد طَغت أقـــلامنا

يـارب مـــعـــــذرة من الـطـغــــيـــان

أقـــدامُـــهـــا من فـــضـــةٍ قـــد ركِّـــبت

من فـــوقـــهـــا ســـاقـــان ملتــفَّـــان

والساق مثلُ العاج ملمومٌ به

مُخُّ العظامِ تناله العينان

والريحُ مسكٌ والجسومُ نواعمٌ

واللونُ كالياقوت والمرجان

وكلامها يَسبي العقول بنغمةٍ

زادت على الأوتار والعيدان

وهي العَرُوب بشكلها وبِدلِّها

وتحبُّبٍ للزوج كل أوان

أترابُ سِنٍّ واحدٍ متماثل

سنُّ الشباب لأجمل الشُّبَّان

بكرٌ فلم يأخذ بكارتها سوى الـ

محبوب من إنسٍ ولا من جان

يُعطي المُجامع قوةَ المائة التي

اجتمعت لأقوى واحد الإنسان

ولقد أتانا أنه يغشى بيو

مٍ واحدٍ مائةً من النسوان

ورجاله شَرْطُ الصحيح رَوَوا لهم

فيه وذا في معجم الطبراني

وبذاك فُسِّر شُغلهم في سورةٍ
من بعد فاطر[1] يا أخا العِرفان

***

هذا دليلٌ أن قَدْرَ نسائهم
متفاوتٌ بتفاوتِ الإيمان

وبه يزول توهُّم الإشكال عن
تلك النصوص بمنّة الرحمن

في بعضها مائة أتى وأتى بها
سبعون أيضاً ثم جا ثنتان

فتفاوت الزوجات مثل تفاوت الـ
درجات فالأمران مختلفان

وبقوة المائة التي حَصَلَتْ له
أفضى إلى مائةٍ بلا خَوَران

وأعفُّهم في هذه الدنيا هو
الأقوى هناك لزهده في الفاني

(١) يشير إلى قوله تعالى في سورة يس ﴿إن أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون﴾ فقد فسر كثير من السلف «الشغل» في هذه الآية : بافتضاض الأبكار ، انظر تفسير الطبري وابن كثير رحمهما الله تعالى .

فاجمع قِواك لما هنا وغُضّ منـ
ك الطرف واصبر ساعةً لزمان
ما هاهنا والله ما يسوى قُلا
مةَ ظفر[1] واحدةٍ من النسوان
ونصيفُها خيرٌ من الدنيا وما
فيها إذا كانت من الأثمان
لا تُؤْثر الأدنى على الأعلى فإن
تفعلْ رجعتَ بذلةٍ وهوان
وإذا بدتْ في حُلَّةٍ من لبسها
وتمايلت كتمايل النشوان
تهتز كالغصنِ الرطيب وحملُه
ورد وتفاح على رُمَّان
وتبخترت في مشيها ويحق ذا
ك لمثلها في جنة الرضوان
ووصائفٌ من خلفها وأمامها
وعلى شمائلها وعن أيمان

(١) قلامة الظفر : ما سقط منه .

كـــــالبـــــــدر ليلة تمِّه قــــــد حُفَّ في

غَـــــسِقِ الـدُّجى بكـواكـب الميـــــزان[1]

فـلســـــــانـه وفـــــــؤادُه والـطـرفُ في

دهَش وإعـــجـــاب وفي ســـبـــحـــان

تَســـتنطقُ الأفـــواهَ بـالتـــســبـــيح إذ

تبـــدو فـــســـبــحـــان العظيمِ الشـــان

والقلب قـــبـل زفـــافــهـــا في عُـــرسـه

والعـــرس إثرَ العـــرس مـــتـــصـــلان

حـــتى إذا واجـــهـــتـــه تقـــابلا

أرأيت إذا يتـــقـــابـل القـــمـــران

فـــسل المتَـــيَّم هل يَحِلّ الصـــبـــرُ عن

ضمٍّ وتـقـــبـــيـل وعـن فَـلَـتـــان

وسـل المتـــيـم أين خـلـف صـــبـــره

فـــي أيِّ وادٍ أم بـــأي مـــكـــان

وسل المتـــيم كـــيف حـــالتـــه وقـــد

مُـلِـئـتْ لـه الأذنـان والـعـــيـنـان

(١) الغسق : أول ظلمة الليل . والدجى : الظلمة .

من منطق رقت حواشيه
ووجهِ كم به للشمس من جريان

وسَلِ المتيم كيف عيشتُه إذاً
وهما على فرشَيْهما خِلْوان

يتساقطان لآلئاً منثورةً
من بين منظوم كنظم جُمان(١)

وسل المتيَّم كيف مجلسهُ مع الـ
محبوب في رَوْحٍ وفي ريحان(٢)

وتدور كاساتُ الرحيق عليهما
بأكف أقمارٍ من الولدان

يتنازعان الكأسَ هذا مرةً
والخود أخرى ثم يَتَّكئان

فيضمها وتضمه أرأيت معـ
شوقين بعد البُعد يلتقيان

غاب الرَّقيبُ وغاب كلُ منكِّدٍ
وهما بثوب الوصل مشتملان

(١) جمع جمانة : حبة تعمل من الفضة كالدرة .

(٢) روح وريحان : في راحة ، وريحان وهو الطيب المعروف . وقيل : هو اسم لكل لذة بدنية .

أتراهمـــا ضَـــجِـــرين من ذا العـــيش لا

وحـــيـــاةِ ربك مـــاهمـــا ضَـــجِـــران

***

يا عـــاشـــقـــاً هانتْ عليـــه نفـــسُـــه

إذ بـاعـــهـــا غَـــبْـنـاً بـكـل هَـوَان

أتـرى يـلـيـق بـعـــاقـلٍ بـيـعُ الـذي

يبـــقى ـ وهـذا وصـــفـــه ـ بـالفـــاني

الباب العشرون

في علامات المحبة وشواهدها

وقبل الخوض في ذلك، لابد من ذكر أقسام النفوس ومحابها، فنقول:

النفوس ثلاثةٌ: نفس سماوية علوية، فمحبتها منصرفة إلى المعارف، واكتساب الفضائل، والكمالات الممكنة للإنسان، واجتناب الرذائل، وهي مشغوفة بما يقرب بها من الرفيق الأعلى، وذلك قوتها وغِذاؤُها ودواؤها، فاشتغالها بغيره هو داؤُها.

ونفسٌ سبعية غضبية، فمحبتها منصرفة إلى القهر والبغي، والعُلو في الأرض والتكبر، والرئاسة على الناس بالباطل، فلذتها في ذلك وشغفها به.

ونفسٌ حيوانية شهوانية، فمحبتها منصرفة إلى المأكل والمشرب والمنكح، وربما جمعت الأمرين فانصرفت محبتها إلى العلو في الأرض والفساد، كما قال الله تعالى: ﴿**إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ④**﴾[١].

وقال في آخر السورة: ﴿**تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ⑧③**﴾[٢]، والحب في هذا العالم دائرٌ بين هذه النفوس الثلاثة، فأي نفسٍ منها صادفت ما يلائم طبعها، استحسنته ومالت إليه، ولم تصغ فيه لعاذل، ولم تأخذها فيه لومةُ لائم. وكل قسمٍ من هذه الأقسام يرون أن ما هم فيه أولى بالإيثار، وأن الاشتغال بغيره، والإقبال على

(١و٢) الآيتان (٤ و٨٣) سورة القصص.

سواه غَبْنٌ وفوات حظ . فالنفسُ السماوية بينها وبين الملائكة والرفيق الأعلىٰ مناسبةٌ طبعية، بها مالت إلىٰ أوصافهم وأخلاقهم وأعمالهم .

فالملائكة أولياء هذا النوع في الدنيا والآخرة، قال الله تعالىٰ : ﴿**إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠) نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ (٣١) نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ (٣٢)**﴾[١] .

فالمَلَك يتولّىٰ من يناسبه بالنصح له والإرشاد، والتثبيت والتعليم، وإلقاء الصواب علىٰ لسانه، ودفع عدوه عنه، والاستغفار له إذا زل، وتذكيره إذا نسي، وتسليته إذا حزن، وإلقاء السكينة في قلبه إذا خاف، وإيقاظه للصلاة إذا نام عنها، وإيعاد صاحبه بالخير، وحضّه علىٰ التصديق بالوعد، وتحذيره من الركون إلىٰ الدنيا، وتقصير أمله وترغيبه فيما عند الله . فهو أنيسُه في الوحدة، ووليه ومعلمه ومثبته، ومسكن جأشه، ومرغبه في الخير، ومحذره من الشر، يستغفر له إن أساء، ويدعو له بالثبات إن أحسن، وإن بات طاهراً يذكر الله بات معه في شعاره[٢]، فإن قصده عدوٌ له بسوء وهو نائمٌ دفعه عنه .

فصل

والشياطينُ أولياء النوع الثاني، يُخرجونهم من النور إلىٰ الظلمات، قال الله تعالىٰ : ﴿**تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ**

---

(١) الآيات : (٣٠ و٣١ و٣٢) سورة فصلت .

(٢) الشعار : ما تحت الدثار من اللباس، وهو : ما يلي الجسد .

وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ﴾[1] وقال تعالىٰ: ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلاَّهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ (٤)﴾[2] وقال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا (١١٩) يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا (١٢٠) أُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا (١٢١)﴾[3]، وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً (٥٠)﴾[4].

فهذا النوع بين نفوسهم وبين الشياطين مناسبةٌ طبعية، بها مالت إلىٰ أوصافهم وأخلاقهم وأعمالهم، فالشياطينُ تتولاهم بضد ما تتولىٰ الملائكة لمن ناسبهم، فتؤُزُّهم إلىٰ المعاصي أزّاً، وتزعجهم إليها إزعاجاً لا يستقرُّون معه، ويزينون لهم القبائح ويخففونها علىٰ قلوبهم، ويحلونها في نفوسهم، ويثقلون عليها الطاعات ويُثَبِّطونهم[5] عنها، ويُقَبِّحونها في أعينهم، ويلقون علىٰ ألسنتهم أنواع القبيح من الكلام وما لا يفيد، ويزينونه في أسماع مَنْ يسمعه منهم، يبيتون معه حيث باتوا، ويَقيلون[6] معهم حيث قالوا، ويشاركونهم في أموالهم وأولادهم ونسائهم، يأكلون معهم، ويشربون معهم، ويجامعون معهم، وينامون معهم، قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ

(١) الآية ٦٣ سورة النحل.
(٢) الآية (٤) سورة الحج.
(٣) الآيات (١١٨ و١١٩ و١٢٠) سورة النساء.
(٤) الآية ٥٠ سورة الكهف.
(٥) ثبطه عن الأمر ثبطاً وتثبيطاً: عَوَّقه وبطأ به عنه، وفسره الجوهري بشغله عنه. ومنه قوله تعالى: ﴿ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم﴾ التوبة: ٤٦.
(٦) قال يقيل قيلاً وقيلولة: نام واستراح وقت القيلولة، وهي نصف النهار.

قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾ ﴾[1] وقال تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ ﴾[2].

فصل

وأما النوع الثالث: فهم أشباه الحيوان، ونفوسُهم أرضيةٌ سفلية لا تبالي بغير شهواتها، ولا تريد سواها. إذا عرفتَ هذه المقدمة، فعلامات المحبة قائمة في كل نوع بحسب محبوبه ومراده، فمن تلك العلامات تَعرف من أي هذه الأقسام هو، فنذكر فصولاً من علامات المحبة التي يُستَدل بها عليها:

فمنها: إدمانُ النظر إلى الشيء، وإقبال العين عليه، فإنَّ العين بابُ القلب، وهي المعبِّرةُ عن ضمائره، والكاشفة لأسراره. وهي أبلغ في ذلك من اللسان، لأنَّ دلالتها حالية بغير اختيار صاحبها، ودلالةُ اللسان لفظيةٌ تابعة لقصده، فترى ناظر المحب يدور مع محبوبه كيف ما دار، ويجول معه في النواحي والأقطار.

بل المحب في عين المحبوب تمثالُه، كما في قلبه شخصُه ومثاله، كما قيل:

ومن عَجبٍ أني أَحِنُّ إليهمُ
وأسأل عنهم من لَقيتُ وهم معي
وتَطْلبهم عيني وهم في سَوَادها
ويَشتاقهم قلبي وهم بين أَضْلعي

(١) الآية ٣٧ سورة النساء.

(٢) الآيات ٣٦ و٣٨ و٣٨ سورة الزخرف.

فالمحب نظره وقفٌ على محبوبه، كما قال:

إنْ يَحجبوها عن العيون فقد
حجبتُ عيني لها عن البشر

فصل

ومنها: إغضاؤه عند نظر محبوبه إليه، ورميه بطرفه نحو الأرض، وذلك من مهابته له، وحيائه منه وعظمته في صدره، ولهذا يَستهجن الملوك من يخاطبهم وهو يحد[1] النظر إليهم، بل يكون خافض الطرف إلى الأرض.
قال الله تعالى مخبراً عن كمال أدب رسوله في ليلة الإسراء: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾﴾[2]وهذا غاية الأدب، فإن البصر لم يزغ يميناً ولا شمالاً، ولا طَمَح متجاوزاً إلى ما هو رائيه ومقبلٌ عليه كالمُتشارف[3] إلى ما وراء ذلك، ولهذا اشتد نهي النبي ﷺ للمصلي أن يزيغ بصره إلى السماء، وتوعدهم على ذلك بخطف أبصارهم، إذ هذا من كمال الأدب مع مَن المصلي واقفٌ بين يديه، بل ينبغي له أن يقفَ ناكس الرأس مطرقاً إلى الأرض، ولولا أن عظمة رب العالمين سبحانه فوق سماواته على عرشه، لم يكن فرقٌ بين النظر إلى فوق أو إلى أسفل.

---

(١) أحدَّ النظر إليه: نظر متأملاً.

(٢) الآية (١٧) سورة النجم.

(٣) المتشارف: المتطلع.

فصل

ومنها: كثرة ذكر المحبوب واللَّهَج[1] بذكره وحديثه، فمن أحب شيئاً أكثر من ذكره بقلبه ولسانه. ولهذا أمر الله سبحانه عباده بذكره على جميع الأحوال، وأمرهم بذكره أخوفَ ما يكونون، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾﴾[2].

والمحبون يفتخرون بذكرهم أحبابَهم وقتَ المخاوف، ومُلاقاةِ الأعداء، كما قال قائلهم:

ولقد ذكرتك والرماح كأنها
أشطانُ بئرٍ في لَبان الأدهم[3]
فوددتُ تقبيل السيوف لأنها
بَرَقت كبارق ثغرك المتبسم

وفي بعض الآثار الإلهية: إن عبدي كل عبدي: الذي يذكرني وهو ملاق قِرنه[4]، فعلامة المحبة الصادقة ذكرُ المحبوب عند الرغَب والرهب.

ومن الذكر الدال على صدق المحبة: سَبْقُ ذكر المحبوب إلى قلب المحب ولسانه عند أول يقظة من منامه، وأن يكون ذكره آخر ما ينام عليه، كما قال قائلهم:

---

(١) اللهج بالشيء: الولوع به. ولهج به: أغرى به فثابر عليه.

(٢) الآية (٤٥) سورة الأنفال.

(٣) الشطن: الحبل الطويل يستقي به من البئر، أو تشد به الدابة. واللبان: ما جرى عليه اللبب من الصدر، وموضع القلادة.

(٤) القرن: المكافئ والمساوي في الشجاعة. (القاموس).

آخـــــر شـيء أنـت فـي كـل هَـجْـــــعَـــــةٍ

وأول شــيء أنــت وقــتَ هــبُـــــــــوبـي[1]

وذكر المحبوب لا يكون عن نسيانٍ مستحكم، فإنَّ ذِكره بالقوة في نفس المحب، ولكن لضـيق المحل به يرد عليه ما يُغـيب ذكره، فإذا زال الوارد عاد الذكر كما كان.

وأعلىٰ أنواع ذكر الحبيب: أن يحبس المحب لسانه علىٰ ذكره، ثم يحبس قلبه علىٰ لسانه، ثم يحبس قلبه ولسانه علىٰ شهود مذكوره. وكما أن الذكر من نتائج الحب، فالحب أيضاً من نتائج الذكر، فكلٌ منهما يُثمر الآخر، وزرعُ المحبة إنما يُسقىٰ بماء الذكر، وأفضل الذكر: ما صدر عن المحبة.

فصل

ومن علاماتها الانقيادُ لأمر المحبوب، وإيثارُه علىٰ مراد المحب، بل يتحد مرادُ المحب والمحبوب. وهذا هو الاتحاد الصحيح، لا الاتحاد الذي يقوله إخوان النصارىٰ من الملاحدة، فلا اتحاد إلا في المراد، وهذا الاتحاد علامة المحبة الصادقة بحيث يكون مراد الحبيب والمحب واحداً، فليس بمحب صادق من له إرادةٌ تخالف مراد محبوبه منه، بل هذا مريد من محبوبه لا مريد له، وإن كان مريداً له فليس مريداً لمراده.

فالمحبُّون ثلاثة أقسام: منهم من يريد من المحبوب، ومنهم من يريد المحبوب، ومنهم من يريد مراد المحبوب مع إرادته للمحبوب. وهذا أعلىٰ

(١) الهجعة: نومة خفيفة من أول الليل. وهجع: نام ليلاً. والهبوب: الاستيقاظ والانتباه. وهب الرجل من نومه: انتبه واستيقظ.

أقسام المحبين. وزهد هذا أعلىٰ أنواع الزهد، فإنه قد زهدَ في كل إرادة تخالف مراد محبوبه، وبين هذا وبين الزهد في الدنيا أعظمُ مما بين السماء والأرض. فالزهدُ خمسة أقسام: زهدٌ في الدنيا، وزهد في النفس، وزهد في الجاه والرئاسة، وزهد فيما سوىٰ المحبوب، وزهد في كل إرادة تخالف مراد المحبوب. وهذا إنما يحصل بكمال المتابعة لرسول الحبيب.

قال الله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾[1] فجعل سبحانه متابعة رسوله سبباً لمحبتهم له، وكون العبد محبوباً لله أعلىٰ من كونه محباً لله، فليس الشأن أن تحب الله، ولكن الشأن أن يحبك الله. فالطاعة للمحبوب عنوان محبته، كما قيل:

تعصي الإله وأنتَ تزعمُ حبَّه ... هذا محالٌ في القياس بديعُ

لو كان حبك صادقاً لأطعتَه ... إنَّ المحبَ لمن يُحبُّ مطيع

فصل

ومن علاماتها: قلة صبر المحب عن المحبوب، بل ينصرف صبره إلىٰ الصبر علىٰ طاعته، والصبر عن معصيته، والصبر علىٰ أحكامه، فهذا صبر المحب، وأما الصبر عنه، فصبر الفارغ عن محبته، المشغول بغيره، قال:

---

(١) الآية (٣١) سورة آل عمران.

والصبر يُحْمَدُ في المواطن كلِّها

وعن الحبيب فإنه لا يُحْمَدُ

فمن صَبَرَ عن محبوبه، أدىٰ به صبره إلىٰ فوات مطلوبه.

فصل

ومنها: الإقبال علىٰ حديثه، وإلقاء سمعه كلِّه إليه، بحيث يفرغ لحديثه سمعه وقلبه، وإنْ ظهر منه إقبال علىٰ غيره، فهو إقبالٌ مستعار، يستبين فيه التكلف لمن يَرْمُقه، كما قال:

وأُديمُ لحظ محدِّثي ليرى

أن قد فهمتُ وعندكم عقلي

فإن أعوزه حديثُه بنفسه، فأحبُ شيء إليه الحديث عنه، ولاسيما إذا حدث عنه بكلامه، فإنه يقيمه مقام خطابه كما قال القائل: المحبون لا شيء ألذ لهم ولقلوبهم من سماع كلام محبوبهم، وفيه غاية مطلوبهم، ولهذا لم يكن شيءٌ ألذ لأهل المحبة من سماع القرآن، وقد ثبت في الصحيح: عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «اقرأ علي»، قلت: أقرأ عليك وعليك أُنزل؟ قال: «إني أحبُّ أن أسمعه من غيري»، فقرأت عليه من أول سورة النساء، حتىٰ إذا بلغت قوله تعالىٰ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾[1] قال: «حَسْبُك الآن»، فرفعتُ رأسي فإذا عيناه تَذْرفان[2].

---

(١) الآية (٤١) سورة النساء.

(٢) رواه البخاري في التفسير (٨/ ٢٥٠) ومسلم في صلاة المسافرين (١/ ٥٥).

وكان أصحاب رسول الله ﷺ إذا اجتمعوا أمروا قارئاً أن يقرأ وهم يستمعون، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا دخل عليه أبو موسى يقول: يا أبا موسى ذكرنا ربنا، فيقرأ أبو موسى، وربما بكى عمر(١).

ومر رسول الله ﷺ بأبي موسى رضي الله عنه وهو يصلي من الليل فأعجبته قراءته فوقف واستمع لها، فلما غدا على رسول الله ﷺ قال: «لقد مررتُ بك البارحة وأنت تقرأ، فوقفتُ واستمعت لقراءتك»، فقال: لو أعلم أنك كنت تسمع لحَبَّرته لك تحبيراً(٢). والله سبحانه وهو الذي تكلم بالقرآن، يأذن ويستمع للقارئ الحسن الصوت، من محبته لسماع كلامه منه.

وقال ﷺ: «زينوا القرآن بأصواتكم»(٣). وغلط من قال: إن هذا من المقلوب! وإن المراد زينوا أصواتكم بالقرآن. فهذا وإن كان حقاً، فالمراد تحسين الصوت بالقرآن.

---

(١) رواه ابن حبان (٢٢٦٤) وغيره، عن أبي سلمة بن عبدالرحمن عن عمر. وأبو سلمة لم يسمع من عمر رضي الله عنه. وانظر تعليقنا على الوصية الكبرى (ص ٨١) لشيخ الإسلام.

(٢) حديث صحيح، أخرجه أبو يعلى (٧٢٧٩) والحاكم (٣/ ٤٦٦) وأبو نعيم (١/ ٢٥٨) من حديث أبي موسى رضي الله عنه وفيه: خالد بن نافع الأشعري وهو ضعيف، لكن له شواهد:
فله شاهد عند النسائي في الكبرى (٨٠٥٨) من حديث بريدة رضي الله عنه.
ورواه مسلم (١/ ٥٤٦) دون قوله: «لو كنت أعلمتني لحبرته..» وانظر تعليقنا على الوصية الكبرى (ص ٨١).

(٣) حديث صحيح، رواه أحمد (٤/ ٢٨٣، ٢٨٥، ٢٩٦، ٣٠٤) والبخاري تعليقاً (١٣/ ٥١٨) وأبو داود (١٤٦٨) والنسائي (١٠١٦) وابن ماجة (١٣٤٢) وصححه ابن حبان (٧٤٩) من حديث البراء رضي الله عنه.
وله شاهد: من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، رواه ابن حبان (٧٥٠). وثالث: عن ابن عباس رضي الله عنهما، ورابع عن عائشة رضي الله عنها.

وصح عنه أنه قال: «ليس منَّا مَنْ لم يَتَغَنَّ بالقرآن»(١).

ووهم من فسّره بالغِنى، الذي هو ضد الفقر، من وجوه: أحدها: أن ذلك المعنى إنما يقال فيه استغنى لا تغنّى. الثاني: أن تفسيره قد جاء في نفس الحديث «يجهر به» هذا لفظه. قال أحمد: نحن أعلم بهذا من سفيان، وإنما هو تحسين الصوت به يحسنه ما استطاع. الثالث: أن هذا المعنى لا يتبادر إلى الفهم من إطلاق هذا اللفظ ولو احتمله، فكيف وبُنْية اللفظ لا تحتمله، كما تقدم.

وبعد هذا، فإذا كان من التغني بالصوت، ففيه معنيان: أحدهما: يجعله له مكان الغناء لأصحابه، من محبته له، ولَهَجه به، كما يحب صاحب الغناء لغنائه. والثاني: أنه يزينه بصوته ويحسّنه ما استطاع، كما يزين المتغني غناءه بصوته، وكثير من المحبين ماتوا عند سماع القرآن بالصوت الشجي، فهؤلاء قتلى القرآن، لا قتلى عشاق المردان(٢) والنسوان.

فصل

ومنها: محبةُ دار المحبوب وبيته، حتى محبة الموضع الذي حلَّ به، وهذا هو السر الذي لأجله علقت القلوب على محبة الكعبة البيت الحرام، حتى استطاب المحبون في الوصول إليها هجر الأوطان والأحباب، ولذ لهم فيها السفر الذي هو قطعة من العذاب، فركبوا الأخطار، وجابوا المفاوز والقفار،

---

(١) حديث صحيح، أخرجه أحمد (١/ ١٧٥، ١٧٩) وأبو داود (١٤٦٩، ١٤٧٠) والدارمي (٢/ ٤٧١) وابن حبان (١٢٠) من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.

ورواه البخاري (٩/ ٦٨) بلفظ: «لم يأذن الله لشيء ما أذن لنبي أن يتغنى بالقرآن» وله شاهد من حديث أبي هريرة وغيره.

(٢) جمع أمرد: الغلام الذي طر شاربه، وبلغ خروج لحيته ولم تبد.

واحتملوا في الوصول غايةَ المشاق، ولو أمكنهم لسعوا إليها على الجفون والأحداق.

نعم أسعى إليك على جفوني

وإن بَعُدت لمسراك الطريق

وسرُّ هذه المحبة: هي إضافة الرب سبحانه له إلى نفسه بقوله: ﴿**وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ**﴾(1).

قال الشاعر:

لما انتسبتُ إليك صرتُ معظَّماً

وعلوتُ قدراً دون من لم يُنْسَب

وكل ما نسب إلى المحبوب فهو محبوب ﴿**وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ**﴾(2) ﴿**سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ**﴾(3) ﴿**تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ**﴾(4) ﴿**وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا**﴾(5) ومن فهم هذا، فهم معنى قوله تعالى: ﴿**بِيَدِكَ الْخَيْرُ**﴾(6) وقول عبده ورسوله ﷺ: «لبيك وسعديك، والخيرُ في يديك، والشرُّ ليس إليك»(7).

---

(1) الآية (26) سورة الحج.

(2) الآية (19) سورة الجن.

(3) أول سورة الإسراء.

(4) أول سورة الفرقان.

(5) الآية (22) سورة البقرة.

(6) الآية (26) سورة آل عمران.

(7) رواه مسلم في صلاة المسافرين (1/ 534 ـ 535) من حديث علي رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه كان إذا قام إلى الصلاة قال: «وجَّهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً...» الحديث بطوله.

وإذا كان من يحب مخلوقاً مثله يحب داره، كما قال:

أمـــــرُّ عـلـى الـدِّيـار ديـارِ لـيـلـى
أُقـــبِّـل ذا الجـــدار وذا الجـــدارا

ومـــا حـبُّ الـديـارِ شـــغـــفن قـلـبي
ولـــكـــن حـــبُّ مـــن ســـكـــن الـــديـــارا

فكيف بمن ليس كمثله شيء، ومن ليس كمثل محبته محبة؟

فصل

ومنها: الإسراعُ إليه في السير، وحثُّ الركاب نحوه، وطيُّ المنازل في الوصول إليه، والاجتهاد في القرب والدنو منه، وقطع كل قاطع يقطع عنه، وإطِّراح الأشغال الشاغلة عنه، والزهدُ فيها، والرغبة عنها، والاستهانة بكل ما يكون سبباً لغضبه ومقته وإن جلَّ، والرغبة في كل ما يُدني إليه وإن شق، قال الشاعر:

ولـــو قـــلـــتِ طَـــأْ فـــي الـــنـــار أعـــلـــم أنـــه
رضـــاً لك أو مُـــدْنٍ لنا من وصـــالكِ

لقـــدّمت رِجْلي نحـــوها فـــوطِئـــتـــهـــا
هـدًى منـك لي أو ضِـلـةً من ضـــلالـك

فصل

ومنها: محبة أحباب المحبوب وجيرانه وخدمه وما يتعلق به، حتى حرفته وصناعته وآنيته وطعامه ولباسه قال:

أحب بني العوام طُرّاً لحبها

ومن أجلها أحببت أخوالَها كلبا

وقال الآخر:

فيا ساكني أكنافِ[1] طَيْبة كلُّكم

إلى القلب من أجل الحبيب حبيبُ

وعشق آخر الهاوونات من أجل صوت هاون محبوبته، فوُجد في تركته عدُة آلاف منها، وعند الناس من هذا عجائب كثيرة. وكان أنس بن مالك رضي الله عنه يحب الدُّبَّاء[2] كثيراً لما رأىٰ النبي ﷺ يتتبعها من جوانب القصعة.

فصل

ومنها: قِصَرُ الطريق حين يزوره، ويوافي إليه كأنها تُطوىٰ له، وطولها إذا انصرف عنه، وإنْ كانت قصيرة، قال:

وكنتُ إذا ما جئت ليلى أزورها

أَرى الأرضَ تُطْوى لي ويدنو بعيدُها

من الخفرات البيض ودَّ جليسُها

إذا ما انقضت أُحدوثةٌ[3] لو تعيدها

---

(١) جمع كنف: الناحية، والجانب، والظل.

(٢) الدباء: القرع.

(٣) الأحدوثة: ما يتحدث به، والجمع أحاديث.

وقال آخر:

والله ما جئتكم زائراً
إلا وجدتُ الأرض تُطْوى لي

ولا انثنى عزمي عن بابكم
إلا تعثَّرتُ بأذيالي

فصل

ومنها: انجلاء همومه وغمومه إذا زار محبوبهَ أو زاره، وعودُها إذا فارقه، كما قال:

يزورُ فتنجلي عني همومي
لأن جلاء حزني في يديه

ويمضي بالمسرَّة حين يمضي
لأن حوالتي فيها عليه

ومن المعلوم أنه ليس للمحب فرحةٌ ولا سرور ولا نعيم إلا بمحبوبه، وبمفارقة محبوبه عذابُه الآجل والعاجل.

فصل

ومنها: البَهَتُ[1] والرَّوعة التي تحصل عند مواجهة الحبيب، أو عند سماع ذكره، ولاسيما إذا رآه فجأةً، أوطلع عليه بغتة، كما قال الشاعر:

---

(١) البهت: الدهشة والحيرة.

فـــــمـــــا هو إلا أنْ أَراها فـــجـــاءةً
فــأبهتُ حــتى مــا أكـــاد أُجــيب

فـــــأرجع عن رأيي الذي كــــان أولاً
وأذكــــر مــــا أعـــددتُ حين تغــيب

وربما اضطرب عند سماع اسمه فجأةً، كما قال:

وداعٍ دعـــا إذ نحن بالخـــيف من منـى
فــهــيَّجَ أشــجــانَ الفــؤاد ومــا يدري

دعـــا باسم ليلى غـــيـــرِها فكأنما
أطار بليلى طائراً كــــان في صــــدري

وقد اختلف في سبب هذه الروعة والفزع والاضطراب، فقيل: سببه أن للمحبوب سلطاناً على قلب محبه أعظمَ من سلطان الرعية، فإذا رآه فجأة راعه ذلك كما يرتاع مَنْ يرىٰ مَنْ يعظِّمه فجأة، فإن القلب معظِّمٌ لمحبوبه خاضعٌ له، والشخص إذا فَجِئه المعظم عنده راعه ذلك. وقيل: سببُه انفراجُ القلب له، ومبادرتُه إلىٰ تلقيه، فيهرب الدم منه فيبرد ويرعد ويحدث الاصفرار والرعدة، وربما مات.

وبالجملة فهذا أمر ذوقي وجداني، وإن لم يعرف سببه.

فصل

ومنها: غَيرته لمحبوبه وعلىٰ محبوبه، فالغيرة له أن يكره ما يكره، ويغار إذا عُصِيَ محبوبه، وانتُهك حقُّه، وضُيِّع أمره. فهذه غيرة المحب حقاً، والدِّين كله تحت هذه الغيرة.

فأقوى الناس ديناً أعظمهم غيرةً، وقد قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «أتعجبون من غيرة سعد؟ لأنا أغير منه، والله أغير مني»[1]. فمحب الله ورسوله، يغار لله ورسوله على قدر محبته وإجلاله، وإذا خلا قلبه من الغيرة لله ولرسوله، فهو من المحبة أخلى، وإن زعم أنه من المحبين، فكذب من ادعى محبة محبوب من الناس، وهو يرى غيره ينتهك حُرْمَةَ محبوبه، ويسعى في أذاه ومَساخطه، ويستهين بحقه، ويستخف بأمره، وهو لا يغار لذلك! بل قلبه بارد، فكيف يصح لعبد أن يدعي محبة الله، وهو لا يغار لمحارمه إذا انتُهكت، ولا لحقوقه إذا ضيعت. وأقل الأقسام أن يغار له من نفسه وهواه وشيطانه، فيغار لمحبوبه من تفريطه في حقه وارتكابه لمعصيته.

وإذا تَرحَّلت هذه الغَيرة من القلب ترحلت منه المحبة، بل ترحل منه الدين وإن بقيت فيه آثاره، وهذه الغيرة هي أصل الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهي الحاملة على ذلك، فإنْ خلت من القلب لم يجاهد، ولم يأمر بالمعروف ولم ينه عن المنكر، فإنه إنما يأتي بذلك غيرةً منه لربه، ولذلك جعل الله سبحانه وتعالى علامة محبته ومحبوبيته الجهادَ، فقال الله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٥٤)**﴾[2].

---

(١) رواه البخاري في النكاح (٩/ ٣١٩) وفي المحاربين (١٢/ ١٧٤) وفي التوحيد (١٣/ ٣٩٩) ومسلم في اللعان (٢/ ١١٣٦) عن حديث سعد بن عبادة رضي الله عنه.

(٢) الآية (٥٤) سورة المائدة.

فصل

وأما الغيرة على المحبوب: فإنما تُحْمد حيث يُحمد الاختصاص بالمحبوب ويُذم الاشتراك فيه شرعاً وعقلاً، كغيرة الإنسان على زوجته وأمته، والشيء الذي يختص هو به، فيغار من تعرض غيره لذكره ومشاركته له فيه، وهذه الغيرة تختص بالمخلوق ولا تُتَصور في حق الخالق، بل المحب لربه يحب أن الناس كلهم يحبونه، ويذكرونه ويعبدونه ويحمدونه، ولا شيء أقر لعينه من ذلك، بل هو يدعو إلى ذلك بقوله وعمله.

ولما لم يميز كثير من الصوفية بين هاتين الغَيرتين، وقع في كلامهم تخبيط قبيح، وأحسن أمره أن يكون من السعي المغفور لا المشكور. وكان بعض جهلتهم إذا رأى من يذكر الله أو يحبه يغار منه، وربما سَكَّته إن أمكنه، ويقول: غيرة الحب تحملني على هذا، وإنما ذلك حَسَدٌ وبغيٌ وعدوان، ونوع معاداة لله، ومُراغمة لطريق رسله، أخرجوها في قالب الغيرة، وشبهوا محبة الله بمحبة الصور من المخلوقين!

ولا ريب أن هذه الغيرة محمودة في محبة من لا تَحسنُ مشاركة المحب فيه، وسيأتي ذلك في باب الغيرة على المحبوب.

فصل

ومنها: بذلُ المحب في رضا محبوبه ما يقدر عليه، مما كان يتمتع به بدون المحبة، وللمحب في هذا ثلاثة أحوال: أحدُها: بذله ذلك تكلُّفاً ومشقة، وهذا في أول الأمر، فإذا قويت المحبةُ بَذَلَه رضاً وطوعاً، فإذا تمكنت من القلب غاية التمكن بذله سؤالاً وتضرعاً كأنه يأخذه من المحبوب، حتى إنه

ليبذل نفسه دون محبوبه، كما كان الصحابة رضي الله عنهم يَقُون رسول الله ﷺ في الحرب بنفوسهم حتى يصرعوا حوله:

ولي فؤادٌ إذا لجَّ[1] الغرام به ... هام اشتياقاً إلى لُقيا مُعذِّبه

يَفديك بالنفس صَبٌّ[2] لو يكون له ... أعزُّ من نفسه شيء فداك به

ومن آثر محبوبه بنفسه، فهو له بماله أشد إيثاراً، قال الله تعالى: ﴿النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم﴾[3]، ولا يتم لهم مقام الإيمان حتى يكون الرسول أحب إليهم من أنفسهم، فضلاً عن أبنائهم وآبائهم، كما صح عنه ﷺ أنه قال: «لا يُؤمن أحدُكم حتى أكونَ أحبَّ إليه من ولدِه ووالده والناس أجمعين»[4].

وقال له عمر رضي الله عنه: والله يا رسول الله، لأنتَ أحبُّ إلي من كل شيء إلا من نفسي، فقال: «لا يا عمر، حتى أكون أحبَّ إليك من نفسك» قال: فوالله لأنت الآن أحبُّ إلي من نفسي، فقال: «الآن يا عمر»[5].

---

(١) لج: تمادى.

(٢) الصب: العاشق المشتاق، والصبابة: الشوق، وقيل رقته، وقيل حرارته، وقيل رقة الهوى والولع الشديد بالشيء.

(٣) الآية (٦) سورة الأحزاب.

(٤) رواه البخاري في الإيمان (١/ ٥٨) ومسلم في الإيمان (١/ ٦٧) من حديث أنس رضي الله عنه ورواه البخاري أيضاً (١/ ٥٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٥) رواه البخاري في الأيمان والنذور (١١/ ٥٢٣).

ووقوف عمر أول مرة واستثناؤه نفسه هو حسب طبع الإنسان، فعرفه الرسول ﷺ ما يجب عليه من مخالفة طبعه، وتغييرها عما جبلت عليه، فاستجاب رضي الله عنه. انظر الفتح (١١/ ٥٢٨).

فإذا كان هذا شأن محبة عبده ورسوله، فكيف بمحبته سبحانه؟ وهذا النوعُ من الحب لا يمكن أن يكون إلا لله ورسوله شرعاً ولا قدراً، وإنْ وُجد في الناس من يؤثر محبوبه بنفسه وماله، فذاك في الحقيقة إنما هو لمحبة غرضه منه، فحمله محبة غرضه على أن بذل فيه نفسه وماله، وليست محبته لذلك المحبوب لذاته، بل لغرضه منه، وهذا المحبوب له مثل ولمحبته مثل، وأما محبة الله ليس لها مثلٌ ولا للمحبوب مثل، ولهذا حَكَّم الصحابة رضي الله عنهم رسول الله ﷺ في أنفسهم وأموالهم، فقالوا: هذه أموالنا بين يديك، فاحكم فيها بما شئت، وهذه نفوسنا بين يديك، لو استعرضت بنا البحر لخُضْناه، نقاتل بين يديك ومن خلفك، وعن يمينك وعن شمالك(١).

فالمحب وصفه الإيثار، والمدعي طبعه الاستئثار.

فصل

ومنها: سروره بما يسر به محبوبه كائناً ما كان، وإن كرهته نفسُه، فيكون عنده بمنزلة الدواء الكريه، يكرهه طبعاً ويحبه لما فيه من الشفاء.

وهكذا المحب مع محبوبه، يَسُرُّه ما يرضىٰ به محبوبه، وإن كان كريهاً لنفسه. وأما من كان واقفاً مع ما تشتهيه نفسه من مراضي محبوبه، فليست محبته صادقة، بل هي محبة معلولة، حتىٰ يُسَرَّ بما ساءه وسره من مراضي

(١) روى مسلم في الجهاد (٣/ ١٤٠٣ ـ ١٤٠٤) وأحمد في مسنده (٣/ ٢١٩ ـ ٢٢٠، ٢٥٨) من حديث أنس رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ حين بلغه إقبال أبي سفيان قال: فتكلم أبو بكر فأعرض عنه، ثم تكلم عمر فأعرض عنه، فقام سعد بن عبادة فقال: إيانا تريد يا رسول الله؟ والذي نفسي بيده، لو أمرتنا أن نخيضها البحر لأخضناها، ولو أمرتنا أن نضرب أكبادها إلى برك الغماد لفعلنا...» الحديث.

محبوبه، وإذا كان هذا موجوداً في محبة الخلق بعضهم لبعض، فالحبيب لذاته أولىٰ بذلك. قال أبو الشيص:

وقف الهوى بي حيث أنت فليس لي
متأخَّرٌ عنه ولا متقَدم

وأهنتِني فأهنتُ نفسي جاهداً
ما من يهون عليك ممَّنْ يكرم

أشبهتِ أعدائي فصرتُ أُحبهم
إذ كان حظي منك حظيَ منهم

أجد الملامةَ في هواكِ لذيذةً
حباً لذكركِ فليلُمني اللوَّم

وقريبٌ من هذا البيت الأخير قولُ الآخر:

لئن ساءني أن نِلْتِني بمساءة
لقد سرَّني أني خطرتُ ببالك

وقريبٌ من هذا قول أحمد بن الحسين[1]:

يا من يَعِزُّ علينا أن نفارقَهم
وجداُننا كل شيء بعدكم عَدَم

إن كان سركم ما قال حاسدُنا
فما لجُرحٍ إذا أرضاكمُ ألم

ولَعمرُ الله أكثر هذه دعاوىٰ لا حقيقة لها، والصادقُ منهم يخبر عن علمه

---

(١) هو أبو الطيب المتنبي.

وإرادته، لا عن حاله وصفته. وهذه حال كل من أحب مع الله شيئاً سواه، فإنه إلىٰ هذه الغاية يصير ولابد، وسيبدو له إذا انكشف الغطاء، أنه إنما كان مغروراً مخدوعاً بأمنية ظفرت نفسه بها مدة حياته ثم انقطعت، وأعقبت الحسرة والندامة. قال الله تعالىٰ: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ (١٦٦) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ (١٦٧)﴾[1].

فالأسباب التي تقَطعَّت بهم هي: الوَصل والعلائق والمودّات التي كانت لغير الله، وفي غير ذات الله، وهي التي يَقْدم إليها سبحانه فيجعلها هباء منثوراً، فكل محبةٍ لغيره فهي عذابٌ علىٰ صاحبها وحسرة عليه، إلا محبته ومحبة ما يدعو إلىٰ محبته، ويعين علىٰ طاعته ومرضاته، فهذه هي التي تبقىٰ في القلب يوم تُبلىٰ السرائر، كما قال:

سيبقى لكم في مُضْمَر القلب والحشا
سريرةُ حبٍ يوم تُبلى السرائر

وقال آخر:

إذا تصَدَّع شملُ الوَصل بينهم
فلمُحبِّين شملٌ غيرُ منصدع
وإن تقطع حبلُ الوصل يومئذ
فللمحبين حبلٌ غيرُ منقطع

---

(١) الآيتان (١٦٦ و١٦٧) سورة البقرة.

فصل

ومنها: حب الوَحْدة والأنس بالخلوة والتفرد عن الناس، وكأن المحبة قد ثبتت على ذلك، فلا شيء أحلى للمحب الصادق من خلوته وتفرده، فإنه إن ظفر بمحبوبه أَحبَّ خلوته به، وكره من يدخل بينهما غاية الكراهة، ولهذا السر - والله أعلم - أمر النبي ﷺ برد المار بين يدي المصلي حتى أمر بقتاله، وأخبر أنه لو يدري ما عليه من الإثم، لكان وقوفه أربعين، خيراً له من مروره بين يديه[1]. ولا يجد ألم المرور وشدَّته إلا قلبٌ حاضر بين يدي محبوبه مقبل، وقد ارتفعت الأغيار بينه وبينه، فمرور المار بينه وبين ربه بمنزلة دخول البغيض بين المحب ومحبوبه. وهذا أمرٌ الحاكم فيه الذوق، فلا ينكره إلا من لم يذق.

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: مرور المار بين يدي المصلي يُذهب نصف أجره ذكره الإمام أحمد. وأيضاً فإن المحب يستأنس بذكر محبوبه وكونه في قلبه لا يفارقه، فهو أنيسه وجليسه، لا يستأنس بسواه، فهو مستوحش ممن يشغله عنه. وحدثني تقي الدين بن شقير، قال: خرج شيخ الإسلام ابن تيمية يوماً فخرجت خلفه، فلما انتهى إلى الصحراء، وانفرد عن الناس بحيث لا يراه أحد، سمعته يتمثَّل بقول الشاعر[2]:

---

(١) رواه البخاري في الصلاة (١/ ٥٨٤) ومسلم في الصلاة (١/ ٣٦٣) عن أبي جهيم قال: قال رسول الله ﷺ: «لو يعلم المار بين يدي المصلي ماذا عليه، لكان أن يقف أربعين، خيراً له من أن يمر بين يديه».

(٢) هو مجنون ليلى، كما جاء في تزيين الأسواق للأنطاكي. (الفقي)

وأَخـــــرُجُ من بين البــــــيـــــوت لعلَّـني

أُحــدث عنك القلب بالســر خـــاليـــاً

فخلوة المحب لمحبوبه هي غايةُ أمنيته، فإن ظفر بها وإلا خلا به في سره وأوحشه ذلك من الأغيار. وكان قيس بن الملوح إذا رأىٰ إنساناً هرب منه، فإذا أراد أن يدنو منه ويحادثه ذكر له ليلىٰ وحديثها، فيأنس به ويسكن إليه.

وينبغي للمحب أن يكون كما قال يوسف لإخوته وقد طلب منهم أخاهم: ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلا تَقْرَبُونِ ۝٦٠﴾[1].

إذا لم تكُنْ فــــيكُنَّ سُـــعــــدى فـــلا أرى

لـكُنَّ وجــــوهـاً أو أُغـــــيَّب في لحــــدي

فصل

ومنها: استكانةُ المحبِّ لمحبوبه وخضوعُه وذله له، والحب مبنيُ علىٰ الذل، ولا يأنف العزيز الذي لا يذل لشيء من ذله لمحبوبه، ولا يعده نقصاً ولا عيباً، بل كثير منهم يعد ذله عزاً، كما قال:

إذا كـنتَ تـهـــــــوى من تحب ولـم تـكـن

ذليـــلاً له فـــاقـــرا الســـلام على الوصـل

تـذلـل لمن تـهـــــوى لـتكـسبَ عــــــزةً

فـكـم عــــزةٍ قـــد نـالهــــا المرء بالـذُّل

(١) الآية (٦٠) سورة يوسف.

وقال الآخر:

إخـــــــضع وذِلَّ لمـن تحـب فـلـيـس فـي
شـــرع الـهـــوى أنفٌ يُشـــال ويُعـــقـــد

ومتى استحكم الذل والحب صار عبودية، فيصير قلب المحب معبداً لمحبوبه، وهذه الرتبة لا يليق أن تتعلق بمخلوق، ولا تصلح إلا لله وحده.

فصل

ومنها: امتداُد النفس وتردد الأنفاس وتصاعدها. وهذا نوعان:

أحدهما: ما يقارنه حزْن ولهف[1]، كما قال القائل:

تَـــردُّد أنــفـــــــــــاس المحـب يـدلـنـا
على كُنْهِ[2] مـــا أخـــفـــاه من أَلـم الحبِّ
إذا خَـطَـراتُ الحـب خـــامـــرْنَ قلبـــه
تـنـفـس حـــتـى ظلَّ مـــتـــصـــدعَ القلب

والثاني: ما يكون سببه طرباً ولذةً.

وسبب وجود النوعين: انحصارُ القلب وانفراجه، بسبب الوارد الذي ورد عليه، فأحدث للنَّفَس الذي تروحه عليه الرئة كيفيةً مؤذيةً، وطلب إخراجها فهو تنفس الصعداء، وأما تنفس الراحة فإن القلب ينبسط بعد انقباضه، فيدفع الهواء المحيط به فيطلب الخروج.

(١) اللهف: التحسر.

(٢) الكنه: جوهر الشيء وحقيقته وغايته وقدره.

فصل

ومنها: هجرُه كلَّ سبب يقصيه من محبوبه ويبغضه المحبوب، وارتياحُه لكل سبب يدنيه منه ويستحمد به عنده إذا بلغه عنه. وفي الباب عجائب للمحبين، فكثيرٌ منهم هجر طعاماً أو لباساً أو أرضاً أو صناعةً أو حالةً من الحالات، كان محبوبه يَمقُتُها فلم يعد إليها أبداً، ولم تطاوعه نفسه بفعله البتة. وكثيرٌ منهم حمله الحب على اكتساب المعالي والفضائل وغيرها، مما يعلم أن المحبوب يعظمه ويحبه. وهذا نوعان أيضاً:

أحدها: أن يكون المحبوب مؤثراً لذلك محباً له، فالمحب يبذل جهده فيه لينال منه أعلاه إن أمكنه، فإن كان المحبوب مشغوفاً بجمع المال أثر ذلك في مُحِبّه شغفاً أشدَّ من شغفه، وإن كان مشغوفاً بالعلم اجتهد المحب في طلبه أشد من اجتهاده، وأن كان مشغوفاً بحرفةٍ أو صناعة حَرَص المحب على تعلمها إن وجد إلى ذلك سبيلاً، وإن كان مشغوفاً بالنوادر والحكايات الحسان والأخبار المستحسنة بالغ المحب في تحفظها، فالمحبةُ النافعة أن تقع على عشق كامل يحملك عشقه على طلب الكمال، والبليَّة كل البلية أن تُبتلى بمحبة فارغ بطَّال، صِفْرٍ من كل خير فيحملك حبُّه على التشبه به.

والثاني: أن يكون المحبوب فارغاً من محبة ذلك وإيثاره، ولكن المحبة تستخرج من قلب المحب عزماً وإرادة، وحرصاً على ما يَعْظُم به في عين المحبوب وقلبه، فتجده من أحرص الناس على ذلك بحسب استعداده، كما قيل:

ويرتاح للمعروف في طَلب العُلَى
لتُحْمَد يوماً عند ليلى شمائِلُه[1]

وهذا قد يكون له سبب آخر وهو: معاداة الناس له، وتنقصهم إياه وازدراؤهم به، فيحمله الانتخاء لنفسه والغيرةُ لها، ومحبتها على المنافسة في المعالي واكتساب الحمد، وهذا من شرف النفس وعزتها، كما قيل:

عداي لهم فضلٌ عليَّ ومنَّةٌ
فلا أعدم الرحمنُ عني الأعاديا
هم بحثوا عن زَلَّتي فاجتنبتُها
وهم نافسوني فاكتسبتُ المعاليا

فصل

ومنها: الاتفاق الواقع بين المحب والمحبوب، ولاسيما إذا كانت المحبة محبة مشاكَلَة ومناسبة، فكثيراً ما يمرضُ المحبُّ بمرض محبوبه، ويتحرك بحركته ولا يشعر أحدُهما بالآخر، ويتكلم المحبوب بكلام فيتكلم المحب به بعينه اتفاقاً، فانظر إلى قول النبي ﷺ لعمر بن الخطاب رضي الله عنه يوم الحديبية لما قال له: «ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟» قال: بلى، قال: «فعلام نعطي الدنية[2] في ديننا؟» فقال: «إني رسول الله وهو ناصري ولست أعصيه» فقال: ألم تكن تحدثنا أنا نأتي البيت فنطوف به؟ فقال: «قلتُ لك

(١) جمع شمال: أي: أخلاقه وطباعه.
(٢) الدنية والدني: الحقير، الضعيف: الساقط.

أنك تأتيه العامَ؟» قال: لا، قال: «فإنك آتيه ومطوِّفٌ به». ثم جاء أبابكر الصديق رضي الله عنه فقال له: «يا أبابكر ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟» قال: بلى، قال: فَعَلام نعطي الدَّنية في ديننا، ونرجع ولما يحكم الله بيننا؟ فقال له: إنه رسول الله وهو ناصره وليس يعصيه، قال: ألم يكن يحدثنا أنا نأتي البيت فنطوف به؟ قال: أقال لك إنك تأتيه العام؟ قال: لا، قال: فإنك آتيه ومطوِّفٌ به. (١)

فأجاب على جواب رسول الله ﷺ حرفاً بحرف، من غير تواطؤٍ ولا تشاعر، بل موافقة محب لمحبوب. هكذا وقع في صحيح البخاري.

ولما احتمل رسول الله ﷺ هذا الحكم الكونيَّ الأمريَّ، الذي حكم الله له به، ورضي به وأقر به، ودخل تحته طوعاً وانقياداً ـ وهو الفتح الذي فتح الله له ـ أثابه الله عليه بأربعة أشياء: مغفرة ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وإتمام نعمته عليه، وهدايته صراطاً مستقيماً، ونصر الله له نصراً عزيزاً.

وبهذا يقع جواب السؤال الذي أورده بعضهم هاهنا فقال: كيف يكون حكم الله له بذلك، علة لهذه الأمور الأربعة، إذ يقول الله تعالى: ﴿**إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ**﴾(٢) الآية، وجوابه ما ذكرنا، وأن تسليمه لهذا الحكم، والرضا به، والانقيادَ له، والدخولَ تحته، أوجب له أن آتاه الله ذلك.

والمقصود إنما هو ذكر الاتفاق بين المحب والمحبوب، وهذا الذي جرى

---

(١) رواه البخاري في الشروط (٥/ ٣٢٩ ـ ٣٣٣) وغيره، ومسلم في الجهاد (٣/ ١٤١١ ـ ١٤١٢) من حديث سهل بن حنيف رضي الله عنه.

(٢) أول سورة الفتح.

للصدِّيق رضي الله عنه من أحسن الموافقة، ومن هذا موافقة عمر بن الخطاب رضي الله عنه لربه تعالىٰ في عدة أمور قالها، فنزل بها الوحي كما قال.

وتقوىٰ هذه الموافقة حتىٰ يعلم المحب بكثير من أحوال محبوبه وهو غائب عنه، وهذا بحسب تعلق الهمة به وتوجه القلب إليه واتحاد مراده بمراده، وربما اقتضىٰ ذلك اتفاقهما في المرض والصحة، والفرح والحزن والخُلُق، فإن كان مع ذلك بينهما تشابهٌ في الخَلق الظاهر فهو الغاية في الاتفاق.

ولنقتصر من العلامات علىٰ هذا القدر، وبالله التوفيق.

الباب الحادي والعشرون
في اقتضاء المحبة إفراد الحبيب بالحب وعدم التشريك بينه وبين غيره فيه

هذا من موجبات المحبة الصادقة وأحكامها، فإن قوىٰ الحب متىٰ انصرفت إلىٰ جهة لم يبق فيها مُتَّسع لغيرها. ومن أمثال الناس: «ليس في القلب حُبَّان، ولا في السماء ربَّان» ومتىٰ تقسمت قوىٰ الحب بين عدة محال، ضعفت لا محالة، وتأمل قوله سبحانه وتعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (١) وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (٢) وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً (٣)﴾[1]، كيف أمره بتقواه، المتضمِّنة لإفراده بامتثال أمره ونهيه، محبة له وخشية ورجاء، فإن التقوىٰ لا تتم إلا بذلك، واتباع ما أوحىٰ إليه، المتضمن لتركه ما سوىٰ ذلك واتباع المنزل خاصة، وبالتوكل عليه وهو يتضمن اعتمادَ القلب عليه وحده، وثقته به وسكونه إليه دون غيره.

ثم أتبع ذلك بقوله: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾[2] فأنت تجد تحت هذا اللفظ أن القلب ليس له إلا وجهةٌ واحدة، إذا مال بها إلىٰ جهة لم يمل إلىٰ غيرها، وليس للعبد قلبان، يطيع الله ويتبع أمره ويتوكل عليه بأحدهما، والآخر لغيره، بل ليس إلا قلبٌ واحد، فإن لم يُفْرد بالتوكل والمحبة والتقوىٰ ربه، وإلا[3] انصرف ذلك إلىٰ غيره.

(١) أوائل سورة الأحزاب.

(٢) الآية (٤) سورة الأحزاب.

(٣) كذا.. والظاهر أنها زائدة.

والمقصود أن المحبة تستلزم توحيد المحبوب فيها، وقد بالغ أبو محمد بن حزم في إنكاره على من يزعم أنه يعشق أكثرَ من واحد، وقال في ذلك شعراً، ونحن نذكر كلامه وشعره، قال بعد كلام طويل: ومن هذا دخل الغلط على من يزعم أنه يحب اثنين، ويعشق شخصين متغايرين، وإنما هذا من جهة الشهوة التي ذكرنا آنفا، وهي على المجاز تسمى محبة لا على التحقيق، وأما نفس المحب فما في الميل به فضلٌ يصرفه من أسباب دينه ودنياه، فكيف بالاشتغال بحب ثان وفي ذلك أقول:

كَذَب المدَّعي هوى اثنين حتماً
مثلَ ما في الأصول أكذِبَ ماني[1]

ليس في القلب موضع لحبيبين
ولا أحدثَ الأمورَ اثنان

فكما العقلُ واحدٌ ليس يقوى[2]
غيرَ فردٍ مُباعدٍ أو مدان

هو في شرعة المودَّة ذو شك
بعيدٌ من صحة الإيمان

---

(١) ماني: صاحب مذهب المانوية، ولد في بابل عام ٢١٥ وهو من القائلين بالتناسخ وبقدم الظلمة والنور وأزليتهما، ويزعم أن الليل يخلق الشر، والنهار يخلق الخير، وفي دينه من الضلالات والخزعبلات ما يفوق الأساطير، ومن أغرب ما يدعو إليه تحريم الزواج وإباحة اللواط!! كما يحرم ذبح الحيوانات ويحلل أكلها ميتة!! (الفقي).

(٢) كذا.. ولعل الصواب: يهوى، كما يدل عليه البيت الأول. (الفقي).

وكـــذا الدِّينُ واحـــدٌ مـــســـتـــقـــيم

وكَـــــــفـــــــــورٌ مـن عـنـده ديـنـان

وقد اختلف الناس في هذه المسألة، فقالت طائفة: ليس للقلب إلا وجهةٌ واحدة، إذا توجه إليها لم يمكنه التوجه إلىٰ غيرها، قالوا: وكما أنه لا يجتمع فيه إرادتان معاً، فلا يكون فيه حُبَّان، وكان الشيخ إبراهيم الرقي رحمه الله يميل إلىٰ هذا.

وقالت طائفة: بل يمكن أن يكون له وجهتان فأكثر باعتبارين، فيتوجَّه إلىٰ أحدهما[1] ولا يشغله عن توجهه إلىٰ الآخر، قالوا: والقلبُ حَمَّال فما حمَّلته تحمل، فإذا حملته الأثقال حملها، وإن استعجزته عجز عن حمل غير ما هو فيه، فالقلب الواسع يجتمع فيه التوجه إلىٰ الله سبحانه وإلىٰ أمره وإلىٰ مصالح عباده، ولا يشغله واحد من ذلك عن الآخر، فقد كان رسول الله ﷺ قلبه متوجِّهٌ في الصلاة إلىٰ ربه، وإلىٰ مراعاة أحوال من يصلي خلفه، وكان يسمع بكاء الصبي فيخفف الصلاة خشية أن يَشُقَّ علىٰ أمه[2].

أفلا ترىٰ قلبه الواسع الكريم كيف اتسع للأمرين؟

ولا يُظَن أن هذا من خصائص النبوة، فهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يجهز جيشه وهو في الصلاة، فيتسع قلبه للصلاة والجهاد في آنٍ واحد، وهذا بحسب سعة القلب وضيقه وقوته وضعفه. قالوا: وكمال العبودية أن يتسعَ قلبُ العبد لشهود معبوده ومراعاة آداب عبوديته، فلا يشغله

(١) كذا.. بالتذكير بعد قوله وجهتان. ولعل الصواب هو التأنيث. (الفقي)

(٢) هو في البخاري في الأذان (٢/ ٢٠١ ـ ٢٠٢) ومسلم في الصلاة (١/ ٣٤٢ ـ ٣٤٣) من حديث أنس رضي الله عنه. ورواه البخاري أيضاً (٢/ ٢٠١) عن قتادة رضي الله عنه.

أحدُ الأمرين عن الآخر، وهذا موجودٌ في الشاهد، فإن الرجل إذا عمل عملاً للسلطان مثلاً بين يديه، وهو ناظر إليه يشاهده، فإ قلبه يتسع لمراعاة عمله وإتقانه، وشهود إقبال السلطان عليه ورؤيته له، بل هذا شأن كل محبٍّ يعمل لمحبوبه عملاً بين يديه أو في غيبته، قالوا: وهذا رسول الله ﷺ بكىٰ يوم موت ابنه إبراهيم، فكان بكاؤه رحمةً له، فاتسع قلبُه لرحمة الولد، وللرضا بقضاء الله، ولم يشغله أحدهما عن الآخر، لكن الفُضيل لم يتسع قلبه يوم موت ابنه، لذلك فجعل يضحك، فقيل له: أتضحك وقد مات ابنك؟ فقال: إن الله سبحانه قضىٰ بقضاء فأحببت أن أرضىٰ بقضائه. ومعلوم أن بين هذه الحال وحال رسول الله ﷺ حينئذ تفاوت لا يعلمه إلا الله، ولكن لم يتسع قلبه لما اتسع له قلب رسول الله ﷺ.

ونظير هذا اتساع قلب رسول الله ﷺ لغناء الجُويْرِيتَين اللتين كانتا تغنِّيان عند عائشة رضي الله عنها، فلم يشغله ذلك عن ربه، ورأىٰ فيه من مصلحة إرضاء النفوس الضعيفة بما يستخرج منها من محبة الله ورسوله ودينه، فإن النفوس متىٰ نالت شيئاً من حظها طَوَّعت ببذل ما عليها من الحق، ولم يتسع قلب عمر لذلك لما دخل فأنكره، وكم بين من تَرِدُ عليه الواردات، فكل منها يثير همته ويحرك قلبه إلىٰ الله، ومن يرد عليه من الواردات فيشغله عن الله، ويقطعه عن سير قلبه إليه.

فالقلب الواسع يسير بالخلق إلىٰ الله ما أمكنه، فلا يهرب منهم ولا يلحق بالقِفار[1] والجبال والخلوات، بل لو نزل به من نزل سار به إلىٰ الله، فإن لم يَسر معه سار هو وتركه، ولا يُنكَر هذا فالمحبة الصحيحة تقتضيه، وخذ هذا

---

(١) جمع قفرة: مفازة لا نبات فيها ولا ماء. وأقفرت الدار: خلت.

في المُغنِّي إذا طرب، فلو نزل به من نزل أطربهم كلهم، فإن لم يطربوا معه لم يَدعْ طربه لغلظ أكبادهم وكثافة طبعهم.

وكان شيخنا يميل إلىٰ هذا القول، وهو كما ترىٰ قوته وحجته.

والتحقيق: أن المحبوب لذاته لا يمكن أن يكون إلا واحداً، ومستحيلٌ أن يوجد في القلب محبوبان لذاتهما، كما يستحيل أن يكون في الخارج ذاتان قائمتان بأنفسهما، كل ذات منهما مستغنية عن الأخرىٰ من جميع الوجوه، وكما يستحيل أن يكون للعالم ربان متكافئان مستقلان، فليس الذي يُحَب لذاته إلا الإله الحق الغني بذاته عن كل ما سواه، وكل ما سواه فقير بذاته إليه.

وأما ما يُحَب لأجله سبحانه فيتعدد، ولا تكون محبة العبد له شاغلة له عن محبة ربه، ولا يشركه معه في الحب، فقد كان رسول الله ﷺ يحب زوجاته، وأَحبُّهن إليه عائشة رضي الله عنها، وكان يحب أباها ويحب عمر رضي الله عنهم، وكان يحب أصحابه، وهم مراتب في حبه لهم، ومع هذا فحبُّه كله لله، وقوىٰ حبه جميعُها منصرفةٌ إليه سبحانه.

فإن المحبة ثلاثة أقسام: محبة الله، والمحبة له وفيه، والمحبة معه.

فالمحبة له وفيه من تمام محبته وموجباتها، لا من قواطعها، فإنَّ محبة الحبيب تقتضي محبةَ ما يحب، ومحبةَ ما يعين علىٰ حبه، ويوصل إلىٰ رضاه وقربه، وكيف لا يحب المؤمن ما يستعين به علىٰ مرضاة ربه، ويتوصل به إلىٰ حبه وقربه؟

وأما المحبة مع الله: فهي المحبة الشركية، وهي كمحبة أهل الأنداد لأندادهم، كما قال تعالىٰ: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ**﴾(١). وأصل الشرك الذي لا يغفره الله: هو

(١) الآية (١٦٥) سورة البقرة.

الشرك في هذه المحبة، فإن المشركين لم يزعموا أن آلهتهم وأوثانهم شاركت الرب سبحانه في خلق السموات والأرض، وإنما كان شركهم بها من جهة محبتها مع الله، فوالَوْا عليها وعادوا عليها، وتألهوها، وقالوا: هذه آلهة صغار تقربنا إلى الإلهة الأعظم. ففرقٌ بين محبة الله أصلاً، والمحبة له تبعاً، والمحبة معه شركاً. وعليك بتحقيق هذا الموضع فإنه مفرق الطرق بين أهل التوحيد وأهل الشرك.

ويُحكى أن الفضيل دخل على ابنته في مرضها فقالت له: يا أبت هل تحبني؟ قال: نعم، قالت: لا إله إلا الله، والله ما كنت أظن فيك هذا، ولم أكن أظنك تحب مع الله أحداً، ولكن أفرد اللهَ بالمحبة، واجعل لي منك الرحمة. أي: يكون حبك لي حبَّ رحِم، جعلها الله في قلب الوالد لولده، لا محبةً مع الله.

فلله حق من المحبة لا يَشْرَكه فيه غيره، وأظلم الظلم وضعُ تلك المحبة في غير موضعها، والتشريكُ بين الله وغيره فيها. فليتدبر اللبيب هذا الباب، فإنه من أنفع أبواب الكتاب إن شاء الله تعالى.

الباب الثاني والعشرون

في غَيْرة المحبين على أحبابهم

لما كان هذا الباب متصلاً بإفراد المحبوب بالمحبة، ومن موجباته، فإن الغَيْرة بحسب قوة المحبة، وقوتها بحسب إفراد المحبوب، حَسُن ذكره بعده.

وأصل الغيرة الحمية والأنفة(1)، والغيرة نوعان: غيرةٌ للمحبوب، وغيرة عليه. فأما الغيرة له فهي الحمية له، والغضب له، إذا استُهين بحقه وانتُقِصت حُرمتُه، وناله مكروه من عدوه، فيغضب له المحب ويَحمَىٰ له، وتأخذه الغيرة له بالمبادرة إلىٰ التغيير ومحاربة من آذاه، فهذه غيرة المحبين حقاً، وهي من غيرة الرسل وأتباعهم لله ممن أشرك به، واستحل محارمه وعصىٰ أمره.

وهذه الغيرة هي التي تحمل علىٰ بذل نفس المحب ومالِه وعرضه لمحبوبه، حتىٰ يزول ما يكرهه، فهو يغار لمحبوبه أن تكون فيه صفة يكرهها محبوبه، ويَمقتُهُ عليها، أو يفعل ما يبغضه عليه، ثم يغار له بعد ذلك أن يكون في غيره صفة يكرهها ويبغضها، والدِّين كله في هذه الغيرة بل هي الدين، وما جاهد مؤمنٌ نفسه وعدوه، ولا أمر بمعروف ولا نهىٰ عن منكر إلا بهذه الغيرة، ومتىٰ خلتْ من القلب خلا من الدين، فالمؤمن يغار لربه من نفسه، ومن غيره إذا لم يكن له كما يحب، والغيرة تصفّي القلب، وتخرج خَبَثه، كما يخرج الكِير(2) خَبَثَ الحديد.

(1) الأنفة: الاستنكاف.

(2) الكير: منفخ الحداد يكون من جلد غليظ وله حاقات. وخبث الحديد نفايته أو ما نفاه الكير.

فصل

وأما الغَيرة على المحبوب: فهي أَنفةُ المحبة وحميته أن يشاركه في محبوبه غيره، وهذه أيضاً نوعان: غيرة المحب أن يشاركه غيره في محبوبه، وغيرةُ المحبوب على محبه أن يحب معه غيره، والغيرة من صفات الرب جل جلاله، والأصل فيها قوله تعالى: ﴿**قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ**﴾(١).

ومن غيرته تعالى لعبده وعليه يحميه مما يضرُّه في آخرته، كما في الترمذي وغيره مرفوعاً: «إن الله يَحْمِي عبده المؤمن من الدنيا، كما يحمى أحدُكم مريضَه من الطعام والشراب».

وفي الصحيحين: أن رسول الله ﷺ قال في خطبة الكسوف: «والله يا أمَّةَ محمدٍ، ما أُحَدٌ أغير من الله، أن يزني عبده أو تزني أمته».

وفي ذكر هذا الذنب بخصوصه في خطبة الكسوف، سرٌ بديع، قد نبهنا عليه في باب غض البصر، وأنه يورث نوراً في القلب. ولهذا جمع الله سبحانه وتعالى بين الأمر به وبين ذكر آية النور، فجمع الله سبحانه بين نور القلب بغض البصر، وبين نوره الذي مثله بالمشكاة، لتعلق أحدهما بالآخر. فجمع النبي ﷺ بين ظلمة القلب بالزنا، وبين ظلمة الوجود بكسوف الشمس، وذكر أحدهما مع الآخر.

وفي الصحيحين: من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس شيءٌ أغيرَ من الله، من أجل ذلك حرم الفواحش ما

(١) الآية (٣٣) سورة الأعراف.

ظهر منها وما بطن، ولا أحدٌ أحبَّ إليه المدح من الله، من أجل ذلك أثنى على نفسه، ولا أحدٌ أحبَّ إليه العُذْر من الله، من أجل ذلك أرسل الرسل».

وفي الصحيح عنه: من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله يَغَارُ، والمؤمن يغار، وغيرةُ اللهِ أن يأتي المؤمن ما حرَّم عليه»(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «المؤمنُ يغار، والله أشدُّ غَيرة»(٢).

فصل

وغَيرةُ العبد على محبوبه نوعان: غَيْرةٌ ممدوحة يحبُّها الله، وغيرةٌ مذمومة يكرهها الله، فالتي يحبها الله أن يغار عند قيام الريبة، والتي يكرهها أنْ يغار من غير ريبة بل من مجرد سوء الظن. وهذه الغيرة تفسد المحبة، وتوقع العداوة بين المحب ومحبوبه.

وفي الصحيح عنه ﷺ: «إنَّ من الغَيرة ما يُحب الله، ومنها ما يكره الله، فالغيرةُ التي يحبها الله؛ الغيرة في الرِّيبة، والغَيرة التي يكرهها الله؛ الغيرة في غير ريبة»(٣).

---

(١) رواه البخاري في النكاح (٩/ ٣١٩) ومسلم في التوبة (٤/ ٢١١٤).

(٢) رواه مسلم في التوبة (٤/ ٢١١٥) وفيه: «والله أشد غيراً».

(٣) حديث حسن، رواه أحمد (٥/ ٤٤٥، ٤٤٦) وأبو داود (٢٦٥٩) والنسائي (٥/ ٧٨ ـ ٧٩) وصححه ابن حبان (٢٩٥) وفي سنده جهالة.
لكن يشهد له حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه: عند أحمد (٤/ ١٥٤) وابن خزيمة (٢٤٧٨) والحاكم (١/ ٤١٧ ـ ٤١٨) وصححه ووافقه الذهبي! وفيه عبدالله بن زيد الأزرق، قال الحافظ: مقبول.

وفي الصحيح عنه ﷺ أنه قال: «أتعجبون من غَيرة سعدٍ؟ لأنا أغيرُ منه، والله أغير مني»[١].

وقال عبدالله بن شداد: الغيرة غيرتان: غيرة يُصلح بها الرجل أهله، وغيرة تدخله النار.

وفي الصحيح: عن أنس رضي الله عنه قال: أهدىٰ بعض نساء النبي ﷺ له قَصْعةً فيها ثريد، وهو في بيت بعض نسائه، فضربت يد الخادم فانكسرت القصعة، فجعل النبي ﷺ يأخذ الثريد ويرده في القصعة ويقول: «كُلُوا، غَارت أُمُّكم»، ثم انتظر حتىٰ جاءت قصعة صحيحة فأعطاها التي كُسِرت قصعتها[٢].

وقال عائشة رضي الله عنها: ما غرتُ علىٰ امرأة قط ما غرت علىٰ خديجة، من كثرة ذكر النبي ﷺ إياها، ولقد ذكرها يوماً فقلت: ما تصنع بعجوز حمراء الشَّدقين، قد أبدلك الله خيراً منها؟ فقال: «والله ما أَبدلني اللهُ خيراً منها»[٣].

فانظر هذه الغيرة الشديدة علىٰ امرأة بعد ما ماتت، وذلك لفرط محبتها لرسول ﷺ كانت تغار عليه أن يذكر غيرَها.

وعن ابن أبي مليكة: أن ابن عمر رضي الله عنهما سمع امرأته تكلم رجلاً من وراء جدار، بينها وبينه قرابة لا يعلمها ابن عمر، فجمع لها

---

(١) مضى تخريجه.

(٢) رواه البخاري في النكاح (٩/ ٣٢٠).

(٣) رواه البخاري في مناقب الأنصار (٧/ ١٣٣ ـ ١٣٤) وفي النكاح (٩/ ٣٢٦) ومسلم في فضائل الصحابة (٤/ ١٨٨٨ ـ ١٨٨٩) بألفاظ متقاربة.

جرائد[1] ثم ضربها حتىٰ أَضَبَّت حسيساً[2]. وذكر الخرائطي: عن معاذ بن جبل رضي الله عنه أنه كان يأكل تفاحاً ومعه امرأته، فدخل عليه غلام له فناولته تفاحة قد أكلت منها، فأوجعها معاذ ضرباً.

ودخل يوماً علىٰ امرأته وهي تَطَّلع في خباء أَدَمٍ فضربها.

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه شديد الغيرة، وكانت امرأته تخرج فتشهد الصلاة، فيكره ذلك، فتقول: إنْ نهيتني انتهيت، فيسكت امتثالاً لقول رسول الله ﷺ: «لا تَمنعوا إماءَ الله مساجدَ الله»[3].

وهو الذي أشار علىٰ النبي ﷺ أن يحجب نساءه، وكان عادة العرب أن المرأة لا تحتجب لنزاهتهم ونزاهة نسائهم، ثم قام الإسلام علىٰ ذلك، فقال عمر: يا رسول الله، لو حجبتَ نساءك، فإنه يدخل عليهن البر والفاجر، فأنزل الله عز وجل آية الحجاب.[4]

ورفع إلىٰ عُمر بن الخطاب رضي الله عنه رجل قد قتل امرأته ومعها رجل آخر، فقال أولياء المرأة: هذا قتل صاحبتنا، وقال أولياء الرجل: إنه قدقتل صاحبنا، فقال عمر رضي الله عنه: ما يقول هؤلاء؟ قال: ضرب الآخر فخذي امرأته بالسيف، فإن كان بينهما أحدٌ فقد قتلته، فقال لهم عمر: ما يقول: فقالوا: ضرب بسيفه فقطع فخذي المرأة فأصاب وسط الرجل فقطعه

(١) الجرائد جمع جريدة: قضبان النخل يجرد عنها الخوص.

(٢) أضب الشيء: أخفاه. والحسيس: الصوت الخفي، ومنه قوله تعالى: ﴿لا يسمعون حسيسها﴾ الأنبياء: ١٠٢.

(٣) رواه البخاري في الجمعة (٢/ ٣٨٢) عن ابن عمر رضي الله عنه.

(٤) رواه البخاري في التفسير (٨/ ٥٢٧) من حديث أنس عن عمر رضي الله عنهما.

باثنتين، فقال عمر رضي الله عنه: إن عادوا فعد. ذكره سعيد بن منصور في سننه(١).

وأخذ بهذا جماعة من الفقهاء، منهم الإمام أحمد وأصحابه رحمهم الله تعالىٰ، قالوا: لو وجد رجلاً يزني بامرأته فقتلهما فلا قصاص عليه ولا ضمان، إلا أن تكون المرأةُ مُكْرهة فعليه القصاص بقتلها، ولكن لا يُقبل قول الزوج إلا بتصديق الولي أو بينة، واختلفت الرواية عن الإمام أحمد في عدد البينة، فروىٰ عنه أنها رجلان، ويروىٰ عنه: لابد من أربعة، ووجه هذه الرواية ظاهر حديث سعد بن عبادة رضي الله عنه أنه قال: يا رسول الله، أرأيت إنْ وجدتُ رجلاً مع امرأتي، أمهله حتىٰ آتي بأربعة شهداء؟ فقال النبي ﷺ: «نعم»، فقال: والذي بعثك بالحق، إن كنتُ لأضربه بالسيف غير مُصْفح(٢) فقال النبي ﷺ: «ألا تَعْجبون من غَيرة سعدٍ، لأنا أغيرُ منه، والله أغيرُ مني».

وذكر سعيد بن منصور: عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه سئل عن رجل دخل بيته فإذا مع امرأته رجلٌ فقتلها وقتله، فقال علي رضي الله عنه: إن جاء بأربعة شهداء، وإلا دفع بُرَّمته(٣).

---

(١) رواه سعيد بن منصور في سننه عن هشيم عن مغيرة عن إبراهيم عن عمر رضي الله عنه به. وإبراهيم هو النخعي، ولم يسمع من عمر، انظر سنده في المغني (١٢/ ٥٣٥) لابن قدامة الحنبلي.

(٢) يقال. صفح فلانا بالسيف: ضربه بعرضه لا بحده.

(٣) رواه ابن أبي شيبة (٩/ ٤٠٣) وعبدالرزاق (٩/ ٤٣٣ ـ ٤٣٤) والبيهقي في سننه (٨/ ٣٣٧) عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب به.
قوله: برمته، الرمة حبل يشد به الأسير أو القاتل، إذا قيد إلى القتل (اللسان).

ووجه رواية الاكتفاء باثنين : أن البينة ليست على إقامة الحد ، ولكن على وجود[1] السبب المانع من القصاص ، فإن الزوج كان له أن يقتل المتعدي على أهله ، ولكن لما أنكر أولياء القتيل طُولب القاتلُ بالبينة فاكتفى برجلين .

وليس في (القصة) مطالبة عمر رضي الله عنه القاتل بالبِّينة ، إذ لعله تيقن ذلك أو أقر به الولي ، والصواب أنه متى قام على ذلك دلالةٌ ظاهرة لا تحتمل الكذب ، أغنت عن البينة .

فصل

والله سبحانه وتعالى يغار على قلب عبده ، أن يكون معطَّلاً من حبه وخوفه ورجائه ، وأن يكون فيه غيرُه . فالله سبحانه وتعالى خَلَقه لنفسه ، واختاره من بين خلقه .

ويغار على لسانه أن يتعطَّل من ذكره ويشتغل بذكر غيره ، ويغار على جوارحه أن تتعطل من طاعته ، وتشتغل بمعصيته ، فيقبح بالعبد أن يغار مولاه الحق على قلبه ولسانه وجوارحه ، وهو لا يغار عليها !

وإذا أراد الله بعبده خيراً ، سلَّط على قلبه - إذا أعرض عنه واشتغل بحب غيره - أنواع العذاب حتى يرجع قلبه إليه ، وإذا اشتغلت جوارحه بغير طاعته ابتلاها بأنواع البلاء . وهذا من غيرته سبحانه وتعالى على عبده ، وكما أنه سبحانه وتعالى يغار على عبده المؤمن ، فهو يغار له ولحرمته ، فلا يُمكِّن المفسد أن يتوصل إلى حرمته ، غيرةً منه لعبده ، فإنه سبحانه وتعالى يدفع عن الذين آمنوا ، فيدفع عن قلوبهم ، وجوارحهم ، وأهلهم ، وحريمهم ، وأموالهم ،

---

(١) في الأصل : وجوب ، ولعل الصواب ما أثبتناه .

يتولىٰ سبحانه الدفع عن ذلك كله، غيرةً منه لهم، كما غاروا لمحارمه من نفوسهم ومن غيرهم.

والله تعالىٰ يغار علىٰ إمائه وعبيده من المفسدين شرعاً وقدراً، ومن أجل ذلك حرم الفواحش، وشرع عليها أعظمَ العقوبات، وأشنع القَتَلات، لشدّة غيرته علىٰ إمائه وعبيده، فإن عطلت هذه العقوبات شرعاً، أجراها سبحانه قَدَراً.

فصل

ومن غَيرته سبحانه وتعالىٰ غيرتُه علىٰ توحيده ودينه وكلامه، أن يحظىٰ به من ليس من أهله، بل حال بينهم وبينه غيرة عليه، قال الله تعالىٰ: ﴿**وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا**﴾(1) ولذلك ثَبَّط سبحانه أعداءه عن متابعة رسوله واللحاق به غيرةً، كما قال الله تعالىٰ: ﴿**وَلَكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ (46) لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (47)**﴾(2).

فغار سبحانه علىٰ نبيه ﷺ وأصحابه أن يخرج بينهم المنافقون فيسعَوا بينهم بالفتنة، فثبطهم وأقعدهم عنهم.

وسمع الشبلي رحمه الله تعالىٰ قارئاً يقرأ: ﴿**وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا (45)**﴾(3) فقال: أتدرون ما هذا الحجاب؟ هذا حجاب الغيرة، ولا أحدٌ أغير من الله.

(1) الآية (25) سورة الأنعام و(46) سورة الإسراء. والأكنة: الأغطية. والوقر: الصمم.

(2) الآيتان (46 و47) سورة التوبة. والخبال: الفساد. وأوضعوا خلالكم: أي سعوا بينكم بالنميمة، وإفساد ذات بينكم.

(3) الآية (45) سورة الإسراء.

يعني أنه سبحانه وتعالىٰ لم يجعل الكفار أهلاً لمعرفته.

وهاهنا نوع من غيرة الرب سبحانه وتعالىٰ، لطيفٌ لا تهتدي إليه العقول، وهو أن العبد يفتح له بابٌ من الصفاء والأنس والوجود، فيساكنه ويطمئن إليه وتلتذ به نفسه فيشتغل به عن المقصود، فيغار عليه مولاه الحق، فيخليه منه ويُردُّه حينئذ إليه بالفقر والذِّلة والمسكنة، ويُشهده غايةَ فقره وإعدامه(١)، وأنه ليس معه من نفسه شيء ألبتة، فتعود عزَّةُ ذلك الأنس والصفاء والوجود، ذلةً ومسكنة وفقراً وفاقه، وذرةٌ من هذا أحب إليه سبحانه وتعالىٰ وأنفع للعبد من الجبال الرواسي من ذلك الصفاء والأنس، المجرد عن شهود الفقر والذلة والمسكنة. وهذا باب لا يتسع له قلب كل أحد.

فصل

ومن الغيرة: الغيرة علىٰ دقيق العلم، ومالا يدركه فهم السامع أن يذكر له. ولهذه الغيرة قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: حدثوا الناس بما يعرفون، أتحبون أن يُكذب الله ورسوله؟ وقال ابن مسعود رضي الله عنه: ما أنت بمحدّثٍ قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم، إلا كان لبعضهم فتنة.

فالعالم يغار علىٰ علمه أن يبذله لغير أهله، أو يضعه في غير محله، كما قال عيسىٰ بن مريم ﷺ: يا بني إسرائيل لا تمنعوا الحكمة أهلها فتظلموهم، ولا تبذلوها لغير أهلها فتظلموها.

وسئل ابن عباس رضي الله عنهما عن تفسير قوله تعالىٰ: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ

(١) الإعدام والعدم: الفقدان والفقر، وأعدم الرجل: افتقر.

﴿سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾[1]. فقال للسائل: وما يُؤَمِّنُك أني إن أخبرتك بتفسيرها كفرت؟ فإنك تكذّب به[2] وتكذيبُك بها كفرك بها.

فالمسألة الدقيقة اللطيفة التي تبذل لغير أهلها، كالمرأة الحسناء التي تُهدىٰ إلىٰ ضرير مقعد، كما قيل:

* خَوْدٌ[3] تُزفُّ إلىٰ ضريرٍ مُقْعد *

وقال القشيري: وقيل لبعضهم: أتحب أن تراهم؟ قال: لا، قيل: ولم؟ قال: أنزه ذلك الجمال عن نظر مثلي!

قلت: وهذه غيرةٌ فاسدة! وغاية صاحبها أن يعفىٰ عنه، وأن يعدَّ ذلك في شطحاته المذمومة، وأما أن تعد في مناقبه وفضائله، أن يقال: أتحب أن ترىٰ الله؟ فيقولك لا، ورؤيته أعلىٰ نعيم أهل الجنة، وهو سبحانه وتعالىٰ يحب من عبده أن يسأله النَّظر إليه، وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه كان من دعائه: «اللهم إني أسألك لذَّةَ النَّظرِ إلىٰ وجهك، والشَّوْقَ إلىٰ لقائك»[4].

وقول هذا القائل: أنزه ذلك الجمال عن نظر مثلي، من خدع الشيطان والنفس، وهو يشبه ما يحكىٰ عن بعضهم أنه قيل له: ألا تذكره؟ فقال: أنزهه أن يجري ذكره علىٰ لساني! وطرد هذا التنزيه الفاسد: أن ينزهه أن يجري كلامه علىٰ لسانه، أو يخطر هو أيضاً علىٰ قلبه.

---

(١) آخر سورة الطلاق.

(٢) كذا.. ولعل الصواب بها.

(٣) الخود: الشابة الجميلة الناعمة الحسنة الخلق، جمعها خود وخودات.

(٤) تقدم تخريجه.

وطَرْدُ هذه الغيرة أن لا يزور بيته، غيرةً على بيته أن يزوره مثله. ولقد لمت شخصاً مرةً على ترك الصلاة، فقال لي: إني لا أرى نفسي أهلاً أن أدخل بيته! فانظر إلى تلاعب الشيطان بهؤلاء. ومن هذا ما ذكره القشيري قال: سئل الشبلي متى تستريح؟ فقال: إذا لم أر له ذاكراً.

ونظير هذا ما يحكى عن النوري رحمه الله تعالى أنه سمع رجلاً يؤذن فقال: طعنة وسم الموت، وسمع كلباً ينبح فقال: لبيك وسعديك!! فسئل عن ذلك فقال: أما ذاك فكان يذكره على رأس الغفلة، وأما الكلب فقال الله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾(١).

ويا عجباً ممن يَعدُّ هذا في مناقب رجل، ويجعله قدوة ويزيّن به كتابه! وهل شيء أشد على قلب المؤمن وأمرُّ عليه، من أن لا يرى لربه ذاكراً؟ وهل شيء أقر لعينه من أن يرى ذاكرين الله بكل مكان، وعذرُ هذا القائل أنه لا يرى ذاكراً لله بحقِّ الذكر، بل لا يرى ذاكراً إلا والغفلةُ والسهوة مستولية على قلبه، فيذكر ربه بلسان فارغ من القلب وحضوره في الذكر، وذلك ذكرٌ لا يليق به، فيغار محبه أن يذكر بهذا الذكر فيحب أن لا يسمع أحداً يذكره هذا الذكر. ولما اشترك الناس في هذا الذكر أخبر أن راحته أن لا يرى له ذاكراً.

هذا أحسن ما يحمل عليه كلامه، وإلا فظاهره إلى العداوة أقرب منه إلى المحبة. وليس هذا حال الشبلي رحمه الله تعالى، فإن المحبة كانت تغلب عليه، ومع ذلك فهو من شطحاته التي يُرجى أن تُغفر له بصدقه ومحبته وتوحيده، لا أنها مما يُحمد عليه ويقتدى به فيه.

---

(١) الآية (٤٤) سورة الإسراء.

وقد أمر الله سبحانه وتعالىٰ عباده أن يذكروه علىٰ جميع أحوالهم، وإن كان ذكرهم إياه مراتب، فأعلاها: ذكر القلب واللسان مع شهود القلب للمذكور، وجمعيته بكليته بأحب الأذكار إليه، ثم دونه ذكر القلب واللسان أيضاً وإن لم يشاهد المذكور، ثم ذكر القلب وحده، ثم ذكر اللسان وحده، فهذه مراتب الذكر وبعضها أحبُّ إلىٰ الله من بعض.

وكان طَرْد قول الشبلي أن راحته أن لا يرىٰ لله مصلياً، ولا لكلامه تالياً، ولا يرىٰ أحداً ينطق بالشهادتين!! فإن هذا كله من ذكره بل هو أعلىٰ أنواع ذكره، فكيف يستريح قلب المحب إذا لم ير من يفعل ذلك؟ والله سبحانه وتعالىٰ يحب أن يُذكر ولو كان من كافر.

وقال بعض السلف: إن الله يحب أن يُذْكر علىٰ جميع الأحوال إلا في حال الجماع وقضاء الحاجة. وأوحي الله عز وجل إلىٰ موسىٰ ﷺ أن اذكرني علىٰ جميع أحوالك، والله تعالىٰ لا يُضيع أجر ذكر اللسان المجرد، بل يثيب الذاكر وإن كان قلبه غافلاً، ولكن ثوابٌ دون ثواب.

ثم ذكر القُشيري كلامَ الشبلي أنه قال: غَيرة الإلهية علىٰ الأنفاس أن تضيع فيما سوىٰ الله، وهذا كلام حسن.

قال القشيري: والواجب أن يقال: الغَيْرة غَيرتان: غيرة الحق علىٰ العبد، وهو أن لا يجعله للخلق فيضنَّ به عليهم، وغَيرة العبد للحق، وهو أ لا يجعل شيئاً من أحواله وأنفاسه لغير الحق سبحانه، فلا يقال: أنا أغار علىٰ الله! ولكن يقال: أنا أغار لله، قال: فإذاً الغيرة علىٰ الله جهل، وربما تؤدي إلىٰ ترك الدين.

والغَيرة لله توجب تعظيمَ حقوقه وتصفية الأعمال له، فمن سنة الحق مع

أوليائه أنهم إذا ساكنوا غيراً، أو لاحظوا شيئاً، أو صالحوا بقلوبهم شيئاً، يشوش عليهم ذلك، فيغار على قلوبهم بأن يعيدها خالصة لنفسه فارغة، كآدم عليه السلام لما وطَّن نفسه على الخلود في الجنة أخرجه من الجنة، وإبراهيم الخليل عليه السلام لما أعجبه إسماعيل أمره بذبحه حتى أخرجه من قلبه، فلما أسلما وتله للجبين وصفى سرَّه منه، أمره بالفداء عنه. وقال بعضهم: احذروه فإنه غيور لا يحب أن يرى في قلب عبده سواه. وقيل: الحق تعالى غيور، ومن غيرته أنه لم يجعل إليه طريقاً سواه.

وقال السَّرِي لرجل عارف: بي علة باطنة فما دواؤُها؟ قال: يا سري، الله غيورٌ لا يراك تساكن غيره فتسقط من عينه. فهذه غَيرة صحيحة.

فصل

وهاهنا أقسامٌ أُخر من الغيرة مذمومة منها: غيرةٌ يحمل عليها سوء الظن، فيؤذي بها المحب محبوبه، ويُغري عليه قلبه بالغضب، وهذه الغيرة يكرهها الله إذا كانت في غير ريبة، ومنها غيرة تحمله على عقوبة المحبوب بأكثر مما يستحقه، كما ذُكر عن جماعة أنهم قتلوا محبوبهم.

فصل

وقد يغار المحب على محبوبه من نفسه، وهذا من أعجب الغيرة، وله أسباب:

منها: خشية أن يكون مفتاحاً لغيره.

وكان بعضهم يمتنع من وصف محبوبه، وذكر محاسنه، خشية تعريضه لحب غيره له، كما قال علي بن عيسى الرافقي:

ولست بواصفٍ أبداً خليلاً
أُعرِّضه لأهواء الرجال

وما بالي أُشوِّق قلبَ غيري
ودون وصاله ستُر الحِجال

وكثير من الجهال وَصَفَ امرأته ومحاسنها لغيره، فكان ذلك سبب فراقها له، واتصالها به.

فصل

ومنها: أن يحمله فرط الغيرة على أن ينزل نفسه منزلة الأجنبي، فيغار على المحبوب من نفسه، ولا يُنكَر هذا، فإن في المحبة عجائب، وقد قال أبو تمام الطائي:

بنفسي مَنْ أغارُ عليه مني
وأحسد أهله نظري إليه

ولو أني قدَرتُ طَمَست عنه
عيونَ الناسِ من حذري عليه

فصل

ومنها: شدةُ الموافقة للحبيب، والحبيب يكره أنّ ينسب محبته إليه، وأن يذكر ذلك، فهو لموافقته لمحبوبه يغار عليه من نفسه، كما يَسُرُّه هجُر محبوبه إذا علم أن فيه مراده، قال الشاعر:

سُـــرِرتُ بهجـــرك لما علمتُ
أن لقلبـك فيـه سـرورا

ولـولا سـرورُك مـا سَـرَّني
ولا كنتُ يومـاً عليـه صبـوراً

فصل

وملاكُ الغَيرة وأعلاها ثلاثة أنواع: غيرةُ العبد لربه أن تُنْتهك محارمُه، وتضيع حدوده، وغيرتُه علىٰ قلبه أن يسكن إلىٰ غيره، وأن يأنس بسواه، وغيرته علىٰ حُرْمته أن يتطلع إليها غيره. فالغيرة التي يحبها الله ورسوله دارت علىٰ هذه الأنواع الثلاثة، وما عداها فإما من خدع الشيطان، وإما بلوىٰ من الله، كغيرة المرأة علىٰ زوجها أن يتزوج عليها.

فإن قيل: فمن أي الأنواع تعدون غيرةَ فاطمة رضي الله عنها ابنة رسول الله ﷺ علىٰ علي بن أبي طالب رضي الله عنه، لما عزم علىٰ نكاح ابنة أبي جهل، وغيرةَ رسول الله ﷺ لها؟

قيل: من الغيرة التي يحبها الله ورسوله، وقد أشار إليها النبي ﷺ بأنها بَضْعةٌ[1] منه، وأنه يؤذيه ما آذاها، ويُريبه ما أرابها[2]، ولم يكن يَحسن ذلك الاجتماع البتة، فإن بنتَ رسول الله ﷺ لا يحسن أن تجتمع مع بنت عدوه عند رجل، فإن هذا في غاية المنافرة، مع أن ذكر النبي ﷺ صهره الذي حدَّثه فصدقه، ووعده فوفَّىٰ له، دليلٌ علىٰ أن علياً رضي الله عنه كان مشروطاً عليه

(١) البَضعة منه: جزء منه، والبضعة: القطعة من اللحم.

(٢) أرابها: أغاظها وأقلقها.

في العقد، إما لفظاً، وإما عُرْفاً وحالاً، أن لا يريب فاطمة ولا يؤذيها، بل يمسكها بالمعروف، وليس من المعروف أن يضم إليها بنت عدو الله ورسوله ويغيظَها بها، ولهذا قال النبي ﷺ: «إلا أنْ يريدَ ابن أبي طالب أن يطلّق ابنتي ويتزوج ابنة أبي جهل»[١].

والشرط العرفي الحالي، كالشرط اللفظي، عند كثير من الفقهاء، كفقهاء المدينة وأحمد بن حنبل وأصحابه رحمهم الله تعالىٰ.

علىٰ أن رسول الله ﷺ خاف عليها الفتنة في دينها، باجتماعها وبنت عدو الله عنده، فلم تكن غَيرته ﷺ لمجرد كراهية الطبع للمشاركة، بل الحامل عليها حُرْمُة الدين. وقد أشار إلىٰ هذا بقوله: «إني أخافُ أن تُفتَنَ في دينها»[٢] والله أعلم بالصواب.

---

(١) رواه البخاري في فضائل الصحابة (٧/ ٨٥) وفي النكاح (٩/ ٣٢٧) وغيرها، ومسلم في فضائل الصحابة (٣/ ١٩٠٢، ١٩٠٣) من حديث المسور بن مخرمة رضي الله عنه.

(٢) هو من الحديث السابق.

الباب الثالث والعشرون

في عفاف المحبين مع أحبابهم

قال الله تعالىٰ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (٤) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٥) إِلاَّ عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٦) فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٧)﴾[1].

وقال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (١٩)﴾، إلىٰ قوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٢٩) إِلاَّ عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٣٠) فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٣١)﴾[2].

وقال تعالىٰ: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٣٠) وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾[3] الآية.

وقال تعالىٰ: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾[4]، وقال تعالىٰ: ﴿وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٦٠)﴾[5]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾[6].

---

(١) أوائل سورة المؤمنين.

(٢) الآيات (١٩ و٢٩ و٣٠ و٣١) سورة المعارج.

(٣) الآيتان (٣٠ و٣١) سورة النور.

(٤ و٥) الآيتان (٣٣ و٦٠) سورة النور.

(٦) آخر سورة التحريم.

فإن قيل: فقد قال الله تعالىٰ: ﴿وَأَنكِحُوا الأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾[1]، وقال في الآية الأخرىٰ: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ فأمرهم بالاستعفاف إلىٰ وقت الغنىٰ، وأمر بتزويج أولئك مع الفقر، وأخبر أنه تعالىٰ يغنيهم، فما محمل كل من الآيتين؟

فالجواب أن قوله: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ في حق الأحرار، أمرهم الله تعالىٰ أن يستعفُّوا حتىٰ يغنيهم الله من فضله، فإنهم إن تزوجوا مع الفقر التزموا حقوقاً لم يقدروا عليها، وليس لهم من يقوم بها عنهم، وأما قوله: ﴿وَأَنكِحُوا الأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾ فإنه سبحانه أمرهم فيها أن ينكحوا الأيامىٰ، وهن: النساء اللواتي لا أزواج لهن، هذا هو المشهور من لفظ الأيم عند الإطلاق، وإن اسْتُعمل في حق الرجل بالتقييد، كما أن العَزَب عند الإطلاق للرجل، وإن استُعمل في حق المرأة.

ثم أمرهم سبحانه أن يزوجوا عبيدهم وإماءهم إذا صلحوا للنكاح، فالآية الأولىٰ في حكم تزوجهم لأنفسهم، والثانية في حكم تزويجهم لغيرهم.

وقوله في هذا القسم: ﴿إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ﴾ يعم الأنواع الثلاثة التي ذكرت فيه، فإن الأيم تستغنىٰ بنفقة زوجها، وكذلك الأمة، وأما العبد: فإنه لما كان لا مال له، وكان ماله لسيده، فهو فقيرٌ ما دام رقيقاً، فلا يمكن أن يُجعل لنكاحه غايةٌ وهي غناه ما دام عبداً، بل غناه إنما يكون إذا عَتَق واستغنىٰ بهذا العتق،

---

١) الآية (٣٢) سورة النور.

والحاجة تدعوه إلىٰ النكاح في الرق، فأمر سبحانه بإنكاحه وأخبر أنه يغنيه من فضله، إما بكسبه وإما بإنفاق سيده عليه وعلىٰ امرأته، فلم يمكن أن ينتظر بنكاحه الغنىٰ الذي ينتظر بنكاح الحر، والله أعلم.

وفي المسند وغيره مرفوعاً: «ثلاثةٌ حقٌ علىٰ الله عونهم: المتزوِّجُ يريدُ العَفَاف، والمكاتَبُ يريد الأداء» وذكر الثالث[1].

فصل

وقد ذكر الله سبحانه وتعالىٰ عن يوسف الصدِّيق ﷺ من العفاف أعظم ما يكون، فإن الداعي الذي اجتمع في حقه لم يجتمع في حق غيره، فإنه ﷺ كان شاباً، والشباب مركب الشهوة، وكان عَزَباً ليس عنده ما يعوضه، وكان غريباً عن أهله ووطنه، والمقيم بين أهله وأصحابه يستحيي منهم أن يعلموا به، فيسقط من عيونهم، فإذا تغرَّب زال هذا المانع، وكان في صورة المملوك والعبد لا يأنف مما يأنفُ منه الحر، وكانت المرأة ذات منصبٍ وجمال، والداعي مع ذلك أقوىٰ من داعىٰ من ليس كذلك، وكانت هي المطالبة، فيزول بذلك كُلْفة تعَرُّض الرجل وطلبه، وخوفه من عدم الإجابة، وزادت مع الطلب الرغبة التامة والمراودة، التي يزول معها ظن الامتحان والاختبار لتعلم عفافه من فجوره، وكانت في محل سلطانها وبيتها، بحيث تعرف وقت الإمكان، ومكانه الذي لا تناله العيون، وزادت مع ذلك تغليق الأبواب لتأمنَ هجوم الداخل علىٰ بغتة، وأتته بالرغبة والرهبة، ومع هذا كله فعفَّ لله ولم

(١) حسن، رواه أحمد (٢/ ٢٥١، ٤٣٧) والترمذي (١٦٥٥) والنسائي (٦/ ٦١) وابن ماجة (٢٥١٨) من حديث ابن عجلان عن سعيد بن أبي سعيد عن أبي هريرة مرفوعاً به، والثالث: «الغازي في سبيل الله». وإسناده حسن، من أجل ابن عجلان.

يُطعـهـا، وقـدَّم حق الـلـه وحق سـيـدها عـلىٰ ذلك كله، وهذا أمـر لو ابتـلىٰ به سواه، لم يُعلم كيف كانت تكون حاله.

فإن قيل: فقـد همَّ بهـا، قيل عـنه جوابان، أحـدهمـا: أنه لـم يَهُـمَّ بهـا، بل لولا أن رأىٰ برهان ربه لهم، هذا قول بعضهم في تقدير الآية.

والثـاني: وهو الصـواب أن همَّه كـان همَّ خطـرات، فتـركه لـله فـأثابه الله عليـه، وهمهـا كـان هم إصرار، بذلت مـعـه جُهـدَها فلم تصل إليـه، فلم يستوِ الهمَّان.

قال الإمام أحمـد بن حنبل رضي الله عنه: الهم همان: هـم خطرات وهـم إصرار، فهمُّ الخطرات لا يؤاخذ به، وهم الإصرار يؤاخذ به.

فإن قـيل: فكيف قال وقت ظهـور براءته: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي﴾؟ قيل: هذا قد قاله جماعة من المفسرين، وخالفهم في ذلك آخـرون أجلُّ منهم، وقالوا: إن هذا من قول امرأة العـزيز لا من قول يوسف عليه السلام، والصـواب معهم لوجوه:

أحـدها: أنه مـتـصل بكلام المرأة، وهو قـولهـا: ﴿الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (51) ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ (52) وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي﴾[1]. ومن جعله من قـوله فإنه يحـتـاج إلىٰ إضمار قول لا دليل عليه في اللفظ بوجه، والقولُ في مثل هذا لا يحذف، لئلا يوقع في اللبس[2] فإن غـايته أن يحتمل الأمرين، فـالكلام الأول أولىٰ به قطعاً.

---

(1) الآيات (51 و52 و53) سورة يوسف. وحصحص الحق: وضح وتبين بعد خفائه.

(2) اللبس: الشبهة تخفى معهـا حقيقة الأمر، ولبس الشيء: خلطه وعمَّاه، ولَبَّس عليه الأمر، جعله مُشكلاً ومدعاة إلى الشك والحيرة.

الثاني: أن يوسف عليه السلام لم يكن حاضراً وقت مقالتها هذه، بل كان في السجن لما تكلمت بقولها: ﴿الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ﴾، والسياق صريح في ذلك، فإنه لما أرسل الملك إليه يدعوه، قال للرسول: ﴿ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾(١) فأرسل إليهن الملك وأحضرهن وسألهن وفيهن امرأته، فشهدن ببراءته ونزاهته في غيبته، ولم يُمكنهنَّ إلا قولُ الحق، فقال النسوة: ﴿حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ﴾(٢) وقالت امرأة العزيز: ﴿أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٥١)﴾(٣).

فإن قيل: لكن قوله: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ (٥٢)﴾(٣) الأحسن أن يكون من كلام يوسف عليه السلام، أي: إنما كان تأخيري عن الحضور مع رسوله، ليعلم الملك أني لم أخنه في امرأته في حال غيبته، وأن الله لا يهدي كيد الخائنين، ثم إنه ﷺ قال: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥٣)﴾(٤) وهذا من تمام معرفته ﷺ بربه ونفسه، فإنه لما أظهر براءتَه ونزاهته مما قُذف به، أخبر عن حال نفسه وأنه لا يزكيها ولا يبرئها، فإنها أمَّارة بالسوء، لكن رحمة ربه وفضله هو الذي عصمه، فرد الأمر إلى الله بعد أن أظهر برءته.

قيل: هذا وإن كان قد قاله طائفة، فالصواب أنه من تمام كلامها، فإن الضمائر كلها في نسق واحد يدل عليه وهو قول النسوة: ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ﴾ وقول امرأة العزيز: ﴿أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٥١)﴾ فهذه خمسة ضمائر بين بارزٍ ومستتر، ثم اتصل بها قوله: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ فهذا هو المذكور أولاً بعينه، فلا شيء يفصل الكلام عن نظمه ويضمر فيه قولٌ لا دليل عليه.

(١، ٢، ٣، ٤) الآيات (٥٠ و٥١ و٥٢ و٥٣) سورة يوسف.

فإن قيل: فما معنىٰ قولها: ﴿لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾؟ قيل: هذا من تمام الاعتذار، قرنت الاعتذار بالاعتراف، فقالت: ذلك أي قولي هذا وإقراري ببراءته، ليعلم أني لم أخنه بالكذب عليه في غيبته، وإن خنتُه في وجهه في أول الأمر، فالآن يعلم أنىٰ لم أخنه في غيبته، ثم اعتذرت عن نفسها بقولها: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي﴾ ثم ذكرت السبب الذي لأجله لم تبرئ نفسها، وهي أن النفس أمارة بالسوء، فتأمل ما أعجب أمر هذه المرأة! أقرت بالحقِّ واعتذرت عن محبوبها، ثم اعتذرت عن نفسها، ثم ذكرْت السببَ الحامل لها علىٰ ما فعلت، ثم ختمت ذلك بالطمع في مغفرة الله ورحمته، وأنه إن لم يرحم عبده وإلا فهو عُرْضةٌ للشر، فوازن بين هذا وبين تقدير كون هذا الكلام كلام يوسف عليه السلام لفظاً ومعنىٰ، وتأمل ما بين التقديرين من التفاوت، ولا يُستبعدُ أن تقول المرأة هذا وهي علىٰ دين الشرك، فإن القوم كانوا يقرُّون بالرب سبحانه وتعالىٰ وبحقه، وإن أشركوا معه غيره، ولا تنس قول سيدها لها في أول الحال: ﴿وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ (٢٩)﴾(١).

فصل

وفي الصحيح: من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «سَبْعةٌ يُظلُّهم الله في ظلِّه يوم لا ظلَّ إلا ظلُّه: إمامٌ عادل، وشابٌ نشأ في عبادة الله، ورجلٌ قلبه معلَّقٌ بالمساجد، ورجلانِ تحابَّا في الله، اجتمعا علىٰ ذلك وتفرقا عليه، ورجلٌ دَعَته امرأةٌ ذات منصب وجمال فقال: إني

(١) الآية (٢٩) سورة يوسف.

أخاف الله ربَّ العالمين، ورجلٌ تصدَّق بصدقةٍ فأخفاها حتىٰ لا تعلمَ شمالُه ما تُنفق يمينه، ورجلٌ ذَكَر الله خالياً ففاضتْ عيناه»(١).

وفي الصحيح: من حديث أبي هريرة وابن عمر رضي الله عنهم، عن النبي ﷺ قال: «بينما ثلاثةٌ يمشونَ إذ أخذتهم السماء فأَوَوا إلىٰ غارٍ في الجبل فانحطَّتْ عليهم صخرةٌ من الجبل فأطبقت عليهم، فقال بعضهم لبعض: انظروا أعمالاً صالحةً عملتموها فادعوا الله بها، فقال بعضُهم: اللهم إنك تعلم أنه كان لي أبوان شيخان كبيران وامرأة وصِبْيانٌ، وكنت أرعىٰ عليهم، فإذا رُحتُ عليهم، حَلَبْت فبدأت بوالدي أسقيهما قبل بَنيَّ، وأنه نأىٰ بي الشجرُ فلم آت حتىٰ أمسيتُ، فوجدتهما قد ناما، فحلبتُ كما كنت أَحْلِب، فقمت عند رؤوسهما أكره أن أوقظهما من نومهما، وأن أبدأ بالصبية قبلهما، والصبية يتضاغون(٢) عند قدمي، فلم أزل كذلك حتىٰ طَلَعَ الفجر، فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك، فافْرُج عنا فُرْجةً نرىٰ منها السماء، ففرج الله لهم فرجة. وقال الآخر: اللهم إنه كانت لي ابنةَ عم، فأحببتُها كأشدِّ ما يحب الرجالُ النساءَ، فطلبتُ إليها نفسَها فأبت حتىٰ آتيها بمائة دينار، فسعيتُ حتىٰ جمعت مائة دينار فجئتها بها، فلما قعدت بين رجليها قالت: يا عبدالله، اتق الله ولا تَفُضَّ الخاتمَ إلا بحقه، فقمتُ عنها وتركت المائةَ دينار، فإنْ كنتَ تعلمُ أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك، فافرجْ لنا من هذه الصخرة، ففرج الله لهم فرجةً. فقال الآخر: اللهم إني كنت

---

(١) رواه البخاري في الأذان (٢/ ١٤٣) وفي الزكاة (٣/ ٢٩٣) وفي الرقاق (١١/ ٣١٢) وفي المحاربين (٢/ ١١٢) ومسلم في الزكاة (٢/ ٧١٥).

(٢) يتضاغون: أي: يبكون ويصيحون من الجوع.

استأجرتُ أجيراً بفَرْقٍ[1] من أُرُزٍّ، فلما قضىٰ عَمله قال: أعطني فأعطيته، فأبىٰ أن يأخذه فزرعته ونميته، حتىٰ اشتريت له بقراً ورِعَاءَها[2]، فجاءني بعد حين فقال: يا هذا اتق الله ولا تظلمني وأعطني حقي، فقلت: اذهب إلىٰ تلك البقر ورعائها فهو لك، فقال: اتق الله ولا تهزأ بي، فقلتك لا استهزئُ بك فخذ ذلك، فأخذها وذهب، فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك، فافرجْ عنا ما بقي من الصخرة، فَفَرَجَ الله عنهم، وخرجوا يمشون»[3].

وذكر المبرِّد عن: عن رجاء بن عمرو النخعي، قال: كان بالكوفة فتىٰ جميل الوجه شديد التعبد والاجتهاد، فنزل في جوار قوم من النخع، فنظر إلىٰ جارية منهن جميلة فهويها وهام بها عقله، ونزل بالجارية ما نزل به فأرسل يخطبها من أبيها، فأخبره أبوها أنها مسمَّاةٌ لابن عم لها[4]، فلما اشتد عليهما ما يقاسيانه من ألم الهوىٰ، أرسلت إليه الجارية: قد بلغني شدةُ محبتك لي وقد اشتد بلائي بك، فإن شئت زرتك، وإن شئت سهَّلت لك أن تأتيني إلىٰ منزلي، فقال للرسول: ولا واحدة من هاتين الخلتين، ﴿**إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ** ﴿١٥﴾﴾[5] أخاف ناراً لا يخبو سعيرها، ولا يخمد لهيبها، فلما أبلغها الرسول قوله قالت: وأراه مع هذا يخاف الله؟ والله ما أحدٌ أحق

---

(١) الفرق: مكيال معروف بالمدينة يسع ثلاثة أصع، أو ستة عشر رطلاً، أو أربعة أرباع.

(٢) رعاء: جمع رعية وهي الكلأ، أو جمع راع.

(٣) رواه البخاري في البيوع (٤/ ٤٠٨) وفي الإجارة (٤/ ٤٤٩) وفي الحرث والمزارعة (٥/ ١٦) وفي الأدب (١٠/ ٤٠٤) ومسلم في الذكر والدعاء (٤/ ٢٠٩٩).

(٤) مسماة له وعليه: مخطوبة له.

(٥) الآية (١٥) سورة الأنعام، والآية (١٥) سورة يونس، والآية (١٣) سورة الزمر.

بهـذا من أحـد، وإن العبـاد فيـه لمشتركـون، ثم انخلعت من الدنيـا وألقت علائقـها(١) خلف ظهـرها وجعلت تتعبد، وهي مع ذلك تذوب وتنْحلُ حباً للفتىٰ وشوقاً إليه، حتىٰ ماتت من ذلك، فكان الفتىٰ يأتي قبرها فيبكي عنده ويدعو لها، فغلبته عينه ذات يوم علىٰ قبرها، فرآها في منامه في أحسن منظر فقال: كيف أنتِ وما لقيت بعدي؟ قالت:

نعمَ المحبـــة يا سُــؤْلي(٢) مــحــبــتكم

حبٌ يقـــود إلى خـــيـــر وإحـــســـان

فقال: علىٰ ذلك إلىٰ مَ صرتِ؟ فقالت:

إلـى نـعـــــيـمٍ وعـــــيـشٍ لا زوال لـه

فـي جـنـةِ الخُـلـد مُـلـك لـيـس بـالـفـــانـي

فـقـال لهـا: اذكـريني هناك فـإني لست أنسـاك، فقـالت: ولا أنا والله أنسـاك، ولـقـد سـألت مـولاي ومـولاك أن يجـمع بيننا، فـأعني علىٰ ذلك بالاجتهاد، فقال لها: متىٰ أراك؟ فقالت: ستأتينا عن قريب فترانا، فلم يعش الفتىٰ بعد الرؤيا إلا سبع ليال حتىٰ مات رحمه الله تعالىٰ.

وقال عمر بن شبة: حدثنا أبو غسان قال: سمعت بعض المدنيين يقول: كان الرجل يحب الفتاة فيطوف بدارها حولاً يفرح أن يرىٰ من يراها، فإن ظَفِر منها بمجلس تشاكيا وتناشدا الأشعار، واليوم يشير إليها وتشير إليه، فيعدها وتعده فإذا التقيا لم يشك حباً ولم ينشد شعراً، وقام إليها كأنه قد أشهد علىٰ نكاحها أباهريرة رضي الله عنه!!

---

(١) جمع علاقة: وهي ما تعلق بها من مال وزوج وولد.

(٢) السؤل: ما سألته. والحاجة.

وقال محمد بن سيرين: كانوا يعشقون في غير ريبة، وكان الرجل يأتي إلىٰ القوم، فيتحدث عندهم لا يستنكر له ذلك. وقال هشام بن حسان: لكن اليوم لا يرضون إلا بالمواقعة[1].

وكان سفيان الثوري كثيراً ما يتمثل بهذين البيتين:

تفنى اللذاذةُ ممن نال صفوتَها
من الحرام ويَبقى الوزرُ والعارُ

تبقى عواقب سوءٍ في مَغَبَّتها[2]
لا خيرَ في لذةٍ من بعدها النارُ

وقال الحسين بن مطير:

ونفسَك أكرِم عن أمور كثيرة
فما لك نفسٌ بعدها تستعيرُها

ولا تقرب المَرعى الحرامَ فإنما
حلاوتُه تَفْنى ويَبقى مَريرُها

وقال الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه: الفُتُوَّة: تركُ ما تهوىٰ لما تخشىٰ.

وقال مخرمة بن عثمان: نُبئت أن فتىٰ من العُباد هَوِي جارية من أهل

---

(١) إذا كان هذا في زمن ابن سيرين وهشام بن حسان، وهما من التابعين، فما هو حال عشاق اليوم؟! المدعين للحب والغزل العفيف؟!! زعموا؟!

(٢) المغبة: عاقبة الشيء.

البصرة، فبعث إليها يخطبها فامتنعت، وقالت: إن أردت غير ذلك فعلت، فأرسل إليها: سبحان الله! أدعوكِ إلىٰ ما لا إثم فيه، وتدعينني إلىٰ ما لا يصلح؟ فقالت: قد أخبرتك بالذي عندي فإن شئت فتقدَّم، وإن شئت فتأخر، فأنشأ يقول:

وأسألها الحلالَ وتَدْعُ[1] قلبي
إلى ما لا أُريد من الحرام

كداعي آل فرعون إليه
وهم يدعونه نحو الأثام

فظلَّ مُنعَّماً في الخلد يسعى
وظلوا في الجحيم وفي السَّقام

فلما علمت أنه قد امتنع من الفاحشة، أرسلت إليه: أنا بين يديك علىٰ الذي تحب، فأرسل إليها: لا حاجة لنا فيمن دعوناه إلىٰ الطاعة، ودعانا إلىٰ المعصية، ثم أنشد:

لا خيرَ فيمن لا يُراقب ربَّه
عند الهوى ويَخافه إيماناً

حَجَبَ التُّقي سُبُل الهوى فأَخو التقي
يخشى إذا وافى المَعاد هوانا

وقد روىٰ عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

---

(١) كذا.. بحذف حرف العلة ولا مسوغ له إلا الضرورة (الفقي).

«إذا صَلَّتِ المرأة خَمْسَها، وصامت شهرَها، وحَفِظتْ فَرْجها، وأَطاعَتْ زوجها دخلت الجنة»(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أيما امرأة اتَّقت ربَّها، وأَحصنت فرجَهَا وأطاعت زوجها، قيل لها يوم القيامة: ادخلي من أي أبوابِ الجنةِ شئت»(٢).

وذكر أبو الفرج وغيره: أن امرأة جميلة كانت بمكة، وكان لها زوجٌ، فنظرت يوماً إلىٰ وجهها في المرآة فقالت لزوجها: أترىٰ أحداً يرىٰ هذا الوجه ولا يفتتن به؟ قال: نعم، قالت: من؟ قال: عبيد بن عمير، قالت: فائذن لي فيه فلأفتننه، قال: قد أذنت لك، قال: فأتته كالمستفتية، فخلا معها في ناحية من المسجد الحرام، فأسفرت عن وجه مثل فلقة القمر، فقال لها: يا أمة استتري، فقالت: إني قد فُتنت بك، قال: إني سائلكِ عن شيء، فإن أنت صدقتني نظرت في أمرك، قالت: لا تسألني عن شيء إلا صدقتك، قال: أخبريني لو أن ملك الموت أتاك ليقبض روحك، أكان يسرك أن أقضيٰ لك

---

(١) صحيح لطرقه، أخرجه أحمد (١/ ١٩١) والطبراني في الأوسط (٥/ ٤٢٣١ ـ مجمع البحرين) من حديث ابن عوف رضي الله عنه، وفيه ابن لهيعة. وله شاهد من حديث أنس رضي الله عنه: عند البزار (٢/ ٤٦٣١ ـ ١٤٧٣ ـ زوائد) وأبو نعيم في الحلية (٦/ ٣٠٨) وفيه: رواد بن الجراح، وفي روايته عن الثوري ضعف، وهذه منها.
وله شاهد ثان: من حديث أبي هريرة رضي الله عنه الآتي. وقال الألباني رحمه الله: حسن أو صحيح. آداب الزفاف (ص٢٨٦).

(٢) صحيح، رواه ابن حبان في صحيح (٤١٦٣) من حديث أبي سلمة عن أبي هريرة رضي الله عنه.
وفي سنده: داهر بن نوح الأهوازي، ذكره ابن حبان في الثقات وقال: ربما أخطأ.
ويشهد للحديث ما سبق.

هذه الحاجة؟ قالت: اللهم لا، قال: صدقتِ قال: فلو دخلتِ قبرك وأُجلست للمساءلة، أكان يسرك أني قضيتها لك؟ قالت: اللهم لا، قال: صدقتِ، قال: فلو أن الناس أُعطوا كتبهم، ولا تدرين أتأخذين كتابك بيمينك أم بشمالك، أكان يسرك أني قضيتها لك؟ قالت: اللهم لا، قال: صدقت، قال: فلو أردت الممر على الصراط، ولا تدرين هل تنجين أو لا تنجين، أكان يسرك أني قضيتها لك؟ قالت: اللهم لا، قال: صدقت، قال: فلو جيء بالميزان وجيء بك فلا تدرين أيخف ميزانك أم يثقل، أكان يسرك أني قضيتها لك؟ قالت: اللهم لا، قال: فلو وقفت بين يدي الله للمساءلة أكان يسرك أني قضيتها لك؟ قالت: اللهم لا، قال: صدقت، قال: اتقي الله، فقد أنعم الله عليك وأحسن إليك، قال: فرجعت إلى زوجها، فقال: ما صنعت؟ قالت: أنت بطَّال ونحن بطَّالون، فأقبلت على الصلاة والصوم والعبادة، فكان زوجها يقول: ما لي ولعبيد بن عمير، أفسد علي امرأتي، كانت في كل ليلة عروساً، فصيَّرها راهبة.

وهذه الطائفة لعفتهم أسباب: أقواها إجلال الجبار، ثم الرغبة في الحور الحسان في دار القرار، فإن من صرف استمتاعه في هذه الدار إلى ما حرم الله عليه، منعه من الاستمتاع بالحور الحسان هناك، قال ﷺ: «مَنْ يلبس الحرير في الدنيا، لم يَلْبسه في الآخرة»(١). و«مَنْ شَرِب الخَمر في الدنيا، لم يشربها في الآخرة»(٢).

---

(١) رواه البخاري في اللباس (١٠/ ٢٨٤) ومسلم في اللباس والزينة (٣/ ١٦٤٢، ١٦٤٥، ١٦٤٦) بألفاظ متقاربة عن عمر بن الخطاب وأنس بن مالك والزبير وأبي أمامة رضي الله عنهم.

(٢) رواه البخاري في الأشربة (١٠/ ٣٠) ومسلم في الأشربة (٣/ ١٥٨٨) عن ابن عمر رضي الله عنهما، ولفظه عند البخاري وإحدى روايات مسلم: «حُرِمها في الآخرة».

فلا يجمع الله للعبد لذة شرب الخمر، ولبس الحرير، والتمتع بما حرم الله عليه من النساء والصبيان، ولذة التمتع بذلك في الآخرة، فليتخيّر العبد لنفسه إحدىٰ اللذتين، وليطب نفساً عن إحداهما بالأخرىٰ، فلن يجعل الله من أذهب طيباته في حياته الدنيا واستمتع بها، كمن صام عنها ليوم فطره من الدنيا إذا لقيٰ الله. ودون ذلك مرتبة أن يتركها خوف النار فقط، فإنَّ ترْكها رغبةً ومحبةً، أفضل من تركها لمجرد خوف العقوبة.

ثم أدنىٰ من ذلك أن يحمله عليها خوف العار والشَّنَار[1]، ومنهم من يحمله علىٰ العفة: الإبقاء علىٰ محبته خشية ذهابها بالوصال، ومنهم من يحمله عليها: عفة محبوبه ونزاهتُه، ومنهم من يحمله عليها: الحياء منه والاحتشام له، وعظمته في صدره، ومنهم من يحمله عليها: الرغبة في جميل الذكر وحسن الأُحدوثة، ومنهم من يحمله عليها: الإبقاء علىٰ جاهه ومروءته، وقدره عند محبوبه وعند الناس، ومنهم من يحمله عليها: كرمُ طبعه وشرف نفسه وعلوُّ همته، ومنهم من يحمله عليها: لذة الظفر بالعفة، فإن للعفة لذة أعظم من لذة قضاء الوطر، لكنها لذة يتقدمها ألم حبس النفس ثم تعقبها اللذة، وأما قضاء الوطر فبالضد من ذلك، ومنهم من يحمله عليها: علمه بما تعقبه اللذة المحرمة من المضار والمفاسد، وجمع الفجور خِلال الشر كلها، كما ستقف عليه في الباب الذي يلي هذا، إن شاء الله تعالىٰ.

(١) الشَّنار: أقبح العيب والعار، والأمر المشهور بالشنعة.

فصل

ولم يزل الناس يفتخرون بالعفَّة قديماً وحديثاً .

قال نفطويه :

كم قد خلوتُ ! بمن أهوى فيمنعني

منه الحياءُ وخوفُ الله والحذر[1]

وكم ظفرتُ بمن أهوى فيقنعني

منه الفكاهة والتجميش والنظرُ

أهوى الحسان وأهوى أن أجالسهم

وليس لي في حرام منهمُ وَطَر

كذلك الحبُّ لا إتيانُ معصيةٍ

لا خيرَ في لذةٍ من بعدها سَقَر

---

(١) وهذا أيضاً لا يجوز ! ! لأن الخلوة بالمرأة الأجنبية محرم ، ولو كان لتعليمها القرآن ، فكيف بالتحدث معها بأمور الغزل؟ !

الباب الرابع والعشرون

في ارتكاب سبيلي الحرام، وما يُفضي إليه من المفاسد والآلام

حقيقٌ بكل عاقل أن لا يسلك سبيلاً حتىٰ يعلمَ سلامتها وآفاتها، وما توصل إليه تلك الطريق من سلامةٍ أو عطب، وهذان السبيلان هلاك الأولين والآخرين بهما، وفيهما من المعاطب والمهالك ما فيهما، ويُفضيان بصاحبهما إلىٰ أقبح الغايات، وشر موارد الهلكات، ولهذا جعل الله سبحانه وتعالىٰ سبيل الزنىٰ شر سبيل، فقال تعالىٰ: ﴿وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً (٣٢)﴾[١]. فإذا كانت هذه سبيل الزنىٰ، فكيف بسبيل اللواط، التي تعدل الفعلة منه في الإثم والعقوبة، أضعافها وأضعاف أضعافها من الزنىٰ؟! كما ستقف عليه إن شاء الله تعالىٰ، فأما سبيل الزنىٰ فأسوأ سبيل، ومقيل[٢] أهلها في الجحيم شر مقيل، ومستقر أرواحهم في البرزخ في تنورٍ من نار يأتيهم لهبها من تحتهم، فإذا أتاهم اللهب ضَجُّوا وارتفعوا، ثم يعودون إلىٰ موضعهم، فهم هكذا إلىٰ يوم القيامة، كما رآهم النبي ﷺ في منامه، ورؤيا الأنبياء وحيٌ لا شك فيها.

فروىٰ البخاري في صحيحه[٣]: من حديث سمرة بن جندب رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ مما يُكثر أن يقول لأصحابه: «هل رأىٰ أحدٌ منكم من رؤيا؟» فيقص عليه ما شاء الله أن يقص، وإنه قال لنا ذات غداةٍ: إنه أتاني

(١) الآية (٣٢) سورة الإسراء.

(٢) المقيل: المثوى، والنوم في الظهيرة.

(٣) في كتاب الرؤيا في صحيحه (١٢/ ٤٣٨). وقد كتبت في شرحه رسالة سميتها: «المواعظ السنية في رؤيا سيد البرية» طبعت سنة ١٤١٤هـ، ثم في ١٤١٨هـ، بجمعية إحياء التراث الإسلامي.

الليلة آتيان، وإنهما ابتعثاني، وإنهما قالا لي: انطلق، وإني انطلقت معهما».

إلىٰ أن قال: «فانطلقنا فأتينا علىٰ مثل التَّنور، فإذا فيه لَغَطٌ وأصواتٌ، قال: فاطلعنا فيه فإذا فيه رجالٌ ونساء عراة، وإذا هم يأتيهم لَهَبٌ من أسفل منهم، فإذا أتاهم ذلك اللهب ضَوْضَوْا قال: قلت لهما: ما هؤلاء؟ قال: قالا لي: انطلق انطلق..».

إلىٰ قوله: «قال: قلت لهما: فإني قد رأيت منذ الليلة عجباً، فما هذا الذي رأيت؟ قال: قالا لي: أما إنا سنخبرك.. وأما الرجال والنساء العراة الذين هم في مثل بناء التنور، فإنهم الزناة والزواني».

وروىٰ أبو مسلم الكجي: عن سليم[1] بن عامر، قال: حدثني أبو أمامة الباهلي قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «بينا أنا نائم إذا أتاني رجلان فأخذا بضبعي[2] فأخرجاني فأتيا بي جبلاً وعراً، وقالا لي: اصعد، فقلت: إني لا أطيقه، فقالا: سنسهّله لك قال: فصعدت حتىٰ إذا كنتُ في سواء الجبل[3] إذا أنا بأصواتٍ مديدة، فقلت: ما هذه الأصوات؟ فقالا: هذا عُواء أهل النار، ثم انطلق بي فإذا أنا بفوجٍ أشدُّ شيء انتفاخاً، وأنتنه ريحاً، وأسوأه منظراً، فقلت: من هؤلاء؟ فقالا: هؤلاء قتلىٰ الكفار، ثم انطلق بي فإذا بفوج أشد شيء انتفاخاً، وأنتنه ريحاً، كأن ريحهم المراحيض، فقلت: من هؤلاء؟ قال: هؤلاء الزانون والزواني»[4].

---

(١) وقع عند ابن خزيمة: سليمان وهو خطأ!

(٢) الضبع: ما بين الإبط إلى نصف العضد، والجمع أضباع.

(٣) سواء الجبل: وسطه.

(٤) حديث صحيح، أخرجه ابن خزيمة في صحيحه (٣/ ٢٣٧) وعنه ابن حبان (٧٤٩١). وأخرجه الحاكم (١/ ٤٣٠) وعنه البيهقي (٤/ ٢١٦) مختصراً وغيرهم.

ويذكر عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: المقيم على الزنى كعابد وثن، ورفعه بعضهم، وهذا أولى أن يشبه بعابد الوثن من مدمن الخمر، وفي المسند وغيره: مرفوعاً: «مُدْمنُ الخمرِ كعابدِ وثن»[1].

فإن الزنى أعظم من شرب الخمر. قال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى: ليس بعد قتل النفس، أعظم من الزنى.

وفي الصحيحين: من حديث أبي وائل عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، أيُّ الذنب أعظم عند الله؟ قال: «أن تجعل لله نداً وهو خَلَقك»، قال: قلت: ثم أي؟ قال: «أنْ تَقتلَ ولدك مخافةَ أن يَطعم معك»، قال: قلت: ثم أي؟ قال: «أن تَزني بحليلة جارك»، فأنزل الله تصديق ذلك في كتابه: ﴿وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨)﴾[2].

وفي الصحيحين[3]: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثةٌ لا يكلِّمهم اللهُ يومَ القيامة، ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم، ولهم عذابٌ أليم: شيخٌ زانٍ، وملكٌ كذَّاب، وعائلٌ مستكبر».

---

(١) حديث حسن، أخرجه أحمد (١/ ٢٧٢) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما. وفيه مجهول. ورواه ابن حبان (٥٣٤٧) من طريق آخر عن ابن عباس.
وله شاهد من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: أخرجه ابن ماجة (٣٣٧٥) والبخاري في التاريخ (١/ ١٢٩). وذكره العلامة الألباني في الصحيحة (٦٧٧).

(٢) رواه البخاري في التفسير (٨/ ١٦٣، ٤٩٢) وفي الأدب (١٠/ ٤٣٣) وفي الحدود (١٢/ ١١٤) وفي الديات (١٢/ ١٨٧) وفي التوحيد (١٣/ ٤٩١، ٥٠٣) ومسلم في الإيمان (١/ ٩٠، ٩١) من طرق عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

(٣) كذا قال! والحديث رواه مسلم وحده، في الإيمان (١/ ١٠٢ـ١٠٣) ورواه أحمد (٢/ ٤٨٠).

وعن أبي ذر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ اللهَ يبغض ثلاثةً: الشيخَ الزاني، والمُقِلُّ المختال، والبَخيل المنَّان»(١).

وفي النسائي وغيره: من حديث بريدة النبي ﷺ قال: «حُرْمةُ نساء المجاهدين على القاعدين كأمهاتِهم، وما من رجل من القاعدين يخلف رجلاً من المجاهدين في أهله إلا نصب له يوم القيامة، فيقال: يا فلان، هذا فلانٌ، فخُذْ من حسناته ما شئتَ». ثم التفت النبي ﷺ إلى أصحابه فقال: «ما ترون يَدَعُ له من حسناته شيئاً»؟(٢).

وفي لفظ: «وإذا خَلَفه في أهله فخانه، قيل يوم القيامة: هذا خانك في أهلك، فَخُذْ من حسناته ما شئتَ، فما ظنكُم»؟(٣).

ويكفي في قُبح الزنى، أن الله سبحانه وتعالى مع كمال رحمته، شَرَع فيه أفحش القتلات وأصعبها وأفضحها، وأمر أن يشهدَ عبادُه المؤمنون تعذيب فاعله، ومن قبحه أن الله سبحانه فطر عليه بعض الحيوان البهيم الذي لا عقل له، كما ذكر البخاري في صحيحه: عن عمرو بن ميمون الأودي قال: رأيت في الجاهلية قرداً زنى بقردة، فاجتمع عليهما القرود فرجموهما حتى ماتا، وكنتُ فيمن رجمهما.

---

(١) رواه أحمد (٥/ ١٥٣) بإسناد صحيح، وأوله: «إن الله عز وجل يحب ثلاثة ويبغض ثلاثة، يبغض الشيخ الزاني...».
وروى الحاكم (٢/ ٨٩) نحوه، وقال: على شرط مسلم، ووافقه الذهبي. وأورده المنذري في الترغيب (١٧٩١) وحكم له الألباني بالصحة.
(٢) رواه النسائي في الجهاد (٦/ ٥٠) ومسلم في الإمارة (٣/ ١٥٠٨).
(٣) رواه النسائي (٦/ ٥٠).

فصل

[إضرار الزنا على العباد في الدنيا والآخرة]

والزنىٰ يجمع خِلال الشر كلها، من قلة الدِّين، وذهاب الورع، وفساد المروءة، وقلة الغَيرة، فلا تجد زانياً معه ورع، ولا وفاء بعهد، ولا صدق في حديث، ولا محافظة علىٰ صديق، ولا غيرة تامة علىٰ أهله. فالغدر والكذب والخيانة وقلة الحياء، وعدمُ المراقبة وعدمُ الأنَفَة للحرم، وذهاب الغيرة من القلب، من شعبه وموجباته.

ومن موجباته: غضب الرب بإفساد حرمه وعياله، ولو تعرَّض رجلٌ إلىٰ ملك من الملوك بذلك لقابله أسوأ مقابلة. ومنها: سوادُ الوجه وظلمته، وما يعلوه من الكآبة والمقت الذي يبدو عليه للناظرين، ومنها: ظلمة القلب وطمس نوره[1] وهو الذي أوجب طمس نور الوجه وغشيان الظلمة له.

ومنها: الفقر اللازم.

ومنها: أنه يذهب حُرْمة فاعله، ويُسْقطه من عين ربه، ومن أعين عباده. ومنها: أنه يسلبه أحسن الأسماء، وهو اسمُ العفةِ والبر والعدالة، ويعطيه أضدادها كاسم الفاجر والفاسق والزاني والخائن.

ومنها: أنه يسلبُه اسم المؤمن، كما في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن»[2].

---

(١) طمس نوره: ذهابه، وطمس الشيء طمساً وطموساً: درس وانمحى.

(٢) رواه البخاري في المظالم (٥/ ١١٩) وفي الأشربة (١٠/ ٣٠) وفي الحدود (١٢/ ٥٨) وفي المحاربين (١٢/ ١١٤) ومسلم في الإيمان (١/ ٧٦، ٧٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

فسلبه اسم الإيمان المطلق وإنْ لم يسلب عنه مطلق الإيمان. وسئل جعفر ابن محمد عن هذا الحديث فخط دائرة في الأرض وقال: هذه دائرة الإيمان، ثم خط دائرة أخرىٰ خارجة عنها وقال: هذه دائرة الإسلام، فإذا زنىٰ العبد خرج من هذه، ولم يخرج من هذه.

ولا يلزم من ثبوت جزء ما من الإيمان له أن يسمىٰ مؤمناً، كما أن الرجل يكون معه جزء من العلم والفقه ولا يسمىٰ به عالماً فقيهاً، ومعه جزء من الشجاعة والجود ولا يسمىٰ بذلك شجاعاً ولا جواداً، وكذلك يكون معه شيء من التقوىٰ ولا يسمىٰ مُتَّقياً، ونظائره. فالصواب إجراء الحديث علىٰ ظاهره ولا يتأول بما يخالف ظاهره، والله أعلم.

ومنها: أن يعرض نفسه لسكنىٰ التَّنُّور الذي رأىٰ النبي ﷺ فيه الزناة والزواني. ومنها: أنه يفارقه الطِّيب الذي وصف الله به أهل العفاف، ويستبدل به الخبيث الذي وصف الله به الزناة، كما قال الله تعالىٰ: ﴿**الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ**﴾[1].

وقد حرم الله الجنة علىٰ كل خبيثٍ، بل جعلها مأوىٰ الطيبين، ولا يدخلها إلا طيبٌ. قال الله تعالىٰ: ﴿**الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ** (٣٢)﴾[2]. وقال تعالىٰ: ﴿**وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ** (٧٣)﴾[3]. فإنما استحقوا سلام الملائكة، ودخول الجنة بطيبهم، والزناة من أخبث الخلق، وقد جعل الله سبحانه جهنم

(١) الآية (٢٦) سورة النور.

(٢) الآية (٣٢) سورة النحل.

(٣) الآية (٧٣) سورة الزمر.

دار الخبيثِ وأهله، فإذا كان يوم القيامة ميَّز الخبيثَ من الطيب، وجعل الخبيث بعضه علىٰ بعض، ثم ألقاه وألقىٰ أهله في جهنم، فلا يدخل النار طيبٌ، ولا يدخل الجنة خبيث.

ومنها: الوحشة التي يضعها الله سبحانه وتعالىٰ في قلب الزاني، وهي نظير الوحشة التي تعلو وجهه، فالعفيف علىٰ وجهه حلاوة وفي قلبه أنس، ومن جالسه استأنس به، والزاني تعلو وجهه الوحشة، ومن جالسه استوحش به.

ومنها: قلة الهيبة التي تنزع من صدور أهله وأصحابه وغيرهم له، وهو أحقر شيء في نفوسهم وعيونهم، بخلاف العفيف فإنه يرزق المهابة والحلاوة. ومنها: أن الناس ينظرونه بعين الخيانة، ولا يأمنه أحدٌ علىٰ حرمته ولا علىٰ ولده.

ومنها: الرائحة التي تفوح عليه، يَشمُّها كل ذي قلبٍ سليم، تفوح من فيه وجسده، ولولا اشتراك الناس في هذه الرائحة لفاحت من صاحبها ونادت عليه.

ومنها: ضيقةُ الصدر وحَرَجُه، فإن الزناة يعاملون بضد قصودهم، فإن من طلب لذة العيش وطيبه بما حرمه الله عليه، عاقبه بنقيض قصده، فإن ما عند الله لا يُنال إلا بطاعته، ولم يجعل الله معصيته سبباً إلىٰ خير قط.

ولو علم الفاجر ما في العفاف من اللذة والسرور، وانشراح الصدر، وطيب العيش، لرأىٰ أن الذي فاته من اللذة أضعافُ أضعافِ ما حصل له، دعْ رِبْحَ العاقبة والفوز بثواب الله وكرامته.

ومنها: أنهُ يعرِّض نفسه لفوات الاستمتاع بالحور العين في المساكن الطيبة في جنات عدن، وقد تقدَّم أن الله سبحانه وتعالىٰ إذا كان قد عاقب لابس الحرير في الدنيا بحرمانه لُبْسَه يوم القيامة، وشاربَ الخمر في الدنيا بحرمانه إياها يوم القيامة، فكذلك من تمتَّع بالصور المحرمة في الدنيا، بل كل ما ناله العبد في الدنيا، فإن توسَّع في حلاله ضيَّق من حظه يوم القيامة بقدر ما توسع فيه، وإن ناله من حرام فاته نظيره يوم القيامة.

ومنها: أن الزنىٰ يُجَرِّئه علىٰ قطيعة الرحم وعقوق الوالدين، وكَسْبِ الحرام، وظُلم الخلق، وإضاعة أهله وعياله، وربما قاده قسراً إلىٰ سفك الدم الحرام، وربما استعان عليه بالسِّحر وبالشرك وهو يدري أو لا يدري، فهذه المعصية لا تتم إلا بأنواعٍ من المعاصي قبلها ومعها، ويتولد عنها أنواعٌ أُخَرُ من المعاصي بعدها، فهي محفوفةٌ بجندٍ من المعاصي قبلها وجند بعدها، وهي أجلب شيء لشر الدنيا والآخرة، وأمنع شيء لخير الدنيا والآخرة، وإذا علقت بالعبد فوقع في حبائلها وأشراكها، عَزَّ علىٰ الناصحين استنقاذه، وأعيىٰ الأطباء دواؤه، فأسيرها لا يفدىٰ، وقتيلها لا يُودىٰ[1]، وقد وكَّلها الله سبحانه بزوال النعم، فإذا ابتلي بها عبد فليودع نعم الله، فإنها ضيف سريع الانتقال، وشيكُ الزوال. قال الله تعالىٰ: ﴿**ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** (٥٣)﴾[2] وقال تعالىٰ: ﴿**وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ** (١١)﴾[3].

فهذا بعض ما في هذه السبيل من الضرر.

---

(١) لا يودي: ليس له دية. وودى القاتل القتيل ودياً ودية: أعطى وليه ديته.

(٢) الآية (٥٣) سورة الأنفال.

(٣) الآية (١١) سورة الرعد.

فصل

(إضرار اللواط، وأنه أخبث من الزنا)

وأما سبيلُ الأمة اللوطية، فتلك سبيل الهالكين، المفضية بسالكها إلىٰ منازل المعذبين، الذين جَمَعَ الله عليهم من أنواع العقوبات، مالم يجمعه علىٰ أمة من الأمم، لا من تأخر عنهم ولا من تقدم، وجعل ديارهم وآثارهم عبرةً للمعتبرين، وموعظة للمتقين.

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه وجماعة من الصحابة والتابعين: يُرْجم بالحجارة حتىٰ يموت، أَحصن أو لم يُحصن. ووافقه علىٰ ذلك الإمام أحمد وإسحاق ومالك، وقال الزهري: يرجم أحصن أو لم يحصن، سنةٌ ماضية. وقال جابر بن زيد في رجل غشىٰ رجلاً في دبره قال: الدبر أعظم حرمة من الفرج، يرجم أحصن أو لم يحصن[١].

وقال الشعبي: يقتل أحصن أو لم يُحصن.

وسُئل ابن عباس عن اللوطي: ما حدُّه؟ قال: ينظر أعلىٰ بناء في المدينة فيرمىٰ منه منكساً، ثم يتبع بالحجارة[٢].

ورجم عليٌ لوطياً وأفتىٰ بتحريقه. وكأنه رأىٰ جواز هذا وهذا.

وقال إبراهيم النخعي: لو كان أحد ينبغي له أن يرجم مرتين، لكان ينبغي للوطي أن يرجم مرتين. وذهبت طائفة: إلىٰ أنه يرجم إن أحصن، ويجلد إن

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في الحدود (٩/ ٥٣٢) مختصراً، وسنده صحيح.

(٢) أثر صحيح، رواه ابن أبي شيبة (٩/ ٥٢٩) والبيهقي في السنن (٨/ ٢٣٢).

لم يحصن. وهذا قول الشافعي وأحمد في رواية عنه، وسعيد بن المسيب في رواية عنه، وعطاء بن أبي رباح.(١)

قال عطاء: شهدت ابن الزبير أتىٰ بسبعة أخذوا في اللواط: أربعة منهم قد أحصنوا، وثلاثة لم يُحصنوا، فأمر بالأربعة فأخرجوا من المسجد الحرام فرجموا بالحجارة، وأمر بالثلاثة فضربوا الحد وفي المسجد ابن عمر وابن عباس.

فالصحابة اتفقوا علىٰ قتل اللوطي، وإنما اختلفوا في كيفية قتله، فظن بعض الناس أنهم متنازعون في قتله، ولا نزاع بينهم فيه، إلا في إلحاقه بالزاني، أو قتله مطلقاً.

وقد اختلف الناس في عقوبته علىٰ ثلاثة أقوال: أحدها: أنها أعظم من عقوبة الزنىٰ، كما أن عقوبته في الآخرة أشد. الثاني: أنها مثلها، الثالث: أنها دونها، وذهب بعض الشافعية إلىٰ أن عقوبة الفاعل كعقوبة الزاني، وعقوبة المفعول به الجلد مطلقاً بكراً كان أو ثيباً، قال: لأنه لا يلتذ بالفعل به، بخلاف الفاعل.

وذهب بعض الفقهاء إلىٰ أنه لا حدَّ علىٰ واحد منهما! قال: لأن الوازع عن ذلك ما في الطباع من النَّفْرة عنه واستقباحه، وما كان ذلك لم يحتج إلىٰ أن يَزْجُر الشارعُ عنه بالحد كأكل العَذِرَة(٢) والميتة والدم وشرب البول، ثم قال هؤلاء: إذا أكثر منه اللوطي، فللإمام قتله تعزيراً(٣)، صرح بذلك أصحاب أبي حنيفة.

---

(١) انظر سنن الترمذي في الحدود (٤/ ٥٨) والمغني (١٢/ ٣٤٨ ـ ٣٥٠) لابن قدامة المقدسي ويأتي أيضاً كلام المؤلف فيه.

(٢) العذرة: الغائط.

(٣) تعزيراً: ردعاً، والتعزير شرعاً: تأديب دون الحد.

والصحيح أن عقوبته أغلظ من عقوبة الزاني، لإجماع الصحابة على ذلك، ولغِلَظ حُرمته وانتشار فساده، ولأن الله سبحانه وتعالى لم يعاقب أُمَّةً ما عاقب اللوطية.

قال ابن أبي نجيح في تفسيره: عن عمرو بن دينار في قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ (٢٨)﴾[1] قال: مانزا[2] ذكر على ذكر حتى كان قوم لوط.

وذكر ابن أبي الدنيا: بإسناده عن كعب قال: كان إبراهيم يُشْرِف على سدوم[3] فيقول: ويل لكِ سدوم يوماً مالك، فجاءت إبراهيمَ الرسلُ، وكلَّمهم إبراهيم في أمر قوم لوط، قالوا ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾ قال: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾[4] فذهب بهم إلى منزله، فذهبت امرأته فجاءه قومه يُهْرعون إليه، فقال: ﴿يَا قَوْمِ هَؤُلاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾[5] أزوجكم بهن ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ (٧٨)﴾[6]؟ وجعل لوطٌ الأضياف في بيته، وقعد على باب البيت، وقال: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ (٨٠)﴾[7] قال: أي عشيرة تمنعني، قال: ولم يُبعث نبيٌّ بعد لوط إلا في عزٍّ من قومه، فلما رأت الرسل ما قد لقي لوط في سببهم ﴿قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ (٨١)﴾[8] فخرج عليهم جبريل عليه السلام فضرب وجوههم بجناحه ضربةً طَمَست

---

(١) الآية (٢٨) سورة العنكبوت .

(٢) نزا الفحل : وثب (القاموس) .

(٣) سدوم : قرية قوم لوط .

(٤ و ٥و٦و٧ و٨) الآيات و(٧٧ و٧٨ و٨٠ و ٨١) سورة هود .

أعينهم، قال: والطمسُ: أن تذهبَ حتىٰ تستوي، واحتمل مدائنهم حتىٰ سمع أهل سماء الدنيا نبيحَ كلابهم وأصواتَ دُيوكهم، ثم قَلَبها، وأمطر الله عليهم حجارة من سَجِّيل[1]، قال: علىٰ أهل بواديهم وعلىٰ رُعاتهم وعلىٰ مسافريهم، فلم ينفلت منهم إنسان.

وقال مجاهد: نزل جبريل عليه السلام فأدخل جناحه تحت مدائن قوم لوط فرفعها، حتىٰ سمع أهل السماء نبيح الكلاب، وأصوات الدجاج والديكة، ثم قلبها فجعل أعلاها أسفلها، ثم أتبعوا بالحجارة.

فأهلك الله سبحانه: الفاعل، والمفعول به، والساكت الراضيَ، والدال المحصن منهم وغير المحصن، العاشق والمعشوق، وأخذهم وهم في سكرةِ عشقهم يعمهون.

وروىٰ أبو مسلم الليثي في مسنده: عن جابر بن عبدالله رضي الله عنه يقول: قال رسول الله ﷺ: «إن أخوفَ ما أخافُ علىٰ أمتي من بعدي عَمَلُ قومِ لوط»[2].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «لَعَنَ اللهُ من وَقَع علىٰ بهيمةٍ، ولعن الله من عَمِلَ عملَ قومِ لوط» رواه الإمام أحمد[3].

وفي المسند والسنن: من حديث عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما

---

(١) سجيل: طين مطبوخ.

(٢) حسن، ورواه أحمد (٣/ ٣٨٢) والترمذي (١٤٥٧) وابن ماجه (٢٥٦٣) وغيرهم من حديث عبدالله بن محمد بن عقيل أنه سمع جابراً. وعبدالله هذا حسن الحديث.

(٣) حسن، رواه أحمد (١/ ٣٠٩، ٣١٧) والترمذي (١٤٥٦) وأوله: «لعن الله من ذبح لغير الله...» وهو من حديث عمرو بن أبي عمرو عن عكرمة عن ابن عباس به.
وعمرو هو مولى المطلب حسن الحديث، كما قال الذهبي وغيره.

قال: قال رسول الله ﷺ: «اقتلوا الفاعل والمفعول به» وفي لفظ: «مَنْ وَجَدتُموه يعملُ عملَ قومِ لوط، فاقتلوا الفاعل المفعول به» وإسناده على شرط البخاري[1].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً (مثله)[2].

وعن عبيد الله بن معمر قال: يقتل اللوطي[3].

وقال سعيد بن المسيب: عندنا على اللوطي الرجم، أَحصن أو لم يحصن، سنةٌ ماضية. وهذا يدل على أن ذلك سنة مضى عليها العمل.

وقال الشعبي: يقتل أحصن أو لم يحصن[4]. وقال الزهري وربيعة وابن هرمز ومالك بن أنس: عليه الرجم أحصن أو لم يحصن.

وقال بعض العلماء: وإنما قال سعيد بن المسيب: إن ذلك سنة ماضية، لقول النبي ﷺ: «اقتلوا الفاعل والمفعول به»، ولم يقل محصناً أو غير مُحْصن.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: يرجم اللوطي بكراً كان أو ثيباً.

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: من عمل عمل قوم لوط فاقتلوه. ولمُ يفرِّق أحدٌ منهم بين المحصن وغيره، وصرَّح بعضهم بعموم الحكم للمحصن وغير المحصن، فلذلك قال ابن المسيب: إن هذا سنة ماضية.

---

(١) صحيح، أخرجه أحمد (١/ ٣٠٠) وأبو داود (٤٤٦٢) والترمذي (١٤٥٦) وابن ماجة (٢٥٦١) وغيرهم من حديث عمرو بن عمرو، وإسناده حسن، لكن له شواهد يصح لها، منها الحديث الآتي بعده، وانظر الإرواء (٢٣٥٠).

(٢) رواه الترمذي (١٤٥٦) وابن حزم في المحلى (١١/ ٣٨٣).

(٣) رواه ابن أبي شيبة (٩/ ٥٣٢) وهو صحيح.

(٤) رواه ابن أبي شيبة (٩/ ٥٣٠) وسنده صحيح.

وفي مسائل إسحاق بن منصور الكوسج: قلت لأحمد: يرجم اللوطي أحصن أو لم يحصن؟ فقال: يرجم أحصن أو لم يحصن. قال إسحاق بن راهويه: هو كما قال.

والسنة في الذي يعمل عمل قوم لوط: أن يرجم محصناً كان أو غير محصن، لأن النبي ﷺ قال: «من عمل عمل قوم لوط فاقتلوه» رواه ابن عباس عن النبي ﷺ كذلك، ثم أفتى ابن عباس بعد النبي ﷺ فيمن يعمل عمل قوم لوط أنه يرجم وإن كان بكراً، فحكم في ذلك بما رواه عن النبي ﷺ.

وكذلكُ روي عن علي بن أبي طالب مثل هذا القول، إن اللوطي يرجم، ولم يذكر محصناً كان أو غير محصن، وكذلك فعل الله سبحانه بقوم لوط، وكذا يروى عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه حرقهم بالنار. هذا كلام إسحاق رحمه الله.

وقال مجاهد: لو أن الذي يعمل ذلك العمل -يعني عمل قوم لوط- اغتسل بكل قطرةٍ في السماء، وكل قطرة في الأرض لم يزل نجساً، وقد ذكر الله سبحانه عقوبة اللوطية وما حلَّ بهم من البلاء، في عشر سور من القرآن، وهي: سورة الأعراف، وهود، والحجر، والأنبياء، والفرقان، والشعراء، والنمل، والعنكبوت، والصافات، واقتربت الساعة، وجمع على القوم بين عمى الأبصار، وخسف الديار، والقذف بالأحجار، ودخول النار. وقال محذراً لمن عمل عملهم ما حَلَّ بهم من العذاب الشديد: ﴿**وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ** (٨٩)﴾[١].

---

(١) الآية (٨٩) سورة هود.

وقال بعض العلماء: إذا علا الذكرُ الذكر هربت الملائكة، وعجَّت[1] الأرض إلىٰ ربها، ونزل سَخَطُ الجبار جلَّ جلاله عليهم، وغشيتهم اللعنة، وحفت بهم الشياطين، واستأذنت الأرض ربها أن تخسف بهم، وثَقُل العرش علىٰ حملته، وكبَّرت الملائكة، واستعرت[2] الجحيم، فإذا جاءته رسل الله لقبض روحه نقلوها إلىٰ ديار إخوانهم، وموضع عذابهم، فكانت روحه بين أرواحهم. وذلك أضيُق مكاناً وأعظمُ عذاباً من تنور الزناة. فلا كانت لذة توجب هذا العذاب الأليم، وتسوق صاحبها إلىٰ مرافقة أصحاب الجحيم. تذهب اللذات، وتعقب الحسرات، وتفنىٰ الشهوة، وتبقىٰ الشقوة.

وكان الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالىٰ ينشد:

تَفْنى اللذاذةُ ممن نال صفوتَها ... من الحرام ويَبْقى الخزيُ والعارُ

تَبْقى عواقبُ سوء في مَغَبَّتها[3] ... لا خيرَ في لذةٍ من بعدها النار

فصل

وأما إن كانت الفاحشةُ مع ذي رَحِم محرَّم، فذلك الهُلْكُ كل الهُلك، ويجب قتل الفاعل بكل حال عند الإمام أحمد وغيره.

(1) عجت: صاحت ورفعت صوتها.

(2) استعرت النار: توقدت. وفي بعض ما ذكر هاهنا نظر! إذ يحتاج إلى نقل صحيح عن المعصوم ﷺ، والله أعلم.

(3) المغبة: العاقبة.

واحتج أحمد بحديث عدي بن ثابت: عن البراء بن عازب قال: لقيت خالي ومعه الراية فقلت: أين تريد؟ قال: بعثني رسول الله ﷺ إلىٰ رجل تزوج امرأة أبيه، أَضربُ عنقه، وآخذُ ماله. رواه الإمام أحمد واحتج به[1].

وفي مسائل صالح بن أحمد قال: سألت أبي عن الرجل الذي تزوج ذاتَ محرمٍ منه، فقال: إن كان عمداً يقتل ويُؤخذ ماله، وإن كان لا يعلمُ يفرَّق بينهما، وأستحب أن يكون لها ما أَخذتْ منه، ولا يَرجع عليها بشيء.

وفي صحيفة عمرو بن شعيب، عن أبيه عن جده: أن النبي ﷺ قال: «لا يَدخل الجنة مَن أَتَىٰ ذاتَ محرم»[2].

---

(١) صحيح، أخرجه أحمد (٤/ ٢٩٢). وأخرجه أبو داود (٤٤٥٧) والترمذي (١٣٦٢) وابن ماجة (٢٦٥٧) وغيرهم، وقال الترمذي: حسن غريب.
قلت: وفي سنده: أشعث بن سوار وهو ضعيف، لكنه قد توبع عند الإمام أحمد (٤/ ٢٩٢) وغيره وله طريق آخر. وانظر الإرواء (٨/ ١٨ ـ ٢٢).

(٢) حسن، رواه الطبراني في الأوسط (٣٩٣٦).
وقال الهيثمي في المجمع (٦/ ٢٦٩): رواه الطبراني في الأوسط عن شيخه علي بن سعيد، قال الدار قطني: ليس بذاك، وقال الذهبي كان من الحفاظ الرحالين، وعبدالعزيز بن عيسى لم أعرفه، وبقية رجاله ثقات انتهى.
لكن له شاهد يتقوى به: فقد رواه الطبراني في الكبير (٣١ . ١١) وأبو نعيم في الحلية (٤/ ٧٢) عن وهب بن منبه عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً به.
وفيه: هشام بن سليمان المخزومي، من رجال مسلم، وقال الذهبي في الكاشف: صدوق، وقال الحافظ: مقبول!
فالحديث بهذين الطريقين لا ينزل عن رتبة الحسن.

الباب الخامس والعشرون
في رحمة المحبين والشَّفاعة لهم إلى أحبابهم
في الوِصَال الذي يُبيحه الدِّين

قال الله تعالىٰ: ﴿مَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُ كِفْلٌ مِّنْهَا﴾(١). وكلُّ مَن أعان غيره علىٰ أمرٍ بقوله أو فعله فقد صار شفيعاً له، والشفاعة للمشفوع له هذا أصلُها، فإن الشافع يشفع صاحبَ الحاجة فيصير له شَفْعاً في قضائها، لعجزه عن الاستقلال بها، فدخل في حكم هذه الآية كل متعاونين علىٰ خيرٍ أو شر، بقول أو عمل. ونظيرها قوله تعالىٰ: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾(٢).

وفي الصحيح: عنه ﷺ أنه كان إذا جاءه طالب حاجة يقول: «اشفَعُوا تُؤْجروا، ويَقضي اللهُ علىٰ لسان رسوله ما أحَبَّ»(٣).

وفي صحيح البخاري: أنَّ برَيرة لما عَتَقت اختارتْ نفسَها، فكان زوجُها يمشي خلفها ودموعه تسيل علىٰ لحيته، فقال لها النبي ﷺ: «لو راجعتيه فإنه أبو ولدك» فقالت: أتأمرني؟ قال: «لا إنما أنا شافع» قالت: فلا حاجة لي فيه(٤).

---

(١) الآية (٨٥) سورة النساء.

(٢) الآية (٢) سورة المائدة.

(٣) رواه البخاري في الزكاة (٣/ ٢٩٩) وفي الأدب (١٠/ ٤٥٠، ٤٥١) وفي التوحيد (١٣/ ٤٤٨) ومسلم في البر والصلة والآداب (٤/ ٢٠٢٦) من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

(٤) تقدم تخريجه.

فهذه شفاعة من سيِّدِ الشفعاء لمحبٍ إلىٰ محبوبه، وهي من أفضل الشفاعات وأعظمها أجراً عند الله، فإنها تتضمن اجتماع محبوبين علىٰ ما يحبه الله ورسوله، ولهذا كان أحب ما لإبليس وجنوده: التفريق بين هذين المحبوبين.

وتأمل قوله تعالىٰ في الشفاعة الحسنة ﴿يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ﴾ وفي السيئة ﴿يَكُن لَّهُ كِفْلٌ مِّنْهَا﴾. فإن لفظ الكفل يشعر بالحمل والثقل، ولفظ النصيب يشعر بالحظ الذي ينصب طالبه في تحصيله، وإنْ كان كل منهما يستعمل في الأمرين عند الانفراد، ولكن لما قرن بينهما، حسن اختصاص حظ الخير بالنصيب، وحظ الشر بالكفل.

وفي صحيفة عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده: أن رجلاً علىٰ عهد رسول الله ﷺ زوج ابنةً له، وكان خطبها قبل ذلك عمٌّ بنتها، فبلغ النبي ﷺ أنها كارهةٌ هذا الذي زوجها أبوها، وأنه كان يعجبها أن يتزوجها عمٌّ بنتها، فأهدر النبي ﷺ نكاح أبيها، وزوجها عم بنتها[1].

وقد تقدم حديث عمرو بن دينار، عن طاوس، عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رجلاً قال: يا رسول الله، في حجري يتيمة قد خطبها رجل موسر

(١) أخرجه بهذا اللفظ تقريباً عبدالرزاق في المصنف (٦/ ١٤٦ ـ ١٤٧) وبنحوه النسائي في الكبرى (٥٣٧٩) عن أبي سلمة بن عبدالرحمن مرسلاً. ولم أجده من حديث عمرو بن شعيب.
والحديث أصله في البخاري في النكاح (٩/ ١٩٤) وفي الإكراه (١٢/ ٣١٨) وفي الحيل (١٢/ ٣٣٩ ـ ٣٤٠) وأبي داود (٢١٠١) والنسائي (٣٠٦٦) وابن ماجة (١٨٧٣) وغيرهم من حديث خنساء بنت خذام رضي الله عنها..

ورجل مُعْدِمٍ، فنحن نحب الموسر وهي تحب المعدم. فقال رسول الله ﷺ: «ليس للمُتَحابَّينِ مثْلُ النكاح»(١).

والمقصود أن الشفاعة للعشَّاق، فيما يجوز من الوصال والتلاق، سنةٌ ماضية، وسعي مشكور.

وقد جاء عن غير واحد من الخلفاء الراشدين ومن بعدهم، أنهم شفعوا هذه الشفاعة.

ويذكر عن عثمان بن عفان رضي الله عنه أنه جاءته جارية تستعدي على رجلٍ من الأنصار فقال لها عثمان: ما قصتك؟ فقالت: يا أمير المؤمنين كَلِفْتُ بابن أخيه، فما أنفكُّ أُراعيه، فقال له عثمان: إما أن تهَبَها لابن أخيك أو أعطيك ثمنها من مالي، فقال: أشهدك يا أمير المؤمنين أنها له.

وذكر التميمي في كتابه المسمىٰ بـ «امتزاج النفوس»: أن معاوية بن أبي سفيان اشترىٰ جارية من البحرين فأعجب بها إعجاباً شديداً، فسمعها يوماً تنشد أبياتاً منها:

وفارقتُه كالغصنَ يهتزُّ في الثَّرى

طَرِيراً وسِيماً بعد ما طرَّ شاربُه(٢)

فسألها فقالت: هو ابن عمي، فردها إليه وفي قلبه منها.

وقال سالم بن عبدالله: كانت عاتكة ابنة زيد تحت عبدالله بن أبي بكر

---

(١) تقدم تخريجه (ص ٨١).

(٢) الطرير: ذو المنظر والهيئة الحسنة. وطرَّ شاربه: نبت.

الصديق رضي الله عنه، وكانت قد غلبته على رأيه، وشغلته عن سُوقه، فأمره أبو بكر بطلاقها واحدة ففعل، فوجد عليها فقعد لأبيه على طريقه وهو يريد الصلاة، فلما بصر بأبي بكر بكى، وأنشأ يقول:

ولم أرَ مثلي طلَّقَ اليومَ مثلها
ولا مثلَهَا في غير جُرْمٍ يُطلَّق

لها خُلُقٌ جَزْلٌ وحلمٌ ومَنْصبٌ
وخَلْقٌ سويٌّ في الحياة[1] ومَصْدَقُ

فرقَّ له أبو بكر رضي الله عنه وأمره، بمراجعتها.

---

(١) رواية الأغاني والإصابة: «في الحياء». وجزل: كريم. ومصدق: صادق الخلال.

الباب السادس والعشرون

في تركِ المحبِّين أدنى المحبوبين رغبةً في أعلاهما

هذا بابٌ لا يدخل فيه إلا النفوسَ الفاضلة، الشريفة الأبية، التي لا تقنع بالدُّون، ولا تبيع الأعلى بالأدنى بيعَ العاجز المغبون، ولا يملكها لطخ جمال مُغَشٍّ[1]، على أنواع من القبائح، كما قال بعض الأعراب وقد نظر إلى امرأة مبرقعة:

إذا بــــارك الــــلـــه فــــي مَــسْلـــبـــسٍ

فــــــلا بـارك اللهُ فـي الـبُـــــــــرْقُـعِ

يُريك غـــيـــونَ المهـــا مُـــسْـبَـــلاً

ويَـــكـشِـفُ عـن مـنـظـرٍ فـي أشـنـع

وقال الآخر:

لا يغـــرَّنـكَ مـــا تـرى من نقـــابٍ

إن تحـت الـنِّـقــــــــاب داءً دويـاً

فالنفس الأبية لا ترضى بالدون. وقد عاب الله سبحانه أقواماً استبدلوا طعاماً بطعام أدنى منه، فنعى ذلك عليهم وقال: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾[2]، وذلك دليلٌ على وَضَاعة النفس، وقلة قيمتها.

---

(١) مغش: يخفى ما فيه من عيوب.

(٢) الآية (٦١) سورة البقرة.

وقال أبو أسماء: دخل رجل غَيْضةً[١] فقال: لو خلوت هاهنا بمعصية من كان يراني؟ فسمع صوتاً ملأ ما بين لابَتي[٢] الغيضة ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤)﴾[٣].

وذكر إبراهيم بن الجنيد: أن رجلاً راود امرأة عن نفسها فقالت له: أنت قد سمعت القرآن والحديث فأنت أعلم، قال: فأغلقي الأبواب، فأغلقها، فلما دنا منها قالت: بقي بابٌ لم أُغلقه، قال: أي باب؟ قالت: الباب الذي بينك وبين الله، فلم يتعرَّض لها.

وذكر أيضاً: عن أعرابي قال: خرجتُ في بعض ليالي الظلم فإذا أنا بجارية كأنها عَلَم[٤] فأردتها عن نفسها فقالت: ويلك أما كان لك زاجرٌ من عقل، إذ لم يكن لك ناهٍ من دين؟ فقلت: إنه والله ما يرانا إلا الكواكب، قالت: فأين مُكَوْكِبُها؟!

وقال بعض السلف: من كان له واعظٌ من قلبه، زاده الله عز وجل عزا، والذلُّ في طاعة الله، أقربُ من العز في معصيته.

وفي مسند الإمام أحمد: من حديث النواس بن سمعان رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «ضَرَبَ اللهُ مثلاً صراطاً مستقيماً، وعلى جَنَبَتي الصراط سُوران، وفي السورين أبوابٌ مُفتَّحة، وعلى الأبواب ستورٌ مُرخاة، وعلى رأس الصراط داعٍ يقول: يا أيها الناس ادخلوا الصراط ولا تَعْوَّجُوا،

---

(١) الغيضة: الموضع يكثر فيه الشجر ويلتف.

(٢) اللابة: الحرة والموضع.

(٣) الآية (١٤) سورة الملك.

(٤) العلم: الجبل: وشيء منصوب يهتدى به في الطريق.

وداع يَدعو فوق الصراط، فإذا أراد أحد فتح شيء من تلك الأبواب قال: ويحك لا تَفْتَحه، فإنك إن فتحتهَ تَلِجْه، فالصراط: الإسلام، والستور المرخاة: حدودُ الله، والأبواب المفتحة: محارمُ الله، والداعي على رأس الصراط: كتاب الله عز وجل، والداعي من فوقِ الصراط: واعظُ اللهِ في قلبِ كلِّ مسلم»(١).

وقال خالد بن معدان: ما من عبدٍ إلا وله عينان في وجهه، يبصر بهما أمر الدنيا، وعينان في قلبه، يبصر بهما أمر الآخرة، فإذا أراد الله بعبد خيراً، فَتَح عينيه اللتين في قلبه، فأبصر بهما ما وعده الله بالغيب، وإذا أراد الله به غير ذلك تركه على ما هو فيه، ثم قرأ: ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (٢٤)﴾(٢).

وفي المسند: من حديث فضالة بن عبيد عن النبي ﷺ: «المجاهدُ مَنْ جَاهَد نفسه في ذات الله»(٣).

---

(١) حديث صحيح، المسند (٤/ ١٨٢ ـ ١٨٣) وإسناده صحيح. وأخرجه ابن أبي عاصم (١٩) والآجري في الشريعة (ص ١١ ـ ١٢) والحاكم (١/ ٧٣) وقال: صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي.

وله طريق آخر عن النواس: أخرجه أحمد (٤/ ١٨٣) وابن أبي عاصم (١٨) والترمذي (٢٨٥٩).

وقال: حديث غريب!

جنبتي الصراط: جانباه، لاتعوجوا: أي لاتميلوا عنه، وفي رواية: لاتنفرجوا. تلجه: أي تدخله.

(٢) الآية (٢٤) سورة محمد.

(٣) حديث صحيح، المسند (٦/ ٢١) عن عمرو بن مالك عن فضالة به، ورجاله ثقات. وله طريق آخر فيه ضعف. انظر النهج الاسمى (١/ ١٢٧).

تنبيه: في الأصل تتمة للحديث: «والعاجز من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله»! وليست من الحديث وإنما وردت في حديث آخر ضعيف أوله: «الكيس من دان نفسه...» رواه أحمد (٤/ ١٢٤) والترمذي (٢٤٥٩) وابن ماجة (٤٢٦٠) وفيه أبو بكر بن أبي مريم، ضعيف.

وروىٰ الإمام أحمد رحمه الله تعالىٰ: عن أبي العالية، عن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: «مَنْ أَصبحَ وأكثر همه غير الله، فليس من الله»[1].

وقال أحمد: عن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب أن أمه فاطمة حدثته أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ من شرارِ أُمتي الذين غُذُوا بالنَّعيم، الذين يطلبون ألوانَ الطعام، وألوانَ الثيابِ، ويَتَشدَّقون بالكلام»[2].

---

(١) إسناده حسن، رواه أحمد في كتاب الزهد (ص٣٢ـ٣٣).

(٢) حديث حسن، رواه أحمد في الزهد (ص٧٧) وابن أبي الدنيا في الجوع (١٧٣) وفي ذم الغيبة (١٠) وفي الصمت (١٥٠) وإسناده مرسل، فاطمة بنت الحسين تابعية.

لكن للحديث شاهد: من حديث أبي أمامة رضي الله عنه، رواه الطبراني في الكبير (٧٥١٣) والأوسط (٢٣٥١). وثان: من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، رواه البزار (٣٦١٦ـ زوائد) وانظر الصحيحة (١٨٩١).

فصل

[في التحذير من متابعة الهوى والحث على مخالفته]

وملاكُ الأمر كله الرغبةُ في الله، وإرادة وجهه والتقرب إليه بأنواع الوسائل، والشوق إلىٰ الوصول إليه وإلىٰ لقائه، فإن لم يكن للعبد همَّةٌ إلىٰ ذلك، فالرغبة في الجنة ونعيمها وما أعدَّ الله فيها لأوليائه، فإن لم تكن له همة عالية تطالبه بذلك فخشية النار وما أَعدَّ الله فيها لمن عصاه، فإن لم تُطاوعه نفسُه بشيء من ذلك فليعلم أنه خلق للجحيم لا للنعيم، ولا يَقْدر علىٰ ذلك بعد قدر الله وتوفيقه إلا بمخالفة هواه، فهذه فصول أربعة هن: ربيع المؤمن وصيفه وخريفه وشتاؤه، وهن منازله في سيره إلىٰ الله عز وجل، وليس له منزلة غيرها.

فأما مخالفةُ الهوىٰ: فلم يجعل الله للجنة طريقاً غير مخالفته، ولم يجعل للنار طريقاً غير متابعته، قال الله تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ (٣٧) وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٣٨) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ (٣٩) وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ (٤١)﴾[١] وقال تعالىٰ: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ (٤٦)﴾[٢] قيل: هو العبد يهوىٰ المعصية فيذكر مقام ربه عليه في الدنيا، ومقامه بين يديه في الآخرة، فيتركها لله.

وقد أخبر سبحانه أن اتباع الهوىٰ يُضل عن سبيله، فقال الله تعالىٰ:

﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ

---

(١) الآيات (٣٧ ـ ٤١) سورة النازعات.

(٢) الآية (٤٦) سورة الرحمن.

﴿فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾[1] ثم ذكر مآل الضالين عن سبيله ومصيرهم، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ (٢٦)﴾[2] وأخبر سبحانه أن باتباع الهوىٰ يطبع علىٰ قلب العبد، فقال: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (١٦)﴾[3].

وذكر الإمام أحمد من حديث: أبي بَرزة الأسلمي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أَخوفُ ما أخافُ عليكم، شهوات الغَيِّ في بطونكم وفروجكم، ومُضِلاَّت الهوىٰ»[4].

وقيل لبعض الحكماء: أي الأصحاب أبرُّ؟ قال: العمل الصالح، قيل: فأي شيء أضر؟ قال: النفس والهوىٰ. وقال بعض الحكماء: إذا اشتبه عليك أمران، فانظر أقربَهما من هواك فاجتنبه.

وفي المسند[5] وغيره: من حديث قتادة، عن أنس رضي الله عنه قال:

---

(١) الآية (٢٦) سورة ص.

(٢) الآية (٢٦) سورة ص.

(٣) الآية (١٦) سورة محمد.

(٤) حديث صحيح، رواه أحمد (٤/ ٤٢٠، ٤٢٣) وابن أبي عاصم في السنة (١٤) والطبراني في الصغير (١/ ١٨٥) وأبو نعيم في الحلية (٢/ ٣٢) ولفظه: «إن مما أخشى عليكم شهوات...».

(٥) كذا في الأصل! ولم أجده في المسند ولا في الزهد، ولم أر من عزاه إلى المسند، وإنما رواه البزار (٨٠ ـ زوائد) وأبو نعيم في الحلية (٢/ ٣٤٣) والقضاعي في مسند الشهاب (٣٢٥، ٣٢٦، ٣٢٧) وغيرهم من حديث قتادة. وفي سنده ضعفاء.
لكن الحديث: مروي عن جماعة من الصحابة، وأسانيده وإن كان لا يسلم شيء منها من مقال، فهو بمجموعها حسن إن شاء الله تعالى، كما قال المنذري في الترغيب (٤٥٣) بتحقيق الشيخ الالباني رحمه الله تعالى.

قال رسول الله ﷺ: «ثلاثٌ مُهْلِكاتٌ، وثلاثٌ منجياتٌ، فالمهلكات: شُحٌّ مطاعٌ، وهوىً متَّبعٌ، وإعجابُ المرءِ بنفسه، والمُنْجياتُ: تقوىٰ الله تعالىٰ في السرِّ والعلانية، والعدل في الغضب والرِّضىٰ، والقَصْدُ في الفقر والغنىٰ».

وقد أقسم النبي ﷺ أنه لا يؤمن العبدُ حتىٰ يكون هواه تبعاً لما جاء به[1]، فيكون هواه تابعاً لا متبوعاً، فمن اتبع هواه فهواه متبوع له، ومن خالف هواه لما جاء به الرسول ﷺ فهواه تابع له، فالمؤمن هواه تابع له، والمنافق الفاجر هواه متبوع له.

وقد حكم الله تعالىٰ لتابع هواه بغير هُدىً من الله، أنه أظلم الظالمين، فقال الله عز وجل: ﴿**فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٠﴾**﴾[2] وأنت تجد تحت هذا الخطاب أن الله لا يهدي من اتَّبع هواه.

وجعل سبحانه وتعالىٰ المُتَّبَع قسمين لا ثالث لهما: إما ما جاء به الرسول ﷺ، وإما الهوىٰ. فمن اتبع أحدهما لم يمكنه اتباعُ الآخر، والشيطانُ يُطيف بالعبد من أين يدخل عليه، فلا يجد عليه مدخلاً ولا إليه طريقاً، إلا من هواه. فلذلك كان الذي يخالف هواه يَفْرَقُ[3] الشيطان من ظلِّه، وإنما تطاق مخالفة الهوىٰ بالرغبة في الله وثوابه، والخشية من حجابه وعذابه. ووجد حلاوة الشفاء في مخالفة الهوىٰ، فإنَّ متابعتَه الداءُ الأكبر، ومخالفته الشفاء الأعظم.

---

(١) وهو لم يصح سنداً، وإن كان معناه صحيحاً.

(٢) الآية (٥٠) سورة القصص.

(٣) يفرق: يفزع ويخاف.

وقيل: إنما سُمِّي «هوىٰ» لأنه يَهوي بصاحبه إلىٰ أسفل السافلين. والهوىٰ ثلاثةُ أرباعِ الهوان، وهو شارع النار الأكبر، كما أن مخالفته شارع الجنة الأعظم. وقال أبو دُلَف العجلي:

واسوأتا لفتىً له أدب
يُضْحي هواه قاهراً أدَبَه

يأتي الدَّنيَّة وهو يَعرِفُها
فَيَشينُ عِرْضاً صائناً أَربَه

فإذا ارْعَوى عادت بصيرتُه
فَبَكى على الحين[1] الذي سُلِبَه

(١) الحين الوقت طال أو قصر.

فصل

[في الرَّغْبة إلى الله وأنواعها، وصفات العارفين]

وأما الرغبةُ في الله وإرادة وجهه، والشوقُ إلى لقائه، فهي رأس مال العبد، وملاكُ أمره، وقوام حياته الطيبة، وأصل سعادته وفلاحه ونعيمه وقرة عينه، ولذلك خُلق، وبه أُمر، وبذلك أُرسلت الرسل، وأُنزلت الكتب، ولا صلاح للقلب ولا نعيم إلا بأن تكون رغبتُهُ إلى الله عز وجل وَحْده، فيكون هو وحده مرغوبَه ومطلوبه ومراده، كما قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ۝٨﴾[1] وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ۝٥٩﴾[2].

والراغبون ثلاثة أقسام: راغبٌ في الله، وراغب فيما عند الله، وراغب عن الله. فالمحبُّ راغبٌ فيه، والعامل راغب فيما عنده، والراضي بالدنيا من الآخرة راغبٌ عنه. ومن كانت رغبته في الله، كَفَاه الله كل مهمٍّ، وتولاه في جميع أموره، ودفع عنه ما لا يستطيع دفعه عن نفسه، ووقاه وقايةَ الوليد، وصانه من جميع الآفات. ومن آثر الله على غيره، آثره الله على غيره. ومن كان لله كان الله له حيث لا يكون لنفسه، ومن عرف الله لم يكن شيءٌ أحبَّ إليه منه، ولم تبقَ له رغبةٌ فيما سواه، إلا فيما يُقربه إليه، ويعينه على سفره إليه.

(١) آخر سورة الانشراح.

(٢) الآية (٥٩) سورة التوبة.

ومن علامات المعرفة: الهيبةُ، فكلما ازدادت معرفةُ العبد بربه، ازدادت هيبته له وخشيته إياه، كما قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[1] أي: العلماء به. وقال النبي ﷺ: «أَنا أعرفُكُم بالله، وأشدُّكُم له خَشْيةً»[2].

ومَن عَرَفَ الله صَفَا له العيش، وطابتْ له الحياة، وهابَه كلُّ شيء، وذهب عنه خوف المخلوقين، وأَنِسَ بالله، واستوحش من الناس، وأورثته المعرفة الحياء من الله، والتعظيم له، والإجلال والمراقبة والمحبة والتوكل عليه، والإنابة إليه والرضا به والتسليم لأمره. وقيل للجنيد رحمه الله تعالىٰ: إن هاهنا أقواماً يقولون: إنهم يَصِلون إلىٰ البرِّ بترك الحركات، فقال: هؤلاء تكلموا بإسقاط الأعمال وهو عندي عظيم[3]، والذي يزني ويسرق أحسنُ حالاً من الذي يقول هذا، فإن العارفين بالله أخذوا الأعمال عن الله، وإلىٰ الله رجعوا فيها، ولو بقيتُ ألف عامٍ لم أنقص من أعمال البر شيئاً.

وقال يحيىٰ بن معاذ: يخرج العارف من الدنيا ولا يقضي وطره من شيئين: بكاؤُه علىٰ نفسه، وشوقه إلىٰ ربه.

وقال بعضهم: لا يكون العارف عارفاً حتىٰ لو أعطىٰ ملك سليمانَ لم يَشْغله عن الله طرفة عين.

---

(١) الآية (٢٨) سورة فاطر.

(٢) رواه البخاري في الإيمان (١/ ٧٠) وفي الاعتصام (١٣/ ٢٧٦) بلفظ: «أنا أعلمكم ...» ومسلم في الفضائل (٤/ ١٨٢٩) من حديث عائشة رضي الله عنها بألفاظ متقاربة.

(٣) وهو قول ضلال المتصوفة، محتجين على ترك الطاعات بقوله تعالى ﴿واعبد ربك حتى يأتيك اليقين﴾ ناسين أو متناسين عبادة خاتم النبيين حتى خروجه من الدنيا، وقوله عليه الصلاة والسلام: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله ...».

وقيل: العارف أَنِس بالله فاستوحش من غيره، وافتقر إلىٰ الله فأغناه عن خلقه، وذل لله فأعزه في خلقه.

وقال ذو النون: لكل شيء عقوبةٌ، وعقوبة العارف: انقطاعه عن ذكر الله.

وبالجملة فحياةُ القلب مع الله، لا حياةَ له بدون ذلك أبداً، ومتىٰ واطأ[1] اللسان القلب في ذكره، وواطأ القلبُ مرادَ حبيبه منه، واستقل له الكثير من قوله وعمله، واستكثر له القليلَ من بره ولطفه، وعانق الطاعة، وفارق المخالفة، وخرج عن كله لمحبوبه فلم يبق منه شيء، وامتلأ قلبُه بتعظيمه وإجلاله، وإيثار رضاه، وعزَّ عليه الصبرُ عنه، وعُدم القرار دون ذكره والرغبة إليه، والاشتياق إلىٰ لقائه، ولم يجد الأنس إلا بذكره، وحفظ حدوده، وآثره علىٰ غيره فهو المحب حقاً.

وقال الجنيد: سمعت الحارث المحاسبي يقول: المحبة ميلك إلىٰ الشيء بكليِّتك. ثم إيثارُك له علىٰ نفسك وروحك ومالك، ثم موافقتُك له سراً وجهراً، ثم علمك بتقصيرك في حبه. وقيل: المحبةُ نارٌ في القلب تحرق ما سوىٰ مرادِ الحبيب من محبه.

وقال سمنون: ذهب المحبون لله بشرف الدنيا والآخرة، إن النبي ﷺ قال: «المرْءُ مع من أَحَبَّ»[2] فهم مع الله في الدنيا والآخرة. وقال يحيىٰ بن معاذ: ليس بصادقٍ من ادعىٰ محبته، ثم لم يحفظ حدودَه.

---

(١) واطأ: وافق وطابق.

(٢) تقدم هذا الحديث.

فصل

فالمحبة شجرةٌ في القلب، عروقُها الذلُّ للمحبوب، وساقها معرفتُه، وأغصانُها خشيته، وورقها الحياء منه، وثمرتُها طاعته، ومادتها التي تسقيها ذكرُه، فمتىٰ خلا الحبُّ عن شيء من ذلك، كان ناقصاً.

وقد وصف الله سبحانه نفسه بأنه يحب عباده المؤمنين، ويحبونه، فأخبر أنهم أشد حباً لله، ووصف نفسه بأنه «الوَدُود» وهو الحبيب، قاله البخاري. والودُّ: خالص الحب، فهو يود عباده المؤمنين ويودنه.

وقد رویٰ البخاري في صحيحه: من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ فيما يرویٰ عن ربه عز وجل أنه قال: «مَنْ أهانَ لي ولياً فقد بارَزَني بالمُحارَبَة، وما تَقرَّب إليَّ عبدي بمثل أداء ما افترضتُ عليه، ولا يزال عبدي يتقرَّب إليَّ بالنوافل حتىٰ أُحبَّه، فإذا أحببتُه كنتُ سمعه الذي يَسمعُ به، وبصره الذي يبصر به، ويدَه التي يَبطش بها، ورجله التي يمشي بها، فبي يَسمعُ وبي يُبصر، وبي يبطش، وبي يمشي، ولئن سألني لأُعطينَّه، ولئن استعاذَ بي لأعيذنَّه، وما تردَّدتُ عن شيءٍ أنا فاعله ترددي عن قَبضِ نفسِ عبدي المؤمن، يكرهُ الموتَ وأكره مساءته، ولابدَّ له منه»[1].

فتأمل كمالَ الموافقة في الكراهة، كيف اقتضىٰ كراهةَ الرب تعالىٰ لمساءة عبده بالموت، لما كره العبد مَساخطَ ربِّه، كمال الموافقة في الإرادة، كيف اقتضىٰ موافقته في قضاء حوائجه، وإجابة طلباته وإعاذته مما استعاذ به،

(١) رواه البخاري في الرقاق (١١/ ٣٤٠ ـ ٣٤١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. وله شاهد من حديث عائشة رضي الله عنها: أخرجه أحمد (٦/ ٢٥٦) وشواهد أخرى، انظر الفتح (١١/ ٣٤١ـ٣٤٢).

كما قالت عائشة رضي الله عنها للنبي ﷺ: «ما أرىٰ ربَّكَ إلا يُسارع في هَوَاك»(١).

وفي تفسير ابن أبي نجيح عن مجاهد في قوله عز وجل: ﴿**وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً (١٢٥)**﴾(٢) قال: حبيباً قريباً، إذا سأله أعطاه، وإذا دعاه أجابه.

وأوحىٰ الله تعالىٰ إلىٰ موسىٰ عليه الصلاة والسلام: يا موسىٰ، كُن لي كما أُريد، أَكنْ لك كما تريد.

وتأمل هذه الباء في قوله: «كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به..» إلىٰ آخره، فإنْ سَمع سمع بالله، وإنْ أبصرَ أبصر به، وإن بطش بطش به، وإن مشىٰ مشىٰ به. وهذا تحقيق قوله تعالىٰ: ﴿**إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ (١٢٨)**﴾(٣)، وقوله: ﴿**وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ (٦٩)**﴾(٤) وقوله: ﴿**وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ (١٩)**﴾(٥)، وقوله فيما رواه عنه رسوله من قوله: «أنا مع عبدي ما ذَكَرني، وتَحرَّكتْ بي شَفَتَاه»(٦). وهذا ضد قوله: ﴿**أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ (٤٣)**﴾(٧) فالصحبة التي نفاها هاهنا، هي التي أثبتها لأحبابه وأوليائه، فتأمل كيف جعل

---

(١) رواه البخاري في التفسير (٨/ ٥٢٤ـ ٥٢٥) وفي النكاح (٩/ ١٦٤).

(٢) الآية (١٢٥) سورة النساء.

(٣) آخر سورة النحل.

(٤) آخر سورة العنكبوت.

(٥) الآية (١٩) سورة الأنفال.

(٦) رواه البخاري في التوحيد (١٣/ ٤٩٩) تعليقاً وفي خلق أفعال العباد (ص٨٧) موصولاً وأحمد (٢/ ٥٤٠) وابن حبان (٢٣١٦) من حديث أبي هريرة. وانظر النهج الأسمى (١/ ٣٠).

(٧) الآية (٤٣) سورة الأنبياء.

محبته لعبده متعلقة بأداء فرائضه، وبالتقرب إليه بالنوافل بعدها لا غير، وفي هذا تعزيةٌ لمدَّعي محبته بدون ذلك أنه ليس من أهلها، وإنما معه الأماني الباطلة، والدَّعاوىٰ الكاذبة[1].

وفي الصحيحين: من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إذا أَحبَّ اللهُ العبدَ، نادىٰ جبريل: إن الله يُحبُّ فلاناً فأحبوه، فَيُحبُّه أهل السماء ثم يوضع له القبول في الأرض»[2]. وفي لفظ لمسلم: «إن الله إذا أَحبَّ عبداً دعا جبريل فقال: إني أُحب فلاناً فأحبه، قال: فيحبه جبريل، ثم ينادي في السماء فيقول: إن الله يحب فلاناً فأحبوه، فيحبه أهلُ السماء، قال ثم يوضع له القبول في الأرض، وإذا أَبغضَ عبداً دعا جبريل فيقول: إني أبغض فلاناً فأبغضه، قال فيبغضه جبريل، ثم ينادىٰ في السماء إن الله يُبْغضُ فلاناً فأبغضوه، ثم يُوضع له البَغْضَاء في الأرض»[3].

وفي لفظ آخر لمسلم: عن سهيل بن أبي صالح قال: كنا بعرفة فمر عمر بن عبدالعزيز وهو علىٰ الموسم فقام الناس ينظرون إليه، فقلت لأبي: يا أَبتِ إني أرىٰ الله يحب عمر بن عبدالعزيز، قال: وما ذاك؟ قلت: لما له من الحب في قلوب الناس، فقال: إني سمعت أبا هريرة رضي الله عنه يحدث عن رسول الله ﷺ ثم ذكر الحديث[4].

---

(١) وهذا أبلغ رد على تاركي الأعمال، من الواجبات وغيرها، من المتصوفة الزائغة.

(٢) رواه البخاري في الأدب (١٠/ ٤٦١) ومسلم في البر والصلة (٤/ ٢٠٣١).

(٣) رواه مسلم في البر والصلة (٤/ ٢٠٣٠).

(٤) رواه مسلم في البر (٤/ ٢٠٣١).

وأخرجه الترمذي[1] ثم زاد في آخره: فذلك قول الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا (٩٦)﴾[2]. انتهىٰ.

وقال بعض السلف في تفسيرها: يحبُّهم ويُحبِّبهم إلىٰ عباده.

وفي الصحيحين: من حديث أنس رضي الله عنه: أن رجلاً سأل النبي ﷺ عن الساعة فقال: «وما أَعْدَدتَ لها؟» قال: لا شيء، إلا أني أُحِبُّ الله ورسوله؟ فقال: «أنتَ مع من أحببتَ»، قال أنس رضي الله عنه: فما فرحنا بشيءٍ فرحنا بقول النبي ﷺ: «أنتَ مع مَنْ أحببت».

قال أنس: فأنا أحب النبي ﷺ وأبا بكر وعمر، وأرجو أن أكون معهم بحبي إياهم، وإنْ لم أعمل بأعمالهم.[3]

وهذه المحبة لله، توجب المحبة في الله قطعاً، فإن من محبة الحبيب: المحبة فيه والبغض فيه.

وقد روىٰ مسلم في صحيحه[4]: من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله تعالىٰ يقول يوم القيامة: أين المتحابون بجلالي؟ اليوم أُظلُّهم في ظلي، يومَ لا ظلَّ إلا ظلي».

وفي جامع أبي عيسىٰ الترمذي: من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه

---

(١) جامع الترمذي (٣١٦١) كتاب تفسير القرآن.

(٢) الآية (٩٦) سورة مريم.

(٣) رواه البخاري في الأدب (١٠/ ٥٥٧) ومسلم في البر والصلة (٤/ ٢٠٣٢ ـ ٢٠٣٣) واللفظ له. وله شاهدان من حديث ابن مسعود وأبي موسى عندهما.

(٤) كتاب البر والصلة والآداب (٤/ ١٩٨٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله عز وجل: المتحابون بجلالي لهم منابرُ من نورٍ، يَغْبطُهم النبيون والشهداء»(١).

وفي الموطأ: من حديث أبي إدريس الخولاني قال: دخلت مسجد دمشق فإذا فتىً بَرَّاق الثنايا والناسُ حوله، فإذا اختلفوا في شيء أسندوه إليه وصدروا عن رأيه، فسألت عنه فقالوا: هذا معاذ بن جبل، فلما كان الغد هَجَّرتُ إليه، فوجدتهُ قد سبقني بالتهجير، ووجدتُه يصلي، فانتظرته حتىٰ قضىٰ صلاته، ثم جئته من قبل وجهه فسلمتُ عليه، ثم قلت: والله إني لأُحبُّك في الله، فقال: آلله؟ قلت: الله، فقال: آلله؟ فقلت: الله، فأخذ بحَبْوة ردائي فجبذني إليه وقال: أبشر، فإني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «قال الله تبارك وتعالىٰ: وجَبَتْ محبتي للمُتحابِّين فيَّ، والمُتَجالسين فيَّ، والمُتَزَاورين في، والمُتَباذلين فيَّ»(٢).

وفي سنن أبي داود: عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من عباد الله لأُنَاساً ما هم بأنبياء ولا شهداء يَغْبِطُهم الأنبياءُ والشهداء يوم القيامة، بمكانهم من الله» قالوا: يا رسول الله، تخبرُنا من هم؟ قال: «هم قومٌ تحابوا برُوحِ الله، علىٰ غير أرحامٍ بينهم، ولا أموال

(١) حديث صحيح، جامع الترمذي كتاب الزهد (٢٣٩٠) والطبراني (٢٠/ ١٦٨). وأخرجه أحمد (٥/ ٢٣٩) (٥٧٥، ٥٧٧) والطبراني (٢٠/ ١٦٧). وابن حبان مطولاً، وهو الحديث التالي.

(٢) الموطأ (٢/ ٩٥٣ـ ٩٥٤) وانظر الحديث السابق.

قوله: وصدروا عن رأيه: أخذوا برأيه وعملوا به. والتهجير: التبكير.

وحبوة الرداء: ملتقى طرفي الرداء على الصدر. المتباذلين في: أي يبذل كل منهما لصاحبه نفسه وماله في مهماته في الله تعالى.

يَتَعاطَوْنها، فوالله إنَّ وجوهَهم لنورٌ، وإنهم لعلىٰ نورٍ، ولا يخافون إذا خافَ الناسُ، ولا يحزنون إذا حَزِنَ الناسُ» وقرأ هذه الآية: «﴿**ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون**﴾»[1].

وفي صحيح مسلم: من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن رجلاً زار أخاً له في قَريةٍ أخرىٰ، فأَرْصَدَ اللهُ علىٰ مَدْرَجتِه ملكاً، فلما أتىٰ عليه قال: أين تُريد؟ قال: أريد أخاً لي في هذه القرية، قال: لك عليه من نعمةٍ تَرُبُّها؟ قال: لا، غيرَ أني أُحبه في الله تعالىٰ، قال: فإني رسولُ الله إليك، أن الله قد أحبَّك كما أَحببتَه فيه»[2].

وفي سنن أبي داود: أن رجلاً كان عند رسول الله ﷺ فمر رجلٌ فقال: يا رسول الله إني لأُحبُّ هذا، فقال له رسول الله ﷺ: «أَعْلمتَه؟» قال: لا، قال: «أَعْلِمْه» فلحقه فقال: إني أُحبُّكَ في الله، قال: أحبَّك الذي أَحْببتَني له[3].

---

(١) حديث صحيح، أخرجه أبو داود في البيوع (٣٥٢٧) من حديث أبي زرعة بن عمرو عن عمر رضي الله عنه، وهو مرسل.
لكن للحديث شاهد: من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه: رواه أحمد (٥/ ٣٤٣) وأبو يعلى وفيه: شهر بن حوشب.
وشاهد ثان: من حديث ابن عمر رضي الله عنهما: رواه الحاكم (٤/ ١٧٠) وإسناده حسن.

(٢) مسلم: كتاب البر والصلة (٤/ ١٩٨٨).
قوله: فأرصد: أي أقعد ملكاً يرقبه. مدرجته: هي الطريق، لأن الناس يدرجون عليها، أي: يمضون ويمشون. تربها: أي تقوم بإصلاحها وتعهدها.

(٣) حديث حسن، رواه أبو داود في الأدب (٥١٢٥) من حديث أنس رضي الله عنه.

وفيها أيضاً: عن المقدام بن معدي كرب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إذا أحبَّ الرجلُ أخاه، فليُخْبره أنه يُحبُّه»(١).

وفي صحيح مسلم: من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «والذي نفسي بيده، لا تَدخلون الجنةَ حتىٰ تُؤْمنوا، ولا تؤمنوا حتىٰ تَحابُّوا، أَوَلا أدُلّكم علىٰ شيءٍ إذا فعلتمُوه تَحَاببتم؟ أفشوا السلام بينكم»(٢).

فصل

ولو لم يكن في محبة الله، إلا أنها تُنجي مُحبَّه من عذابه، لكان ينبغي للعبد أن لا يتعوض عنها بشيء أبداً. وسئل بعض العلماء: أين تجد في القرآن أن الحبيب لا يعذب حبيبه؟ فقال: في قوله تعالىٰ: ﴿**وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم**﴾(٣) الآية.

ويكفي في الإقبال علىٰ الله تعالىٰ ثواباً عاجلاً، أن الله سبحانه وتعالىٰ يُقْبل بقلوب عباده إلىٰ مَنْ أَقبل عليه، كما أنه يُعْرِض بقلوبهم عمن أعرض عنه، فقلوب العباد بيد الله لا بأيديهم.

وروىٰ الإمام أحمد عن قتادة قال: ذُكر لنا أن هَرِم بن حيان كان يقول: ما

(١) حديث صحيح، أبو داود في الأدب (٥١٢٤) والترمذي (٢٥١٥ ـ ط التربية).
وفيه توجيه نبوي لاستمالة قلب أخيه، واجتلاب وده، وفيه: أنه إذا علم أنه محب له، قَبِل منه نصحه ولم يرد عليه قوله. وبنحوه قال الخطابي.

(٢) مسلم في كتاب الإيمان (١/ ٧٤).
وفيه حث عظيم على إفشاء السلام وبذله للمسلمين كلهم، من عرفت ومن لم تعرف، وأنه من أسباب المحبة.

(٣) الآية (١٨) سورة المائدة.

أقبل عبدٌ على الله بقلبه، إلا أقبل الله عز وجل بقلوب المؤمنين إليه، حتى يرزقه مودَّتهم ورحمتهم.

وإذا كانت القلوبُ مجبولة على حبِّ من أحسن إليها، وكلُّ إحسان وصل إلى العبد فمن الله عز وجل، كما قال الله تعالى: ﴿**وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ**﴾[1]، فلا أَلأَم ممن شغل قلبه بحب غيره دونه.

ومن أفضل ما سئل الله عز وجل: حبُّه وحبُّ من يحبه، وحب عملٍ يقرب إلى حبه، ومن أجمع ذلك أن يقول: «اللهم إني أسألك حبَّك وحبَّ من يحبك وحب عملٍ يقربني إلى حبك، اللهم ما رزقتني مما أحبُّ فاجعله قوةً لي فيما تحب، وما زَويتَ[2] عني مما أحب فاجعله فراغاً لي فيما تحب، اللهم اجعل حبَّك أحب إلي من أهلي ومالي ومن الماء البارد على الظمأ، اللهم حَبِّبني إليك وإلى ملائكتك وأنبيائك ورسلك وعبادِك الصالحين، واجعلني ممن يحبك ويحب ملائكتك وأنبياءك ورسلك وعبادك الصالحين، اللهم أَحي قلبي بحبك واجعلني لك كما تحب، اللهم اجعلني أُحبُّك بقلبي كلِّه، وأُرضيك بجُهدي كله، اللهم اجعل حبي كلَّه لك، وسَعْيي كله في مرضاتك»[3].

وهذا الدعاء هو فُسطاط خيمة الإسلام الذي قيامُها به، وهو حقيقة شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، والقائمون بحقيقة ذلك هم الذين هم بشهاداتهم قائمون.

---

(١) الآية (٥٣) سورة النحل.

(٢) زواه عن الشيء: صرفه ونحاه.

(٣) روى الترمذي في الدعوات (٣٧٣٦) أوله، وفيه: عبدالله بن ربيعة الدمشقي مجهول. فالدعاء لم يصح مرفوعاً إلى النبي ﷺ.

والله سبحانه تعرَّف إلىٰ عباده من أسمائه وصفاته وأفعاله بما يوجب محبتهم له، فإن القلوب مفطورةٌ علىٰ محبة الكمال ومن قام به، والله سبحانه وتعالىٰ له الكمالُ المطلق من كل وجه، الذي لا نقصَ فيه بوجهٍ ما، وهو سبحانه الجميلُ الذي لا أجمل منه، بل لو كان جمال الخلق كلهم علىٰ رجل واحد منهم، وكانوا جميعُهم بذلك الجمال لما كان لجمالهم قط نسبةٌ إلىٰ جمال الله، بل كانت النسبة أقل من نسبة سراج ضعيف إلىٰ حِذاء جِرْم الشمس ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَى﴾(١).

وقد روىٰ عن النبي ﷺ قوله: «إن الله جميل يحب الجمال» عبدُالله ابن عمرو بن العاص، وأبو سعيد الخدري، وعبدالله بن مسعود، وعبدالله بن عمر بن الخطاب، وثابت بن قيس، وأبو الدرداء، وأبو هريرة، وأبو ريحانة رضي الله عنهم(٢).

ومن أسمائه الحسنىٰ(٣): الجميل، ومن أحقُّ بالجمال ممن كلُّ جمالٍ في الوجود فهو من آثار صُنعه، فله جمالُ الذاتِ، وجمالُ الأوصاف، وجمال الأفعال، وجمال الأسماء، فأسماؤه كلها حسنىٰ، وصفاته كلها كمال، وأفعاله كلها جميلة، فلا يستطيع بشرٌ النظر إلىٰ جلاله وجماله في هذه الدار، فإذا رأوه سبحانه في جنات عدن أَنْسَتْهم رؤيته ما هم فيه من النعيم، فلا يلتفتون حينئذ إلىٰ شيء غيره، ولولا حجابُ النورِ علىٰ وجهه، لأحرقت سُبُحَاتُ(٤) وجهه سبحانه وتعالىٰ ما انتهىٰ إليه بصره من خلقه.

---

(١) الآية (٦٠) سورة النحل.

(٢) رواه مسلم في الإيمان (١/ ٩٣) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٣) وانظر كتابنا: النهج الأسمى في شرح أسماء الله الحسنى (٣/ ٣٥).

(٤) سبحات وجه الله: أنواره وجلالته وعظمته.

كما في صحيح البخاري[1]: من حديث أبي موسىٰ رضي الله عنه قال: قام فينا رسول الله ﷺ بخمس كلمات فقال: «إن الله لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يَخْفِضُ القِسطَ[2] ويرفعه، يُرْفَعُ إليه عمل الليل قبل عملِ النهار، وعملُ النهار قبل عمل الليل، حجابُه النُّور، لو كشفه لأحرقت سُبُحات وجهه ما انتهىٰ إليه بصرُهُ من خَلْقه».

وإذا جاء سبحانه وتعالىٰ يوم القيامة لفصل القضاء بين عباده، تُشرق لنوره الأرض كلها، كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ﴾[3].

وفي الصحيحين[4]: من حديث أبي بكر رضي الله عنه في استفتاح النبي ﷺ قيام الليل: «اللهم لك الحمدُ، أنتَ نورُ السمواتِ والأرض ومن فيهن».

وقد كان من دعاء النبي ﷺ: «أسألك لذَّةَ النظرِ إلىٰ وجهك، والشَّوقَ إلىٰ لقائك»[5].

فاسمع الآن شأنَ أوليائه وأحبائه عند لقائه، ثم اختر لنفسك:

---

(١) بل هو في صحيح مسلم، في الإيمان (١/ ١٦١ ـ ١٦٢) ورواه أحمد (٤/ ٤٠٥) وابن ماجة (١/ ٧٠).

(٢) القسط: الميزان، وهو أيضاً العدل والنصيب.

(٣) الآية (٦٩) سورة الزمر.

(٤) كذا قال! وإنما هو عندهما من رواية ابن عباس رضي الله عنهما، أخرجه البخاري في التهجد (٣/ ٣) وغيره، ومسلم في صلاة المسافرين (١/ ٥٣٢ ـ ٥٣٣).

(٥) تقدم تخريجه.

أنتَ القتيلُ بكلِّ من أحببتَه

فاخْترْ لنفسِك في الهوى مَنْ تَصطفي

قال هشام بن حسان عن الحسن : إذا نظر أهل الجنة إلىٰ الله تعالىٰ ، نَسُوا نعيم الجنة .

وفي الصحيحين : من حديث أبي موسىٰ رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «جنتانِ من ذَهَبٍ، آنيتهما وحِلْيَتُهُما وما فيهما ، وجنتان من فضة آنيتهما وحليتهما وما فيهما ، وما بين القوم وبين أن يَنظروا إلىٰ ربهم ، إلا رِداءُ الكبرياءِ علىٰ وجهه في جنة عدن»(١) .

وقال الحسن البصري في قوله تعالىٰ : ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾(٢) قال : حسَّنها الله تعالىٰ بالنظر إليه سبحانه ، وحقَّ لها أن تَنْضُر وهي تنظر إلىٰ ربها عز وجل . قال أبو سليمان الداراني : لو لم يكن لأهل المحبة - أو قال المعرفة - إلا هذه الآية : ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ لاكتفوا بها .

وفي الصحيحين : عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «إن الله تعالىٰ يقول لأهل الجنة : يا أهل الجنة ، فيقولون : لبَّيك ربَّنا وسَعْديك والخيرُ في يديك ، فيقول : هل رضيتم؟ فيقولون : وما لنا لا نرضىٰ وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك ، فيقول : ألا أُعطيكُم أفضلَ من ذلك؟

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير (٨/ ٦٢٤) وفي التوحيد (١٣/ ٤٢٣) ومسلم في الإيمان (١/ ١٦٣) وأحمد (٤/ ٤١٦) .

(٣) الآيتان (٢٢ ، ٢٣) سورة القيامة .

فيقولون: يا ربِّ، وأي شيءٍ أفضلُ من ذلك؟ فيقول: أُحِلُّ عليكم رضواني فلا أَسْخَطُ عليكم أبداً»(١).

وفي الصحيح والسنن والمساند: عن صهيب رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إذا دَخَل أهلُ الجنةِ الجنةَ، نادىٰ منادٍ: يا أهل الجنة، إنَّ لكم عند الله موعداً يريد أن يُنْجِزَكُموه، فيقولون: ما هو؟ ألم يبيض وجوهَنا، ويُثقِّل موازيننا، ويدخلنا الجنة، ويُجِرْنا من النار؟ فيكشفُ الحجابَ فينظرون إليه، فوالله ما أعطاهم الله شيئاً، أَحبَّ إليهم من النَّظرِ إليه، ولا أَقرَّ لأعينهم»(٢).

وفي صحيح البخاري: من حديث جرير بن عبدالله قال: كنا جلوساً عند النبي ﷺ إذْ نظر إلىٰ القمر ليلةَ البدرِ فقال: «إنكم ستَرون ربَّكم، كما ترون هذا القمرَ لا تُضَامُون في رؤيته، فإنْ استطعتم أن لا تُغْلبوا علىٰ صلاةٍ قبل طلوع الشمس وقبل غروبها، فافعلوا»(٣).

وفي الصحيحين: عن أبي هريرة رضي الله عنه أن الناس قالوا: يا رسول الله، هل نرىٰ ربنا يوم القيامة؟ فقال رسول الله ﷺ: «هل تُضَارُّون في القمر ليلة البدر؟» قالوا: لا يا رسول الله، قال: «فهل تُضارُّون في الشمس ليس دوننا سحابٌ؟» قالوا: لا يا رسول الله، قال: «فإنكم ترونه

(١) رواه البخاري في الرقاق (١١/ ٤١٥) وفي التوحيد (١٣/ ٤٨٧) ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (٤/ ٢١٧٦).

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان ١٠/ ١٦٣) بنحوه وأحمد (٤/ ٣٣٢، ٣٣٣) (٦/ ١٥) والترمذي (٢٥٥٢، ٣١٠٥) وابن ماجة (١٨٧) وصححه ابن حبان (٧٤٤١) وزادوا قراءة قوله تعالى ﴿الذين أحسنوا الحسنى وزيادة﴾ (يونس: ٢٦).

(٣) رواه البخاري في مواقيت الصلاة (٢/ ٣٣، ٥٢) وفي التفسير (٨/ ٥٩٧) وفي التوحيد (١٣/ ٤١٩) ومسلم أيضاً، في مواضع الصلاة (١/ ٤٣٩ ـ ٤٤٠).

كذلك». وفي لفظ: «فإنكم لا تُضارُّون في رؤية ربكم، إلا كما تُضارون في رُؤْيتهما»(١).

وروىٰ الترمذي: عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يَجمعُ اللهُ الناسَ يوم القيامة في صَعيدٍ واحد، ثم يَطَّلع عليهم ربُّ العالمين تبارك وتعالىٰ فيقول: ليتَّبع كلُّ إنسان ما كان يَعبد، فيمثَّلُ لصاحب الصليب صليبُه ولصاحب التصاوير تصاويرُه، ولصاحب النار ناره، فيتبعون ما كانوا يعبدون، ويبقىٰ المسلمون فيطلع عليهم رب العالمين تبارك وتعالىٰ فيقول: ألا تتبعون الناس؟ فيقولون: نعوذ بالله منك، نعوذ بالله منك، الله ربنا هذا مكاننا حتىٰ نرىٰ ربنا، وهو يأمُرهم ويُثبِّتُهم، ثم يتوارىٰ، ثم يطلع عليهم فيقول: ألا تتبعون الناس؟ فيقولون: نعوذ بالله منك نعوذ بالله منك، ألله ربنا، وهذا مكانُنا حتىٰ نرىٰ ربنا، وهو يأمُرُهم ويُثبِّتهم. قالوا: وهل نراه يا رسول الله؟ قال: وهل تُضَارُّون في رؤيته تلك الساعة. قال: ثم يتوارىٰ، ثم يطلع فَيُعرِّفهم نفسه، ثم يقول: أنا ربكم فاتبعُوني، فيقوم المسلمون ويوضع الصراط فيمرون عليه مثل جِياد الخيل والرِّكاب، وقولهم عليه: سَلِّم سلِّم، ويبقىٰ أهلُ النار فَيُطْرح منهم فيها فوجٌ، فيقال: هل امتلأتِ؟ فتقول: هل من مزيد؟ ثم يُطرح فيها فوج فيقال: هل امتلأت؟ فتقول هل من مزيد؟ حتىٰ إذا أَوْعَبُوا(٢) فيها، وَضَع الرحمن تبارك وتعالىٰ فيها قدمه فأَزْوَىٰ(٣) بعضها إلىٰ

(١) أخرجه البخاري الرقاق (١١/ ٤٤٥) وفي التوحيد (١٣/ ٤١٩ ـ ٤٢٠) ومسلم في الإيمان (١/ ١٦٣ـ١٦٦).

تضارون: أي تضارون غيركم في حالة الرؤية، بزحمة أو مخالفة في الرؤية أو غيرها لخفائها.

(٢) أوعبوا فيها: أدخلوا فيها، ولم يبق أحد منهم خارجها.

(٣) أزوى بعضها إلى بعض: ضم بعضها إلى بعض.

بعض، وقالت: قَطْ قَطْ، فإذا أدخل اللهُ أهلَ الجنة الجنة، وأهل النار النار، أتىٰ بالموت مُلَبِّياً، فَيُوقف علىٰ السُّور الذي بين أهل الجنة وأهل النار، ثم يقال: يا أهل الجنة، فَيَطَّلعون خائفين، ثم يقال: يا أهل النار فيطلعون مستبشرين، يرجون الشفاعة، فيقال لأهل الجنة والنار: هل تعرفون هذا؟ فيقولون هؤلاء وهؤلاء: قد عرفناه، هو الموتُ الذي وُكِّل بنا، فيُضجع فيُذبح ذبحاً علىٰ السُّور. ثم يقال: يا أهل الجنة خلودٌ ولا موتٌ، ويا أهل النار خلودٌ ولا موت»(١).

قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

وأصله في الصحيحين لكن هذا السياق أجمع وأخصر.

وفي مسند الإمام أحمد رضي الله عنه: من حديث أبي الزبير قال: سألت جابراً عن الورود فأخبرني أنه سمع رسول الله يقول: «نجيء يوم القيامة علىٰ كَوْمٍ فوق الناس، فَتُدعىٰ الأمم بأوثانها وما كانت تعبد، الأول فالأول، ثم يأتينا ربُنا بعد ذلك، فيقول: ما تنتظرون؟ فيقولون: ننتظر ربنا، فيقول: أنا ربُّكم، فيقولون: حتىٰ ننَظَر إليك، فيتجلَّىٰ لهم يَضْحك فَيتَّبعونه»(٢).

وقال عبدالواحد بن زيد، عن الحسن: لو عَلِم العابدون أنهم لا يرون

---

(١) جامع الترمذي: صفة القيامة (٢٦٩٥) ط التربية. وهو حديث صحيح، ومعناه في الصحيحين.

(٢) المسند (٣/ ٣٤٥، ٣٨٣). ورواه مسلم في الإيمان ١٠/ ١٧٧-١٧٨).

قوله: نجيء، في المسند: نحن، وفي مسلم: نجيء نحن. على كوم: على تل أو مرتفع من الأرض.

ربهم في الآخرة لذابت أنفسهم في الدنيا . وقال هشام بن حسان عنه : أنه تبارك وتعالى يتجلّى لأهل الجنة ، فإذا رأوه نَسُوا نعيم الجنة .

أعجبُ الصبر صبر المحبين . قال الشاعر :

والصبرُ يُحْمَدُ في المواطن كلِّها

إلا عليك فإنه لا يُحمد[1]

وقال :

والصبرُ عنك فمذمومٌ عواقبُهُ

والصبرُ في سائر الأشياءِ محمودُ

الخوف يبعدك عن معصيته ، والرجاء يخرجك إلى طاعته ، والحب يسوقك إليه سوقاً . لما عَلِم اللهُ سبحانه أن قلوب المشتاقين إليه لا تهدأ إلا بلقائه ، ضرب لهم أجلاً للقاء ، تسكيناً لقلوبهم ، فقال الله تعالى :

﴿مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لآتٍ﴾[2] .

يا من شكى شوقَه من طول فُرقته

إصبر لعلك تَلْقى مَن تُحب غدا

وسِرْ إليه بنار الشوق مجتهداً

عساكَ تلقى على نار الغرام هدى

---

(١) تقدم في صفحة باختلاف في اللفظ .

(٢) الآية (٥) سورة العنكبوت .

المحب الصادق كلما قرب من محبوبه، زاد شوقاً إليه.

وأعظمُ ما يكونُ الشوقُ يوماً

إذا دَنَت الخيامُ من الخيام[1]

كلما وقع بصرُ المحبِّ على محبوبه، أحدثت له رؤيته شوقاً على شوقه:

ما يرجع الطَّرفُ عنه حين يُبصره

حتى يعودَ إليه الطرف مشتاقاً

المحب الصادق إذا سافر طرفُه في الكون، لم يجد له طريقاً إلا على محبوبه، فإذا انصرف بصرُه عنه رجع إليه خاسئاً وهو حسير[2].

ويَسْرَحُ طَرفي في الأنام وينثني

وإنسانُ عيني بالدُّموع غريق

فيَرْجعُ مردوداً إليك وماله

على أحدٍ إلا عليكَ طريق

أقرُّ شيءٍ لعيون المحب خلوتُه بسره مع محبوبه. حدثني من رأى شيخنا في عنفوان أمره، خرج إلى البرية بكرةً، فلما أصحر[3] تنفس الصُّعَداء، ثم تمثل بقول الشاعر:

---

(١) وروى: إذا دنت الديار من الديار.

(٢) خاسئاً: ذليلاً، وحسير: كليل، ضعيف، أعياه النظر والبحث. قال تعالى: ﴿ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير﴾ (تبارك: ٤).

(٣) أصحر الرجل: خرج إلى الصحراء. ويعني بذلك شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى.

وأخـــــرُجُ من بين البـــــيـــــوت لعلّني

أُحـــدِّث عنك القلبَ بالســـرِّ خـــاليـــاً[1]

الشوقُ يحمل المحب على العَجَلة في رضا المحبوب، والمبادرة إليها على الفَوْر، ولو كان فيها تلَفُه، ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَىٰ (٨٣) قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَىٰ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ (٨٤)﴾[2] .

قال بعضهم: أراد شوقاً إليك فستره بلفظ الرضا .

ولـــو قـــلـــتِ طَـــأْ فـــي الـــنـــارِ أعـــلـــمُ أنـــه

رضـــــاً لكِ أو مُـــــدْنٍ لنا من وصـــــالكِ

لقـــدَّمت رجلي نحـــوها فـــوطِئْـــتُـــهـــا

هـدىً منـكِ لي أو ضِـلَّـةً مـن ضـــــــلالـك

لِيَـــهْنِكِ إمـــســـاكي بكفي على الحـــشـــا

ورَقـــراقُ عـــيـــني خـــشـــيـــةً من زِيالك[3]

إنْ سَـــــــاءنـي أنْ نِـلـتـنـي بمـســـــاءةٍ

لـقـــــد ســـــرَّني أني خـطـرتُ ببـــــالِـك

---

(١) تقدم في صفحة . . . .

(٢) الآيتان (٨٣ و٨٤) سورة طه .

(٣) رقرق الماء وغيره: صبه برقة، وعينه: أجرى دمعها، والرقراق من الأشياء ما تلألأ ومن الدمع ما ترقرق منه . زيالك: فراقك، وزايله مزايلة وزيالا: فارقه، كما في قوله ﴿فزيلنا بينهم﴾ (يونس: ٢٨) .

من علامات المحبة الصادقة أن المحب لا يتم له سرورٌ إلا بمحبوبه، وما دام غائباً عنه فعيشه كله مُنَغَّصٌ.

نحن في أكمل السرور ولكن
ليس إلا بكم يتمُّ السرور
عيبُ ما نحن فيه يا أهلَ ودِّي
أنكم غُيَّبٌ ونحن حضور

وقال آخر:

من سره العيدُ الجديد
فقد عَدِمتُ به السرورا
كان السرور يَتِمُّ لي
لو كان أحبابي حضورا

لو قيل للمحب على الدوام: ما تتمنَّى؟ لقال: لقاء المحبوب.

وسُئل الجنيد: من أي شيء بكاء المحب إذا لقى المحبوب؟ فقال: إنما يكون ذلك سروراً به، ووجداً من شدة الشوق إليه، قال: ولقد بلغني أن أخوين تعانقا فقال أحدهما: واشوقاه، وقال الآخر: واوجْداه.

وكانت عجوز لها غائبٌ فقدم من السفر فأظهر أهلها الفرح والسرور به. فجعلت تبكي فقيل لها: ما هذا البكاء؟ فقالت: ذكرني قدوم هذا الفتى، يوم القدوم على الله.

فصل

وقال يحيىٰ بن معاذ: النسكُ هو العناية بالسرائر، وإخراجُ ما سوىٰ الله من القلب. وقال سهل بن عبدالله: ما من ساعة إلا والله سبحانه يطلع فيها علىٰ قلوب العباد، فأي قلب رأىٰ فيه غيره، سلَّط عليه إبليس. وقال سهل بن عبدالله: من نظر إلىٰ الله عز وجل قريباً منه، بَعُد عن قلبه كل شيء سوىٰ الله، ومن طلب مرضاتَه أرضاه الله سبحانه وتعالىٰ، ومن أسلم قلبه إلىٰ الله، تولَّىٰ الله جوارحه.

وقال سهل أيضاً: حرامٌ علىٰ قلب أن يشم رائحة اليقين، وفيه سكون إلىٰ غير الله، وحرام علىٰ قلب أن يدخله النور وفيه شيء مما يكره الله.

وسئل بعضهم عن أفضل الأعمال فقال: رعايةُ السر عن الالتفات إلىٰ شيء سوىٰ الله عز وجل. وقال مسلم[1]: تركتموه وأقبل بعضكم علىٰ بعض، لو أقبلتم عليه لرأيتم العجائب.

فصل

فإن تقاصرت[2] همَّتُك الدَّنية عن ترك الفواحش محبةً لهذا المحبوب الأعلىٰ، ولست هناك، فاتركها محبةً للنساء اللاتي وصفهن الله في كتابه، وبعث رسوله داعياً إلىٰ وصالهن في جنة المأوىٰ. وقد تقدم ذكر بعض صفاتهن ولذَّة وصالهن، فإن تقاصرت همَّتُك عنهن، ولم تكن كُفؤاً

(١) كذا... وفي لسان الميزان: سلم، وفي حلية الأولياء: سالم وهو ابن ميمون الخواص الزاهد (الفقي).

(٢) تقاصرت: تضاءلت وعجزت.

لخطبتهن، ودعتك نفسُك إلىٰ إيثار ما هاهنا عليهن، فكن من عقوبته العاجلة والآجلة علىٰ حذر.

واعلم أن العقوبات تختلف، فتارةً تعجَّل، وتارةً تؤخر، وتارةً يجمع الله علىٰ العاصي بينهما. وأشدُّ العقوبات: العقوبةُ بسلب الإيمان، ودونها: العقوبةُ بموت القلب، ومحوِ لذَّة الذكر والقراءة والدعاء والمناجاة منه، وربما دبت عقوبة القلب فيه دبيب الظلمة إلىٰ أن يمتلئ القلبُ بها، فَتَعمىٰ البصيرة، وأهونُ العقوبة: ما كان واقعاً بالبدن في الدنيا، وأهون منها: ما وقع بالمال، وربما كانت عقوبةُ النَّظر: في البصيرة، أو في البصر، أو فيهما.

قال الفضيل: ما يُؤْمنك أن تكون بارزت الله تعالىٰ بعمل مقَتَك عليه، فأغلق عنك أبواب المغفرة وأنت تضحك؟ وقال علقمة بن مرثد: بينا رجل يطوف بالبيت إذ بَرَقَ له ساعد امرأة فوضع ساعده علىٰ ساعدها فالتذَّ به فَلَصِقت ساعداهما، فأتىٰ بعضَ أولئك الشيوخ فقال: ارجع إلىٰ المكان الذي فعلت هذا فيه، فعاهد ربَّ البيت أن لا تعود، ففعل فخُلِّي عنه.

وقال ابن عباس، وأنس رضي الله عنهم: إن للحسنة نوراً في القلب، وزَيْناً في الوجه، وقوةً في البدن، وسعةً في الرزق، ومحبةً في قلوب الخلق. وإن للسيئة ظُلمةً في القلب. وشَيْناً في الوجه، ووهناً في البدن، ونقصاً في الرزق، وبغضةً في قلوب الخلق.

وقال الحسن: ما عصىٰ الله عبدٌ إلا أذلَّه الله. وقال المعتمر بن سليمان: إن الرجل ليصيب الذنب في السر، فيصبح وعليه مذلته. وقال الحسن: هانوا عليه فعصوه، ولو عزوا عليه لعصمهم. وكان شيخ من الأعراب يدور علىٰ المجالس ويقول: من سره أن تدوم له العافية فليتق الله.

وقال أبو سليمان الداراني : من صفا صفا له ، ومن كدر كدر عليه ، ومن أحسن في ليله كُفي في نهاره ، ومن أحسن في نهاره كُفي في ليله ، ومن ترك لله شهوةً من قلبه ، فالله أكرمُ أن يعذِّب بها قلبه .

وكتبت عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها إلىٰ معاوية : أما بعد : فإن العامل إذا عمل بمعصية الله ، عاد حامده من الناس ذاماً .

وقال محارب بن دثار : إن الرجل لَيُذْنبُ الذنب فيجد له في قلبه وهناً .

وقال الحسين بن مطير :

ونفسَك أَكْرِم عن أمورٍ كثيرة
فما لك نفس بعدها تستعيرها

ولا تقربِ الأمر[1] الحرامَ فإنما
حلاوتُه تفنى ويبقى مَريرُها

كان سفيان الثوري يتمثل بهذين البيتين :

تفنى اللذاذةُ ممن ذاق صفوتَها
من الحرامِ ويبقى الإثمُ والعار

تبقى عواقبَ سوءٍ في مَغَبَّتِها
لا خيرَ في لذةٍ من بعدها النار[2]

---

(١) ويروى : ولا تقرب المرعى الحرام إلخ .

(٢) تقدم البيتان في صفحة (٢٩٦) .

فصل

واعلم أن الجزاء من جنس العمل، والقلب معلق بالحرام كلما هم أن يفارقه ويخرج منه، عاد إليه، ولهذا يكون جزاؤه في البرزخ وفي الآخرة هكذا.

وفي بعض طرق حديث سمرة بن جندب الذي في صحيح البخاري: أن النبي ﷺ قال: «رأيتُ الليلةَ رجلين أَتَياني فأخرجَاني، فانطلقت معهما، فإذا بيتٌ مبنيٌّ على مثل بناء التنور، أعلاه ضيقٌ وأسفله واسع، يُوقَدُ تحته نارٌ، فيه رجالٌ ونساء عراة، فإذا أُوقِدت النارُ ارتفعوا حتى يكادوا أن يخرجوا، فإذا أُخمِدت رجعوا فيها، فقلت: من هؤلاء؟ قال: هم الزناة»(١).

فتأمل مطابقة هذا العذاب لحال قلوبهم في الدنيا، فإنهم كلما همُّوا بالتوبة والإقلاع والخروج من تنور الشهوة، إلى فضاء التوبة، أُركِسوا(٢) فيه، وعادوا بعد أن كادوا يخرجون.

ولما كان الكفار في سجن الكفر والشرك وضيقه، وكانوا كلما هموا بالخروج منه إلى فضاء الإيمان وسَعَته ورَوْحه، رجعوا على حوافرهم، كان عقوبتهم في الآخرة كذلك، قال الله تعالى: **﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا﴾**(٣). وقال في موضع آخر: **﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا﴾**(٤). فالكفر والمعاصي والفسوق كله غموم، وكلما عزم العبد أن

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أركسو فيه: ردوا إليه وأعيدوا إليه، قال تعالى ﴿كلما ردوا إلى الفتنة أركسوا فيها﴾ أي: عادوا إليها، وقلبوا فيها أقبح قلب.

(٣) الآية (٢٠) سورة السجدة.

(٤) الآية (٢٢) سورة الحج.

يخرج منه، أبت عليه نفسه وشيطانهُ ومألَفُه، فلا يزال في غم ذلك حتى يموت، فإن لم يخرج من غمٍّ ذلك في الدنيا، بقي في غمِّه في البرزخ وفي القيامة، وإن خرج من غمه وضيقه هاهنا خرج منه هناك، فما حَبَسَ العبدَ عن الله في هذه الدار، حَبَسَه عنه بعد الموت، وكان معذَّباً به هناك كما كان قلبه معذباً به في الدنيا.

فليس العشاق[1] والفَجَرة والظلمة في لذة في هذه الدار، وإنما هم يعذبون فيها وفي البرزخ وفي القيامة، ولكن سُكر الشهوة وموت القلب، حال بينهم وبين الشعور بالألم، فإذا حِيلَ بينهم وبين ما يشتهون، أُحْضِرت نفوسهم الألمَ الشديد، وصار يعمل فيها بعد الموت نظير ما يعمل الدود في لحومهم. فالآلام تأكل أرواحهم غير أنها لا تفنى، والدُّود يأكل جسومهم.

(١) كذا.. ولعلها الفساق، وهي بالصواب أشبه (الفقي).

الباب السابع والعشرون
فيمن ترك محبوبه حراماً، فبذل له حلالاً، أو أعاضه الله خيراً منه

عنوان هذا الباب وقاعدته: أن من ترك لله شيئاً عوَّضه الله خيراً منه، كما ترك يوسف الصديق عليه السلام امرأة العزيز لله، واختار السجن على الفاحشة، فعوَّضه الله أنْ مكَّنه في الأرض يتبوأ[١] منها حيث يشاء، وأتته المرأة صاغرة سائلة راغبةً في الوصل الحلال، فتزوجها، فلما دخل بها قال: هذا خير مما كنت تريدين[٢]. فتأمَّل كيف جزاه الله سبحانه وتعالى على ضيق السجن أن مكَّنه في الأرض ينزل منها حيث يشاء، وأذلَّ له العزيز وامرأته، وأَقَرَّت المرأة والنسوة ببراءته، وهذه سُنَّته تعالى في عباده قديماً وحديثاً إلى يوم القيامة.

ولما عَقَرَ سليمانُ بن داود عليهما السلام الخيلَ التي شغلته عن صلاة العصر حتى غابت الشمس، سخَّر الله له الريح يسير على مَتْنها[٣] حيث أراد.

ولما ترك المهاجرون ديارهم لله، وأوطانهم التي هي أحبُّ شيء إليهم، أعاضهم الله أن فتح عليهم الدنيا، وملَّكهم شرقَ الأرض وغربها.

ولو اتقى الله السارق، وتَرك سرقَة المالِ المعصوم لله، لآتاه الله مثله

(١) تبوأ منزلاً: نزله واتخذه سكناً. وبوأه منزلاً: هيَّأه ومكن له فيه.
(٢) ورد ذلك في بعض الأخبار الاسرائيلية، فالله أعلم بصحته.
(٣) المتن: الظَّهر.

حلالاً، قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ﴾[1]. فأخبر الله سبحانه وتعالىٰ أنه إذا اتقاه بترك أخذ ما لا يحل له، رزقه الله من حيث لا يحتسب.

وكذلك الزاني لو ترك ركوب ذلك الفرج حراماً لله، لأثابه الله بركوبه أو ركوب ما هو خير منه حلالاً[2].

قال ميمون بن مهران: الذِّكْر ذِكران: فذكرُ الله عز وجل باللسان حَسَن، وأفضل منه أن تَذْكر الله عز وجل عند ما تُشرف علىٰ معاصيه.

وقال عبيد بن عمير: صدقُ الإيمان وبرُّه: أن يخلوَ الرجل بالمرأة الحسناء فيدعها، لا يدعُها إلا لله عز وجل.

---

(١) الآيتان (٢ و٣) سورة الطلاق.

(٢) وهذا من سنن الله تعالى الكونية والشرعية، ويعبر عنه العلماء بقولهم: «من استعجل شيئاً قبل أوانه، عُوقب بحرمانه» وهذا عام في الدنيا والآخرة، والشرع والقدر.

فمن الأحكام الشرعية: من قتل مُورِّثه مُنع من الميراث، لقوله ﷺ: «ليس لقاتل ميراث» رواه ابن ماجة.

ومن الأحكام الآخروية: من شرب الخمر في الدنيا لم يشربها في الآخرة، ما لم يتب، وكما أن المتعجل للشيء قبل أوانه يعاقب بحرمانه، كذلك من ترك شيئاً لله عز وجل عوضه الله خيراً منه. وانظر «القواعد الفقهية» للسعدي بشرحنا، ط مكتبة الإمام الذهبي (ص٧٧ ـ ٨١).

الباب الثامن والعشرون

فيمن آثر عاجل العقوبة والآلام، على لذة الوصال الحرام

هذا بابٌ إنما يدخل منه رجلان: أحدُهما من تمكَّن من قلبه الإيمان بالآخرة، وما أعدَّ الله فيها من الثواب والعقاب لمن عصاه، فآثر أدنى الفَوْتين، واختار أسهل العقوبتين. والثاني: رجل غَلَب عقلُه على هواه، فعلم ما في الفاحشة من المفاسد، وما في العُدول عنها من المصالح، فآثر الأعلى على الأدنى.

وقد جَمَعَ الله سبحانه وتعالى ليوسف الصديق صلوات الله وسلامه عليه بين الأمرين، فاختار عقوبةَ الدنيا بالسجن على ارتكاب الحرام، فقالت المرأةُ: **﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ (٣٢) قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ (٣٣)﴾**(١). فاختار السجن على الفاحشة، ثم تبرَّأ إلى الله من حوله وقوته، وأخبر أن ذلك ليس إلا بمعونة الله له وتوفيقه، وتأييده، لا من نفسه، فقال: **﴿وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾**.

فلا يركن العبد إلى نفسه وصبره وحاله وعفته، ومتى ركن إلى ذلك تخلت عنه عصمة الله، وأحاط به الخذلان. وقد قال الله تعالى لأكرم الخلق عليه وأحبهم إليه: **﴿وَلَوْلا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً (٧٤)﴾**(٢).

---

(١) الآيتان (٣٢ و٣٣) سورة يوسف .

(٢) الآية (٧٤) سورة الإسراء .

ولهذا كان من دعائه: «يا مُقَلِّبُ القلوب، ثَبِّتْ قلبي علىٰ دِينك»[1].

وكانت أكثر يمينه: «لا ومُقَلِّبِ القلوب»[2].

كيف وهو الذي أنزل عليه: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾[3] وقد جرت سنة الله تعالىٰ في خلقه، أنَّ من آثر الألم العاجل علىٰ الوصال الحرام، أَعْقَبه ذلك في الدنيا المسرة التامة، وإن هلك فالفوز العظيم، والله تعالىٰ لا يُضيع ما تحمَّل عبده لأجله.

وكل من خرج عن شيء منه لله، حفظه الله عليه، أو أعاضه الله ما هو أجلُّ منه، ولهذا لما خرج الشهداء عن نفوسهم لله، جعلهم الله أحياء عنده يرزقون، وعوضهم عن أبدانهم التي بذلوها له أبدانَ طيرٍ خُضْر، جعل أرواحهم فيها تَسْرح في الجنة حيث شاءت. وتأوي إلىٰ قناديل معلقة بالعرش[4]، ولما تركوا مساكنهم له عوَّضهم مساكنَ طيبة في جنات عدن، ذلك الفوز العظيم.

وقال وهب بن منبه: كان عابد من عباد بني إسرائيل يتعبد في صومعة، فجاء رجلٌ من بني إسرائيل إلىٰ امرأة بغي فبذل لها مالاً وقال: لعلك أن

(١) حديث صحيح رواه الترمذي في جامعه (٢١٤٠) وأحمد (٣/ ١١٢، ٢٥٧) وغيرهما من حديث أنس رضي الله عنه، وإسناده حسن، وله طرق أخرى يصح بها، انظر تعليقنا على إبطال التأويلات (٢/ ٣١١).

(٢) رواه البخاري في القدر (١١/ ٥١٣، ٥٢٣) وفي التوحيد (١٣/ ٣٧٧) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٣) الآية (٢٤) سورة الأنفال.

(٤) روى ذلك مسلم في الإمارة (٣/ ١٥٠٢) عن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً.

تفتنيه، فجاءته في ليلة مطيرة فنادته فأشرف عليها، فقالت: آوني إليك، فتركها وأقبل على صلاته، فقالت: يا عبدالله آوني إليك، أما ترى الظلمة والمطر؟ فلم تزل به حتى آواها، فاضطجعت قريباً منه، فجعلت تريه محاسنها حتى دعته نفسُه إليها، فقال: لا والله حتى أنظر كيف صبرك على النار، فتقدم إلى المصباح فوضع إصبعاً من أصابعه حتى احترقت، ثم عاد إلى صلاته فدعته نفسه إليها، فعاود المصباح فوضع إصبعه الأخرى حتى احترقت، فلم يزل تدعوه نفسه وهو يعود إلى المصباح، حتى احترقت أصابعه جميعاً وهي تنظر، فَصعِقَت وماتت.

فصل

وهذا ليس بعجيب من الرجال، ولكنه من النساء أعجب.

قال أبو إدريس الأودي: كان رجلان في بني إسرائيل عابدان، وكانت جارية جميلة فأحباها وكتم كلٌّ منهما صاحبه، واختبأ كل منهما خلف شجرة ينظر إليها، فبَصُرَ[1] كل منهما سرّه إلى صاحبه، فاتفقا على أن يراوداها، فلما قربت منهما قالا لها: قد عرفت منزلتنا في بني إسرائيل، وإنك إن لم تؤاتينا، وإلا قلنا إذا أصبحنا: إنا أصبنا معك رجلاً، وإنه أفلتنا، وإنا أخذناك، فقالت: ما كنت لأطيعكما في معصية الله، فأخذاها وقالا: إنا أصبنا معها رجلاً فأفلتنا، وأقبل نبي من أنبيائهم فوضعوا له كرسياً فجلس عليه، وقال: أقضي بينكم؟ فقالا: نعم اقض بيننا، ففرق بين الرجلين وقال لأحدهما: خلفَ أي شجرة رأيتها؟ قال: شجرة كذا وكذا، وقال للآخر،

(١) أطلعه عليه: أظهره عليه

فقال: شجرة كذا وكذا، غير التي ذكر صاحبه، ونزلت نار من السماء فأحرقتهما، وأفلتت المرأة.

وكانت بعض النساء المتعبدات وقعت في نفس رجلٍ موسر، وكانت جميلة وكانت تخطب فتأبىٰ، فبلغ الرجل أنها تريد الحج، فاشترىٰ ثلاثمائة بعير ونادىٰ: من أراد الحج فليَكْترِ من فلان، فاكترتْ منه المرأة، فلما كان في بعض الطريق جاءها فقال: إما أن تزوجيني نفسك، وإما غير ذلك، فقالت: ويحك اتق الله! فقال: ما هو إلا ما تسمعين، والله ما أنا بجَمَّال ولا خرجت إلا من أجلك، فلما خافت علىٰ نفسها قالت: ويحك انظر أبقىٰ في الرجال عينٌ لم تَنَم؟ فقال: لا، ناموا كلهم، قالت: أفنامت عين رب العالمين؟ ثم شهقت شهقةً خرت ميتة، وخر الرجل مغشياً عليه، فلما أفاق قال: ويحي قتلت نفساً ولم أبلغ شهوتي.

الباب التاسع والعشرون
في ذمِّ الهوى، وما في مخالفته من نيل المُنَى

وقد تقدم ذكر الآيات في ذلك وبعض ما ورد في السنة.

الهوىٰ: ميل الطبع إلىٰ ما يُلائمه، وهذا الميلُ خُلِق في الإنسان لضرورة بقائه، فإنه لولا ميله إلىٰ المطعم والمشرب والمَنْكَح، ما أكل ولا شرب ولا نكح، فالهوىٰ مستحثٌ لها لما يريده، كما أن الغضب دافعٌ عنه ما يؤذيه، فلا ينبغي ذم الهوىٰ مطلقاً، ولا مدحه مطلقاً، كما أن الغضب لا يَذمُّ مطلقاً ولا يُحْمَد مطلقاً، وإنما يذمُّ المفرط من النوعين، وهو ما زاد علىٰ جلب المنافع ودفع المضار، ولما كان الغالب من مطيع هواه وشهوته وغضبه، أنه لا يقف فيه علىٰ حد المنتفع به، أطلق ذم الهوىٰ والشهوة والغضب لعموم غلبة الضرر، لأنه يَنْدُر من يقصد العدل في ذلك ويقف عنده، كما أنه يندر في الأمزجة المزاج المعتدل من كلِّ وجه، بل لابد من غلبة أحد الأخلاط[1] والكيفيات عليه، فحرْصُ الناصح علىٰ تعديل قوىٰ الشهوة والغضب من كل وجه، وهذا أمرٌ يتعذَّر وجوده إلا في حق أفرادٍ من العالم، فلذلك لم يذكر الله تعالىٰ الهوىٰ في كتابه إلا ذمَّه، وكذلك في السنة لم يجيء إلا مذموماً، إلا ما جاء منه مقيداً كقوله ﷺ: «لا يُؤْمن أحدُكم حتىٰ يكون هواه تبعاً لما جئتُ به»[2].

وقد قيل: الهوىٰ كَمِينٌ لا يؤمن. قال الشعبي: وسُمِّي هوىٰ لأنه يهوي بصاحبه. ومطلقه يدعو إلىٰ اللذة الحاضرة من غير فكر في العاقبة، ويحث

---

(١) أخلاط الإنسان: أمزجته الأربعة، وهي: الرطوبة واليبوسة، والحرارة والبرودة.

(٢) الحديث لم يصح إسناده، ففيه نعيم بن حماد الخزاعي ضعيف، رواه ابن أبي عاصم في السنة (١٥) وغيره.

علىٰ نيل الشهوات عاجلاً، وإن كانت سبباً لأعظم الآلام عاجلاً وآجلاً، فللدنيا عاقبة قبل عاقبة الآخرة، والهوىٰ يُعمي صاحبه من ملاحظتها، والمروءةُ والدِّين والعقل ينهىٰ عن لذة تُعقِب ألماً، وشهوة تُورث نَدَماً، فكل منها يقول للنفس إذا أرادت ذلك: لا تفعلي، والطاعة لمن غلب، ألا ترىٰ أن الطفل يؤثر ما يهوىٰ وإن أداه إلىٰ التلف، لضعف ناهي العقل عنده، ومن لا دين له يؤثر ما يهواه وإن أَدَّاه إلىٰ هلاكه في الآخرة، لضعف ناهي الدين، ومن لا مروءة له يؤثر ما يهواه وإن ثَلَم[1] مُروءته أو عدمها، لضعف ناهي المروءة، فأين هذا من قول الشافعي رحمه الله تعالىٰ: لو علمت أن الماء البارد يَثْلِم مُروءتي لما شربته.

ولما امتحن المكلف بالهوىٰ من بين سائر البهائم، وكان كل وقت تحدث عليه حوادث جعل فيه حاكمان: العقل وحاكم الدين، وأمر أن يرفع حوادث الهوىٰ دائماً إلىٰ هذين الحاكمين، وأن ينقاد لحكمهما، وينبغي أن يتمرن علىٰ دفع الهوىٰ المأمون العواقب، ليتمرن بذلك علىٰ ترك ما تؤذىٰ عواقبه.

وليعلم اللبيب أن مُدْمني الشهوات يصيرون إلىٰ حالة لا يلتذُّون بها، وهم مع ذلك لا يستطيعون تركها، لأنها قد صارت عندهم بمنزلة العيش الذي لابدَّ لهم منه، ولهذا ترىٰ مدمن الخمر والجماع، لا يلتذ به عُشرَ معشار التذاذ من يفعله نادراً في الأحيان، غير أن العادة مقتضيةٌ ذلك، فيُلْقي نفسه في المهالك، لنيل ما تطالبه به العادة، ولو زال عنه رَيْن[2] الهوىٰ، لعلم أنه قد

(١) ثلم الجدار وغيره: أحدث فيه شقاً.

(٢) الرين: الغطاء والحجاب الكثيف، والصدأ يعلو الشيء الجلي، والدنس وما غطي على القلب من القسوة للذنب بعد الذنب، كما في قوله ﴿كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون﴾ (المطففين: ١٤).

شقي من حيث قدَّر السعادة، واغتمَّ من حيث ظن الفرح، وأَلِم من حيث أراد اللذة. فهو كالطائر المخدوع بحبة القمح، لا هو نال الحبة، ولا هو تخلص مما وقع فيه.

فإن قيل: فكيف يتخلَّص من هذا من قد وقع فيه؟

قيل: يمكنه التخلُّص بعون الله وتوفيقه له بأمور:

(أحدها): عزيمةُ حرٍّ يغار لنفسه وعليها.

(الثاني): جرعة صبر يصبر نفسه على مرارتها تلك الساعة.

(الثالث): قوةُ نفسٍ تشجعه على شرب تلك الجرعة، والشجاعةُ كلها صبر ساعة، وخير عيشٍ أدركه العبد بصبره.

(الرابع): ملاحظته حسنَ موقع العاقبة والشفاء بتلك الجرعة.

(الخامس): ملاحظته الألم الزائد على لذة طاعة هواه.

(السادس): إبقاؤهُ على منزلته عند الله تعالى وفي قلوب عباده، وهو خيرٌ وأنفع له من لذَّة موافقة الهوى.

(السابع): إيثاره لذَّة العفة، وعزَّتها وحلاوتها، على لذَّة المعصية.

(الثامن): فرحه بغلبة عدوه وقهره له، ورده خاسئاً بغيظه، وغمِّه وهمِّه، حيث لم ينل منه أُمنيتَه، والله تعالى يحب من عبده أن يُراغم[1] عدوه ويغيظه، كما قال الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿**وَلا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ**﴾[2]. وقال: ﴿**لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ**﴾[3]. وقال تعالى: ﴿**وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا**

---

(١) راغم فلانا: هجره وعاداه.

(٢) الآية (١٢٠) سورة التوبة.

(٣) الآية الأخيرة من سورة الفتح.

وَسَعَةً﴾(١) أي: مكاناً يراغم فيه أعداء الله. وعلامة المحبة الصادقة مغايظة أعداء المحبوب ومراغمتهم.

(التاسع): التفكر في أنه لم يُخْلق للهوىٰ، وإنما هُيِّء لأمرٍ عظيم، لا يناله إلا بمعصيته للهوىٰ، كما قيل:

قد هَيَّأُوك لأمرٍ لو فَطِنت له

فاربأْ بنفسك أن تَرْعى مع الهَمَل(٢)

(العاشر): أن لا يختار لنفسه أن يكون الحيوانُ البهيمُ أحسن حالاً منه، فإن الحيوان يميِّز بطبعه بين مواقع ما يضره وما ينفعه، فيُؤثر النافع علىٰ الضار، والإنسان أُعطي العقل لهذا المعنىٰ، فإذا لم يميز به بين ما يضره وما ينفعه، أو عَرَف ذلك وآثر ما يضره، كان حال الحيوان البهيم أحسن منه، ويدلُّ علىٰ ذلك: أن البهيمة تصيبُ من لذة المطعم والمَشْرَب والمنكح، ما لا يناله الإنسان مع عيش هنيء خال عن الفكر والهم، ولهذا تساق إلىٰ مَنْحَرِها(٣) وهي منهمكةٌ علىٰ شهواتها لفقدان العلم بالعواقب، والآدمي لا يناله ما يناله الحيوان لقوة الفكر الشاغل، وضعف الآلة المستعملة وغير ذلك، فلو كان نيل المشتهي فضيلةً لما بُخس منه حقُّ الآدمي الذي هو خلاصة العالم، ووفر منه حظُّ البهائم، وفي توفير حظ الآمي من العقل والعلم والمعرفة عِوَضٌ عن ذلك.

---

(١) الآية (١٠٠) سورة النساء. والمراغم: الملجأ والمهرب والحصن.

(٢) في لامية العجم للطغرائي: قد رشَّحوك. الهمل: المتروك بلا عناية ولا رعاية.

(٣) المنحر: المكان تذبح فيه الذبائح، والجمع مناحر.

(الحادي عشر): أن يسير بقلبه في عواقب الهوىٰ، فيتأمَّل كم أفاتت معصيتُه[1] من فضيلة، وكم أوقعتْ في رذيلة، وكم أكلة منعت أكلات، وكم من لذةٍ فَوَّتت لذات، وكم من شهوةٍ كسرت جاهاً، ونكست رأساً، وقبَّحت ذكراً، وأورثت ذمّاً، وأعقبت ذلاً، وألزمت عاراً لا يغسله الماء، غير أن عين صاحب الهوىٰ عمياء.

(الثاني عشر): أن يتصوَّر العاقل انقضاء غرضه ممن يهواه، ثم يتصور حالَه بعد قضاء الوطر[2] وما فاته وما حصل له.

فأفضلُ الناسِ من لم يَرتكب سَبَباً
حتى يميزَ لما تجني عواقبه

(الثالث عشر): أن يتصوَّر ذلك في حقِّ غيره حق التصور، ثم ينزل نفسه تلك المنزلة، فحكم الشيء حكم نظيره.

(الرابع عشر): أن يتفكر فيما تطالبه به نفسه من ذلك، ويسأل عنه عقله ودينه يُخبرانه بأنه ليس بشيء. قال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: إذا أعجب أحدَكم امرأةٌ فليذكر مَنَاتِنَها، وهذا أحسن من قول أحمد بن الحسين:

لو فكَّر العاشقُ في منتهى
حُسنِ الذي يَسبيه[3] لم يسبه

---

(١) ولعل الصواب: كم أفاتت طاعته من فضيلة، لأن الظاهر أن الضمير عائد على الهوى إلخ. (الفقي). قلت: وإذا كانت الجملة مستأنفة فهي صحيحة أيضاً.

(٢) الوطر: الحاجة، أو حاجة لك فيها هم وعناية، والجمع أوطار.

(٣) يسبيه: يأسره.

لأن ابن مسعود رضي الله عنه ذَكَر الحالَ الحاضرة الملازمة، والشاعر أحال على أمر متأخر.

(الخامس عشر): أن يأنف لنفسه من ذلِّ طاعة الهوىٰ، فإنه ما أطاع أحدٌ هواه قط إلا وجد في نفسه ذُلاً، ولا يغتر بصولة[1] أتباع الهوىٰ وكِبْرهم، فهم أذل الناس بواطن، قد جمعوا بين فصيلتي الكبر والذل.

(السادس عشر): أن يوازن بين سلامة الدِّين والعِرض والمال والجاه، ونيل اللذة المطلوبة، فإنه لا يجد بينهما نسبة البتَّة، فليعلم أنه من أَسْفِه الناس ببيعه هذا بهذا.

(السابع عشر): أن يأنفَ لنفسه أن يكون تحت قهرِ عدوه، فإن الشيطان إذا رأىٰ من العبد ضعفَ عزيمةٍ وهمة، وميلاً إلىٰ هواه، طمع فيه وصرعه، وألجمه بلجام الهوىٰ وساقه حيث أراد، ومتىٰ أحسَّ منه بقوة عزم، وشرف نفس، وعلو همة، لم يطمع فيه إلا اختلاساً وسرقة.

(الثامن عشر): أن يعلمَ أن الهوىٰ ما خالطَ شيئاً إلا أفسده، فإنْ وقعَ في العلم: أخرجه إلىٰ البدعة والضلالة، وصار صاحبه من جملة أهل الأهواء، وإن وقع في الزهد: أخرج صاحبه إلىٰ الرياء ومخالفة السُّنَّة، وإنْ وقع في الحكم: أخرج صاحبه إلىٰ الظُّلم وصدَّه عن الحق، وإن وقع في القِسْمة: خرجت عن قسمة العدل إلىٰ قسمة الجَور، وإن وقع في الولاية والعزل: أخرج صاحبه إلىٰ خيانة الله والمسلمين، حيث يُوَلِّي بهواه ويعزل بهواه، وإن وقع في العبادة: خَرَجَتْ عن أن تكون طاعة وقُربة، فما قارن شيئاً إلا أفسده.

(١) الصولة: السطوة أو القدرة.

(التاسع عشر): أن يعلم أن الشيطان ليس له مدخلٌ على ابن آدم إلا من باب هواه، فإنه يُطِيفُ به من أين يدخل عليه، حتى يفسدَ عليه قلبه وأعماله، فلا يجد مدخلاً إلا من باب الهوى، فيسري معه سَرَيان السم في الأعضاء.

(العشرون): أن الله سبحانه وتعالى جعل الهوى مضاداً لما أنزله على رسوله، وجعل اتباعه مقابلاً لمتابعة رسله، وقسم الناس إلى قسمين: أتباع الوحي، وأتباعِ الهوى، وهذا كثيرٌ في القرآن كقوله تعالى: ﴿**فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ**﴾(١).

وقوله تعالى: ﴿**وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ**﴾(٢) ونظائره.

(الحادي والعشرون): أن الله سبحانه وتعالى شبَّه أتباع الهوى بأخسِّ الحيوانات صورةً ومعنى، فشبههم بالكلب تارة كقوله تعالى: ﴿**لَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث**﴾(٣). وبالحُمُر تارةً، كقوله تعالى: ﴿**كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ (٥٠) فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ (٥١)**﴾(٤). وقَلَب صُوَرَهم إلى صورة القردة والخنازير تارة.

(الثاني والعشرون): أن متَّبع الهوى ليس أهلاً أن يُطاع، ولا يكون إماماً ولا متبوعاً، فإن الله سبحانه وتعالى عَزَله عن الإمامة، ونهى عن طاعته، أما

---

(١) الآية (٥٠) سورة القصص.

(٢) الآية (١٢٠) سورة البقرة.

(٣) الآية (١٧٦) سورة الأعراف.

(٤) الآيتان (٥٠ و٥١) سورة المدثر. والحمر المستنفرة: الوحشية، والقسورة: الأسد، وقيل: الصياد.

عزله فإن الله سبحاه وتعالىٰ قال لخليله إبراهيم: ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ (١٢٤)﴾[١] أي: لا ينال عهدي بالإمامة ظالماً، وكل من اتبع هواه فهو ظالم، كما قال الله تعالىٰ: ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾[٢]. وأما النَّهيُّ عن طاعته، فلقوله تعالىٰ: ﴿وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا (٢٨)﴾[٣].

(الثالث والعشرون): أن الله سبحانه وتعالىٰ جعلَ متَّبع الهوىٰ بمنزلة عابد الوثن، فقال تعالىٰ: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾[٤] في موضعين من كتابه، قال الحسن: هو المنافقُ لا يهوىٰ شيئاً إلا ركبه، وقال أيضاً: المنافق عبد هواه لايهوىٰ شيئاً إلا فعله.

(الرابع والعشرون): أن الهوىٰ هو حِظارُ[٥] جهنم المحيطُ بها حولها، فمن وقع فيه وقع فيها، كما في الصحيحين: عن النبي ﷺ أنه قال: «حُفَّت الجنةُ بالمكاره، وحُفَّت النار بالشَّهوات».

وفي الترمذي: من حديث أبي هريرة رضي الله عنه يرفعه: «لما خَلَق الله الجنة أرسل إليها جبريل فقال: انظر إليها وإلىٰ ما أَعددتُ لأهلها فيها، فجاء فنظر إليها وإلىٰ ما أعدَّ اللهُ لأهلها فيها، فرجع إليه وقال: وعزَّتِك لا يسمع بها أحدٌ من عبادك إلا دخلها، فأَمَر بها فَحُجبت بالمكاره، وقال: ارجع إليها فانظر إليها، فرجع فإذا هي قد حُجبت بالمكاره، فقال: وعزتك لقد خشيت

(١) الآية (١٢٤) سورة البقرة.

(٢) الآية (٢٩) سورة الروم.

(٣) الآية (٢٨) سورة الكهف. وفرطاً: إسرافاً.

(٤) الآية (٤٣) سورة الفرقان.

(٥) الحظار: كل شيء حجز بين شيئين كحائط البستان. وحظار الأرض: المحاط بها.

أن لا يدخلها أحد، قال: اذهب إلى النار فانظر إليها وإلى ما أعددتُ لأهلها فيها، فجاء فنظر إليها وإلى ما أعدَّ الله لأهلها فيها، فإذا هي يَرْكَبُ بعضُها بعضاً، فقال: وعزتك لا يَسمعُ بها أحدٌ فيدخلها، فأمر بها فحُفَّت بالشهوات، فقال: ارجع فانظر إليها، فرجع إليها فإذا هي قد حُفَّت بالشهوات، فرجع إليه فقال: وعزَّتِك لقد خَشيتُ أن لا ينجو منها أحد».

قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

(الخامس والعشرون): أنه يُخاف على من اتَّبع الهوى، أن ينسلخ من الإيمان وهو لا يشعر، وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: «أَخْوَفُ ما أخافُ عليكم شهوات الغَيِّ، في بُطُونكم وفُروجكم، ومضلاَّت الهوى»(١).

(السادس والعشرون): أن اتِّباع الهوى من المهلكات. قال ﷺ: «ثلاثٌ مُنْجيات وثلاثٌ مُهلكات: فأما المنجيات: فتقوى الله عز وجل في السِّر والعلانية، والقولُ بالحق في الرِّضا والسَّخَط، والقَصْدُ في الغنى والفقر. وأما المهلكات: فهوىً متَّبع، وشُحٌّ مُطاع، وإعجاب المرء بنفسه»(٢).

(السابع والعشرون): أن مخالفة الهوى تُورث العبد قوةً في بدنه وقلبه ولسانه، قال بعض السلف: الغالب لهواه أشد من الذي يفتح المدينة وحده. وفي الحديث الصحيح المرفوع «ليس الشديدُ بالصُّرَعَة، ولكن الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب»(٣).

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم هذا الحديث.

(٣) رواه البخاري في الأدب (١٠/ ٥١٨) ومسلم في البر والصلة (٤/ ٢٠١٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وكلما تمرّن على مخالفة هواه، اكتسب قوة إلى قوته.

(الثامن والعشرون): أن أغزر الناس مُروءةً أشدهم مخالفة لهواه.

قال معاوية: المروءة: ترك الشهوات وعصيان الهوى، فاتباع الهوى يُزْمن[1] المروءة، ومخالفته تُنعشها.

(التاسع والعشرون): أنه ما من يوم إلا والهوى والعقل يعتلجان[2] في صاحبه، فأيها قوي على صاحبه، طرده وتحكم، وكان الحكم له.

قال أبو الدرداء: إذا أصبح الرجل اجتمع هواه وعمله، فإن كان عمله تبعاً لهواه، فيومُه يوم سوء، وإن كان هواه تبعاً لعمله، فيومه يومٌ صالح.

(الثلاثون): أن الله سبحانه وتعالى جعل الخطأ واتباع الهوى قرينين، وجعل الصواب ومخالفة الهوى قرينين، كما قال بعض السلف: إذا أَشكلَ عليك أمران لا تدري أيها أرشد، فخالف أقربهما من هواك، فإن أقرب ما يكون الخطأ في متابعة الهوى.

(الحادي والثلاثون): أن الهوى داءٌ ودواؤه مخالفته، قال بعض العارفين: إن شئت أخبرتك بدائك، وإن شئت أخبرتك بدوائك، داؤك هواك، ودواؤك ترك هواك ومخالفته.

وقال بِشْر الحافي رحمه الله تعالى: البلاء كلُّه في هواك، والشفاءُ كله في مخالفتك إياه.

---

(١) يزمن: يذهب ويضعف.

(٢) يعتلجان: يصطرعان.

(الثاني والثلاثون): أن جهاد الهوىٰ إن لم يكن أعظمَ من جهاد الكفار فليس بدونه، قال رجل للحسن البصري رحمه الله تعالىٰ: يا أبا سعيد، أي الجهاد أفضل؟ قال: جهادُك هواك.

وسمعت شيخنا[1] يقول: جهادُ النفس والهوىٰ أصلُ جهاد الكفار والمنافقين، فإنه لا يقدر علىٰ جهادهم حتىٰ يُجاهد نفسه وهواه أولاً، حتىٰ يخرج إليهم.

(الثالث والثلاثون): أن الهوىٰ تخليطٌ[2] ومخالفته حِمْيةٌ[3]، ويخاف علىٰ من أفرط في التخليط وجانب الحمية أن يصرعَه داؤه. قال عبدالملك بن قريب: مررت بأعرابي به رمد شديد، ودموعه تسيل علىٰ خديه، فقلت: ألا تمسح عينيك؟ قال: نهاني الطبيب عن ذلك، ولا خير فيمن إذا زُجر لا ينزجر، وإذا أُمر لا يأتمر، فقلت: ألا تشتهي شيئاً؟ فقال: بل ولكني أَحتمي، إن أهل النار غَلبتْ شهوتُهم حميتَهم فهلكوا.

(الرابع والثلاثون): أن اتِّباع الهوىٰ يُغلق عن العبد أبواب التوفيق، ويفتح عليه أبواب الخذلان، فتراه يَلْهج[4] بأن الله لو وفَّق لكان كذا وكذا، وقد سدَّ علىٰ نفسه طرق التوفيق باتباعه هواه. قال الفُضَيل ابن عياض: من استحوذ عليه الهوىٰ واتباع الشهوات، انقطعت عنه موارد التوفيق.

وقال بعض العلماء: الكفر في أربعة أشياء: في الغضب، والشهوة

(١) هو شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله.

(٢) التخليط: التخبط والاضطراب.

(٣) الحمية: الامتناع مما يضر، والوقاية منه.

(٤) اللهج بالشيء: الولوع به، وقد لهج به إذا أغرى به فثابر عليه.

والرغبة، والرهبة، ثم قال: رأيت منهن اثنتين: رجلاً غضب فقتل أمه، ورجلاً عشق فتنصر. وكان بعض السلف يطوف بالبيت فنظر إلىٰ امرأة جميلة فمشىٰ إلىٰ جانبها، ثم قال:

أَهوى هَوىَ الدِّين واللذَّات تُعجبني

فكيف لي بهوى اللذَّات والدِّينِ

فقالت: دَعْ أحدَهما تَنَلْ الآخر.

(الخامس والثلاثون): أن مَنْ نَصَر هواه فَسَدَ عليه عقله ورأيه، لأنه قد خان الله في عقله فأفسده عليه، وهذا شأنُه سبحانه وتعالىٰ في كل من خانه في أمر من الأمور، فإنه يفسده عليه.

وقال المعتصم يوماً لبعض أصحابه: يا فلان إذا نُصر الهوىٰ ذَهَب الرأي. وسمعت رجلاً يقول لشيخنا: إذا خان الرجل في نقد الدراهم، سلبه الله معرفة النقد - أو قال نسيه - فقال الشيخ: هكذا من خان الله تعالىٰ ورسوله في مسائل العلم.

(السادس والثلاثون): أن مَنْ فَسَحَ لنفسه في اتباع الهوىٰ ضَيَّق عليها في قبره ويوم معاده، ومَن ضيَّق عليها بمخالفة الهوىٰ، وسَّع عليها في قبره ومعاده، وقد أشار الله تعالىٰ إلىٰ هذا في قوله تعالىٰ: ﴿**وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا** (١٢)﴾(١).

فلما كان في الصبرِ الذي هو حبس النفس عن الهوىٰ خُشونةٌ وتضييقٌ،

(١) الآية (١٢) سورة الدهر.

جازاهم على ذلك نعومةَ الحرير، وسَعَة الجنة. وقال أبو سليمان الداراني رحمه الله تعالى في هذه الآية: جزاهم بما صبروا عن الشهوات.

(السابع والثلاثون): أن اتباع الهوى يَصرع العبدَ عن النهوض يوم القيامة، وعن السعي مع الناجين، كما صرع قلبَه في الدنيا عن موافقتهم.

قال محمد بن أبي الورد: إن لله عز وجل يوماً، لا ينجو من شره منقاد لهواه، وإنَّ أبطأ الصَّرعى نهضة يوم القيامة: صريعُ شهوته، وإن العقول لما جرت في ميادين الطلب، كان أوفرُها حظاً من يطالبها بقدر ما صحبه من الصبر. والعقلُ مَعْدِن، والفكر مُعَوَّل.

(الثامن والثلاثون): أن اتباع الهوى يَحُلُّ العزائم ويوهنها، ومخالفته تشدُّها وتقويها. والعزائم هي مركبُ العبد الذي يسيره إلى الله والدار الآخرة، فمتى تعطل المركوبُ أوشك أن ينقطع المسافر. قيل ليحيى بن معاذ: من أصح الناس عزماً؟ قال: الغالب لهواه.

(التاسع والثلاثون): أن مثلَ راكب الهوى: كمثل راكب فرسٍ حديد، صعبٍ جموح لا لجام له، فيوشك أن يصرعَه فرسُه في خلال جَرْيه به، أو يسيرَ به إلى مَهْلِك.

قال بعض العارفين: أسرعُ المطايا إلى الجنة الزهدُ في الدنيا، وأسرع المطايا إلى النار حبُّ الشهوات، ومن استوى على مَتْن هواه أسرع به إلى وادي الهَلَكات. وقال آخر: أشرفُ العلماء من هرب بدينه من الدنيا، واستصعب قياده على الهوى. وقال عطاء: من غلب هواه عقلَه، وجزعُه صبره، افتضح.

(الأربعون): أن التوحيد واتباع الهوىٰ متضادان، فإن الهوىٰ صنم، ولكل عبدٍ صنمٌ في قلبه بحسب هواه. وإنما بعث اللهُ رسلَه بكسر الأصنام، وعبادته وحده لا شريك له، وليس مرادُ الله سبحانه كسرَ الأصنام المجسَّدة، وترك الأصنام التي في القلب، بل المراد كسرها من القلب أولاً.

قال الحسن بن علي المطوعي: صنمُ كلِّ إنسانٍ هواه، فمن كسره بالمخالفة استحق اسم الفتوة.

وتأمل قول الخليل ﷺ لقومه: **﴿مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (٥٢)﴾**[١] كيف تجده مطابقاً للتماثيل التي يهواها القلب ويعكف عليها، ويعبدها من دون الله، قال الله تعالىٰ: **﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً (٤٣) أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً (٤٤)﴾**[٢].

(الحادي والأربعون): أن مخالفة الهوىٰ مطْرَدةٌ للداء عن القلب والبدن، ومتابعتَه مَجْلبةٌ لداء القلب والبدن، فأمراضُ القلب كلها من متابعة الهوىٰ، ولو فتَّشتَ علىٰ أمراض البدن، لرأيتَ غالبها من إيثار الهوىٰ علىٰ ما ينبغي تركه.

(الثاني والأربعون): أن أصلَ العداوةِ والشر والحسد الواقع بين الناس، من اتباع الهوىٰ، فمن خالف هواه أَراح قلبه وبدنه وجوارحه فاستراح وأراح.

قال أبو بكر الوراق: إذا غلب الهوىٰ أظلم القلب، وإذا أظلم ضاق

---

(١) الآية (٥٢) سورة الأنبياء.

(٢) الآيتان (٤٣ و٤٤) سورة الفرقان.

الصدر، وإذا ضاق الصدر ساءَ الخُلق، وإذا ساء الخلقُ أبغضه الخلق وأبغضهم، فانظر ماذا يتولد من التباغض من الشر والعداوة وترك الحقوق وغيرها.

(الثالث والأربعون): أن الله سبحانه وتعالىٰ جعل في العبد هوىً وعقلاً، فأيهما ظَهَر تواري الآخر، كما قال أبو علي الثقفي: من غَلَبه هواه توارىٰ عنه عقلُه، فانظر عاقبة من استتر عنه عقلُه وظهر عليه خلافه. وقال علي بن سهل رحمه الله: العقل والهوىٰ يتنازعان، فالتوفيقُ قرينُ العقل، والخذلان قرينُ الهوىٰ، والنفس واقفةٌ بينهما، فأيهما غَلَب كانت النفس معه.

(الرابع والأربعون): أن الله سبحانه وتعالىٰ جعل القلب ملك الجوارح، ومعدن معرفته ومحبته وعبوديته، وامتحنه بسلطانين وجيشين وعونين وعُدَّتين، فالحقُّ والزهدُ والهدىٰ سلطانٌ، وأعوانُه الملائكة، وجيشُه الصدق والإخلاص، ومجانبة الهوىٰ، والباطل سلطانٌ، وأعوانُه الشياطين، وجنده وعدته اتباع الهوىٰ، والنفس واقفةٌ بين الجيشين. ولا يقدم جيش الباطل علىٰ القلب إلا من ثغرتها وناحيتها، فهي تُخامر علىٰ القلب وتصير مع عدوِّه عليه، فتكون الدائرة عليه، فهي التي تعطي عدوها عُدَّةً من قِبَلها، وتفتح له باب المدينة فيدخل ويتملك ويقع الخذلان علىٰ القلب.

(الخامس والأربعون): أن أعدىٰ عدوٍ للمرء: شيطانُه وهواه، وأصدق صديق له: عقلُه والمَلَك الناصح له، فإذا اتبع هواه أعطىٰ بيده لعدوه، واستأسر له وأشمته به، وساء صديقه ووليَّه، وهذا هو بعينه هو جَهْدُ البلاء، ودَرْك الشقاء، وسوء القضاء، وشماتة الأعداء.

(السادس والأربعون) أن لكل عبدٍ بدايةً ونهايةً، فمن كانت بدايته اتباع الهوىٰ، كانت نهايته الذلَّ والصغار، والحرمان والبلاء المتبوع بحسب ما اتبع من هواه، بل يصير له ذلك في نهايته عذاباً يُعَذَّب به في قلبه، كما قال القائل:

مـآربُ كـانت في الشـبـابِ لأهلهـا
عِـذاباً فـصـارتْ في المشـيب عَـذَاباً

فلو تأملت حال كل ذي حال سيئة رَزِيَّة، لرأيت بدايتَه الذهابَ مع هواه وإيثاره علىٰ عقله، ومن كانت بدايتهُ مخالفة هواه، وطاعةَ داعي رشده، كانت نهايته العز والشرف والغنىٰ والجاه عند الله وعند الناس. قال أبو علي الدقاق: من مَلَك شهوته في حال شبيبته، أعزَّه الله تعالىٰ في حال كهولته.

وقيل للمهلَّب بن أبي صُفْرة: بمَ نلتَ ما نلت؟ قال: بطاعة الحزم، وعصيان الهوىٰ. فهذا في بداية الدنيا ونهايتها، وأما الآخرة فقد جعل الله سبحانه الجنةَ نهاية من خالف هواه، والنارَ نهاية من اتبع هواه.

(السابع والأربعون): أن الهوىٰ رِقٌّ في القلب، وغُلٌّ في العنق، وقيد في الرِّجْل، ومُتابعه أسيرٌ لكل سيء الملكة، فمن خالفه عتَقَ من رقِّه وصار حراً، وخلع الغُلَّ من عنقه، والقيدَ من رجله، وصار بمنزلة رجُلٍ سالمٍ لرجل، بعد أن كان رجلاً فيه شركاء متشاكسون[1].

ربَّ مـسـتـورٍ سَـبَـتْـه شـهـوةٌ
فـتـعـرَّى سـتـرُه فـانهـتـكا

---

(١) تشاكس القوم: تعاسروا وتخالفوا. والشكس: العسر السيء الخلق، قال تعالى: ﴿ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون﴾ (الزمر: ٢٩).

صــاحبُ الشــهــوةِ عــبــدٌ فــإذا
غـلـبَ الشــهــوةَ أضْــحى مَلِكاً

وقال ابن المبارك:

ومن البــلاءِ وللبــلاء عــلامةٌ
أن لا يُــرى لــكَ عــن هــواك نــزوعُ
العــبــدُ عــبــدُ النَّفسِ في شــهــواتِها
والحــرُّ يشــبعُ تارةً ويجــوع

(الثامن والأربعون): أن مخالفةَ الهوىٰ تُقيم العبدَ في مقام من لو أقسم علىٰ الله لأَبرَّه، فيقضي له من الحوائج أضعافَ أضعاف ما فاته مَنْ هواه، فهو كمن رَغِبَ عن بَعْرة، فأُعطي عِوَضَها دُرَّة. ومتبعُ الهوىٰ يفوته من مصالحه العاجلة والآجلة، والعيش الهنيء، ما لا نسبة لما ظفر به من هواه البتَّة، فتأمل انبساط يد يوسف الصديق عليه الصلاة والسلام، ولسانِه وقدمِه ونفسه بعد خروجه من السجن، لما قَبَض نَفسَه عن الحرام.

وقال عبدالرحمن بن مهدي: رأيت سفيان الثوري رحمه الله تعالىٰ في المنام فقلت له: ما فعل الله بك؟ قال: لم يكن إلا أن وُضِعت في لحدي، حتىٰ وقفت بين يدي الله تبارك وتعالىٰ، فحاسبني حساباً يسيراً، ثم أمر بي إلىٰ الجنة، فبينا أنا أدور بين أشجارها وأنهارها لا أسمع حساً ولا حركة، إذا سمعت قائلاً يقول: سفيان بن سعيد. فقلت: سفيان بن سعيد، فقال: تحفظ أنك آثرت الله عز وجل علىٰ هواك يوماً؟ قلت: إي والله، فأخذني النِّثار(١) من كل جانب.

---

(١) النثار: ما نثر في حفلات السرور من حلوى ونقود، وبالضم ما تناثر من الشيء.

(التاسع والأربعون): أن مخالفَة الهوىٰ تُوجب شرفَ الدنيا وشرف الآخرة، وعزَّ الظاهر وعز الباطن، ومتابعته تَضَعُ العبد في الدنيا والآخرة، وتذله في الظاهر وفي الباطن، وإذا جمع الله الناس في صعيدٍ واحد نادىٰ منادٍ: ليعلمنَّ أهلُ الجمع مَنْ أهل الكرم اليوم، ألا ليَقُم المتقون، فيقومون إلىٰ محل الكرامة، وأتباع الهوىٰ ناكسو رؤسهم في الموقف في حرِّ الهوىٰ وعَرَقه وألمه، وأولئك في ظل العرش.

(الخمسون): أنك إذا تأمَّلت السبعةَ الذين يظلهم الله عز وجل في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله[١]، وجدتهم إنما نالوا ذلك الظل بمخالفة الهوىٰ، فإن الإمامَ المسلَّط القادر، لا يتمكَّن من العدل إلا بمخالفة هواه، والشابَّ المؤثر لعبادة الله علىٰ داعي شبابه، لولا مخالفة هواه لم يقدر علىٰ ذلك، والرجلَ الذي قلبه معلق بالمساجد، إنما حمله علىٰ ذلك: مخالفةُ الهوىٰ الداعي له إلىٰ أماكن اللذات، والمتصدِّق المُخْفِي لصدقته عن شماله، لولا قهرُه لهواه، لم يقدر علىٰ ذلك، والذي دَعته المرأةُ الجميلة الشريفة فخاف الله عز وجل، وخالف هواه، والذي ذكر الله عز وجل خالياً ففاضت عيناه من خشيته، إنما أوصله إلىٰ ذلك مخالفةُ هواه[٢].

فلم يكن لحرِّ الموقف وعَرَقه وشدته سبيل عليهم يوم القيامة، وأصحاب الهوىٰ قد بلغ منهم الحر والعَرَقُ كل مَبْلغ، وهم ينتظرون بعد هذا دخول سجن الهوىٰ.

---

(١) تقدم هذا الحديث في صفحة (٢٧٣).

(٢) لم يذكر الرجلين اللذين تحابا في الله تعالى، وهو من الحديث، وهما أيضاً قد خالفا الهوى فتحابّا في الله ولله، وأعرضا عن أعراض النفس وشهواتها.

فالله سبحانه وتعالى المسؤول، أن يُعيذنا من أهواء نفوسنا الأمَّارة بالسوءِ، وأن يجعل هوانا تبعاً لما يحبه ويرضاه، إنه على كل شيء قدير، وبالإجابة جدير.

«تم الكتاب والحمد لله»(١)

(١) وتم التعليق على الكتاب، بعون الملك الوهاب، حسب الوسع والطاقة، فلله الحمد والشكر، أولاً وآخراً، وظاهراً وباطناً، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، والحمد لله رب العالمين.

فهرست اطراف الحديث

فهرست أطراف الآثار